نور الإسلام

تأليف

الشيخ عبد الكريم محمد المدرس

أشرف على طبعه

محمد الملا أحمد الكزني

تـــــنــــــبـــــيــــــه

- **تم إعادة تنضيد الكتب وتدقيقها لمرة واحدة على الأقل، الرجاء التماس العذر في حال وجود بعض الأخطاء والمساعدة في تصحيحها إذا أمكن وذلك عن طريق التواصل عبر الايميل (** muhmaz@gmail.com **) او عن طريق الواتس اب (** 0097336610249 **).**
- **للحصول على آخر تحديث على الكتب يرجى تحميلها من قسم "الوصلات الخارجة" في صفحة المؤلف على موسوعة ويكبيديا حيث ستتوفر الروابط لأحدث النسخ (** https://tinyurl.com/yvt2s8pm **).**

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه المعونة والاعتصام

اللهم يـا من كفت هدايتـه للدلالـة على ذاتـه، ووفت عنايتـه بالإرشاد إلى آثـار صـفاته حـار النـاس إلا من هديتـه، وغـار في البأس إلا من نجيته.

أين الدليل عليك، وأنت لكل مدلول دليل؟ وكيف الوصول إليك، وأنت المنزه عن كل قـال وقيـل؟ نتوجـه إليـك ونتوكـل عليـك، ونطلب الهـدى منـك، فوجهنـا بإحسـانك إليـك، وعرفنـا وجـوب وجودك بهدايتك، ووفقنا على طاعتـك بعنايتـك، لنحمـدك حمـداً يوافي نعمك، ويكافئ مزيد فضلك، ونشكرك شكراً يماثل شكر خواص عبادك وأهلك وصل وسلم من سماء جـودك اللا محـدود على حبيبك المحبوب المسعود، سيدنا محمد الأحمـد المحمـود، الذي هدى العباد إلى المعبود، هداية إرشاد إلى ذلك الموصوف بالكرم والجود، وعلى جميـع إخوانـه العبـاد المصـطفين الأخيـار وآله وصحبه الكرام الأبرار ومَن تبعه بإحسان إلى يوم القرار.

وبعدُ فقـد وجـدتُ النـاس في وَجْـدٍ إلى تـذكرة لمقاصـد الـدين وإلى تبصرة حول مهمات الإسلام للمسـلمين، فبـادرت بتقـديم هذا الكتاب النـاطق بالصـدق والصـواب، وسـلكت فيـه مسـلك الاعتدال بين الإخلال والإملال، بغية الاستفادة منه في كل وضع وحال، وجعلت عنوانه ((نور الإسلام)) لمن أراد الفـوز بـالمرام، وعلى الله التوكل وبه العون والاعتصام.

فمن نور الإسلام.. الإيمان بالله

الإيمان بالله تعالى: أي الاعتراف والتصديق والإذعان بأن لهــذه الكائنــات من العلويــات والســفليات، ومــا احتوتــه من ســائر الموجودات صانعاً واجبَ الوجود وخالقاً لكل موجود، وهو اللايق بأن يُطاع، وهو المستحق للتعظيم، وهو المعبود وكل مـا سـواه مسـخر لقدرتـه، وخاشـع لهيبتـه، ورافـعٍ كـفّ الرجـاء إلى بـاب رحمته، لفيض إحسانه وكرمه ونعمته.

لا حاجة لصاحب العقل السليم إلى الفلسفة في هذا الباب، بـل يكفيه أن ينظر بعين العناية إلى الوجوه الآتية:

أولاً - منذ وجد البشر وهو أرقى الموجودات على هذه البسيطة الغـبراء، وتحت أشـعة شـمس السـماء، كـان أصـحاب سـلامة العقـل والإدراك منهم يعـترفون بـأن لهم خالقـاً أوجـدهم، وربـاً ربــاهم، يســتغيثون بــه في الملمــات، ويتضــرعون إليــه في المهمــات، ذلــك أنهم يشــعرون بنقص في ذاتهم، وعجــز في إدراكهم، وحيرة في عقولهم، وفتوراً أمـام مـأمولهم، ومن كـان له شعور بالنقص في النفس، حتمـاً يسـعى حـول الوصـول إلى كامـل يسـتنجد بـه، وعظيم يسـتعين بـه، ولاشـك أن الكامـل المطلق فوق الكـل هـو اللـه الـواجب الوجـود، فهـو المطلـوب والمقصود. فإذا كان أولوا سـلامة العقـل هكـذا، فمـا علينـا من أصحاب النقص في الإدراك، فقد اتفقت العقـول السـليمة على المطلوب.

ثانياً - لا شبهة أن الموجود المحسوس لدينا لا يخلو: إما جماد، أو نبات، أو حيوان، ونرى كل ذرة من ذرات الجمادات مسخرة تحت سيطرة التكوين والتحويل، فمن ماء يتحول بخاراً، وبخار يتحول سحاباً، وسحاب يتقطر ماء، ومن مواد أرضية تتكون بالتأثيرات، والانفعالات معادن.

ومن بذر يخرج من الأرض فيؤزره المؤثر، ويستغلظ فيستوي ويثمر، وبعد زمان يسقط فيتحول إلى مواد أرضية أخرى، ومن نطفة تتربى وتتصور وتخرج إلى عالم العيان، فيستفيد ويفيد إلى أجل مسمى، فعلم أن كل ذلك واقع تحت سيطرة وقوة، وأن كل قوة مدركة فهي أيضاً تحت تأثير قدرة فوقها إلى أن يصل إلى ما لا قوة تعلوه، وأن أشرفها وأقومها وهو الإنسان، هو دائماً في الجهد للخلاص من جهل إلى علم، ومن ضعف إلى قوة، ومن محنة إلى استراحة، فيستمر في حاجة للتطور من طور إلى آخر، ويعود سلسلة حاجاته إلى ميسر للأمور، ومسبب للأسباب، وقوة فوق القوى، ومعنى هذا كله أن كل موجود مشهود ضعيف ومسخر ومحدود ولا يمكن تصرف هذا المسخر الضعيف في نفسه وفي غيره، فقد تبين حاجة الجميع إلى متصرف مطلق له الإبداع والتصرف الكامل، يغيّر ولا يتغير، ويسخر ولا يتسخر، وذلك هو المقصود والمطلوب.

ثالثاً – لا خفاء في أن الله ميّز الإنسان بالعقل والعرفان، وبه يتدرّج من حال إلى حال، ومن نقص إلى كمال، وهو في كل حال من أحواله يدرك تمام الإدراك أنه لم يحصل له ولا

يحصل ولن يحصل له أقل شيء مما يحتـاج إليـه، بـدون سـبب من الأسباب وعلة من العلل، ولا يمكن له دفـع أيـة مضـرة من المضار إلا بدافع وعلاج، ولم يحصل له بدون حركة وحـول منـه أو من غـيره خـبز يأكلـه، ومـاء يشـربه، ولبس يلبسـه، ومحـل يسـكن فيـه، بـدون سـبب ومنشـأ، فكيـف يعقـل هـذا العاقـل المتطور، والمدرك المتطور الذي يحسب لنفسه ألف حسـاب؟ كيف يتصـور ويصـدق؟ بـأن شخصـه نفسـه وقـواه ومـا احتـواه حصل أو سيحصل بلا سبب، وكيف يتصور أن العلويات بما فيها، والسفليات بما عليها حصلت بدون تأثير مؤثر، وسـببية مسـبب، يـؤثر في إبداعـه، وإخراجـه إلى الوجـود؟ ولاشـك أنـه بـأدنى إنصاف ومراجعة إلى وجدانه يعلم أن نفسـه ومـا عـداها خلقهـا خالق وسواها وإليه منتهاها وهو المطلوب.

رابعاً – لا اشتباه في أن كل من نظر إلى وردة جميلة بديعة، أو صـنعة عجيبـة، أو أمـر مخـترع لم يـره قبـل ذلـك، أو نقـوش مستحسـنة، أو أنسـجة متلونـة، علم أن لـذلك المنظـور عامـل وصناع مبدع، مخترع قـدير، ولا يتـوهم أن ذلـك كـان صـدفة بلا أساس، فكيف يتصـور أن تلـك القـوى المودعـة فيـه من العين وأغشـيتها وأنوارهـا ومن المشـاعر وإدراكهـا وأسـرارها، ومن تركيب الجمجمة والدماغ ومحتوياتهمـا، ومن المعـدة وصـنعتها، ومن المفاصـل وانسـجامها، ومن الكـف والبنـان وخطوطهـا، نشأت من دون مؤثر، بله سائر المعنويات التي تتوالى عليه من الأحزان

والأفراح والذوق والنشاط وأضدادها، ومن طمـوح وميـول ومـا تؤول إليها كيـف يقبـل أن هـذه الأنفس العظيمـة الآثـار نشـأت بدون خالق؟ بل بالعكس يضطر إلى إرجاعها إلى باريها وخالقها ومبدعها، وذلك هو المقصود المطلوب.

خامساً – ارفع نظرك إلى خيمة السماء، وإلى الكواكب النـيرة، والنجوم الزاهرة، وإلى الشمس المشتعلة الملتهبـة الـتي تزيـد على كرة الأرض بنحو (ربع مليـون) مـرة، وتفكـر من أين هـذه الكـرة الملتهبـة؟ ومن أي جهـاز تشـتعل؟ وكيـف تقـف كمركـز لمجموعتهـا؟ وكيـف تجـري لمسـتقر لهـا؟ وكيـف تـدور حولهـا السيارات على مدارات خاصة مائلة أو مستوية؟ وكيف يحافـظ على سير تلك الحركات، ومراقبة موازينهـا، بحيث لا يتعـدى أي كوكب من مـداره، ولا من مقـدار آثـاره؟ وكيـف لا ينحـرف عن المدار ولا يتخلف عن عمله في دقيقة، أو آن من الليل والنهار؟ وكيف تدوم على هذه الأحوال تلك المجموعة على الاسـتمرار؟ وكيـف يـدور السـيارات على محورهـا كمـا يـدور حـول أمهـا ومركزهـا فمـا تلـك الجـواذب المركزيـة؟ ومـا تلـك المـوازين الاجتماعية؟ وفوق هذه المكتشفات ما وراءها ممـا لم يكتشـف إلى الآن لا يعلم علمها أحد غير مبدعها، ألا يقف العقل السـليم في مقام الاعتراف بمبدعها مترنماً بقوله ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ [1]، لا شك أن الناظر البصير،

---

(1) سورة طه، الآية 111.

والناقــد الخبــير، يرجــع إلى رشــده، ويعــترف بــأن الأجهــزة المسخرة المطيعة للأوامر لها آمر مطاع، له الملك والآثار يكوّر النهار في الليل، ويكوّر الليل على النهار، وهو المطلوب.
سادساً – إن شئت فانظر نظرة خاطفة في هذا المجموع، وقل إن الكل إما ممكن مستوي الوجـود والعـدم، وإمـا واجب ثـابت الوجـود من القـدم، أو بعضـه واجب أزلي وبعضـه ممكن خـرج إلى الوجـود من العـدم، إذا تـأملت دقيقـة علمت أن الاحتمـال الثاني فاسد بلا شبهة، لأنك تعلم أن الفنـاء طـرأ على كثـير من أجزاء المجموع، والحدوث ثبت لكثير مما شاهدته، كما تـرى أن الجبال تزلزلت ببركان، وأن المياه تبخرت بحـرارة في طغيـان، وهذا مما يخالف وجوب الوجود.
وكذا الاحتمال الثالث أي أن بعضه واجب قـديم وبعضـه ممكن، إذ لا رجحان للحجر على المدر، ولا للأرض على الماء، ولا للماء على الهواء، فعـروض الكـون والفسـاد في البعض دليـل صـحة طروهمـا في البـاقي، فلم يبـق إلا الأمـر الأول وهـو أن الكـل ممكن الوجود يستوي عدمه ووجـوده، وكـل مـا اسـتوى طرفـاً وجوده وعدمه محتاج إلى فاعل مـؤثر واجب الوجـود موصـوف بكماله وقدمه وهو المرام والمطلوب.
سابعاً – أن علة هذه المجموعة من حيث العمـوم، إمـا نفسـها، أو بعضها، أو أمر خارج عنها، لا يمكن بالعقـل البـديهي أن يـؤثر المجموع في نفسه لأنه المؤثر يجب أن يتقدم الأثـر، فلـو كـان المجمـوع علـة لنفسـه لـزم أن يتقـدم هـذا على نفسـه، وذلـك مستحيل بالبديهة.

وكذا لا يمكن أن يكون المؤثر في المجموعة بعضها، لأنـه يلـزم تقـدم هـذا البعض على نفسـه وعلى غـيره، فيعـود الفسـاد السابق، فلم يبق إلا الاحتمـال الثـالث وهـو أن علـة المجموعـة أمـر خـارج عنهـا، ومعلـوم أن الموجـود الخـارج عن مجمـوع الممكنات واجب الوجود، فثبت المرام والمطلوب.
ومن هنا يظهر كمـال الظهـور أن القـول بتـأثير الطبيعـة شـيء غلـط يجـري على اللسـان، ولا أسـاس لـه من الصـحة، لأن مـا يسمى بالطبيعة إما صفة لمجموع الكائنات، أو نفسها، أو خارج عنها.
فـإن كـانت الطبيعـة صـفة وخاصـة عارضـة على مـادة الكـون وأجزائهـا، فمعلـوم أنهـا تتـأخر عن موصـوفها، أي أنـه يجب أن تكون المادة موجودة، ثم يعرض عليها الطبيعة، فلا يكـون تـأثير هذا المتأخر في الأمر المتقدم معقولاً، وكذا إن كانت نفسـها أو جزءها، فإنه لا معنى لتأثير الشيء في نفسـه، فحينئـذ يجب أن يكون الأمر المسمى بالطبيعة خارجة عنها.
وهـذا وإن كـان خلاف المعقـول، لأنـه لا معـنى لكـون طبيعـة الشيء خارجة عنه، لكنّا نسامح ونرتضيه جدلاً، ونقول هذا الأمر الخارج عن مجمـوع الكائنـات المسـمى بالطبيعـة: أمـا قـوة بلا حياة وعلم وإرادة وقدرة وبـاقي الصـفات الكماليـة، فليس من المعقول أن يكون أمـر هكـذا منشـأ ومـؤثراً للكائنـات ونظامهـا وحركاتها وبركاتها وآثارها واستمرارها، وعقلية أشرف نوع فيهـا وإدراكاتها.

فلم يبــق إلا القــول بــأن الأمــر الخــارج من هــذه المجموعــة المشهودة ذو قوة وكمال وجمال وجلال واجب الوجود المتعال، موصــوف بجميــع صــفات الكمــال مــنزه عن ســمات النقص والاختلال، وله الوجود والحياة والعلم والإرادة والقدرة والســمع والبصر والكلام، وأنه هو المؤثر المطلق، وهو الذي يســتند إليــه جميــع الممكنــات الموجــودة بالــذات، بلا واســطة في الخلــق والإيجاد، وأن كل سبب من الأســباب يعتــبر من الأمــور العاديــة التي جــرت عــادة اللــه لخلــق الأشــياء عنــدها، لا بهــا، وأن ذلــك المؤثر مختار في جميع أفعاله، لا يجب عليــه شــيء، ولا يضــطر في حدوث أي أثر منه تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وحاصل ذلك هو كما أن وجود الكائنات معلوم ومشــهود، كــذلك وجود المؤثر الخــارج معلــوم ومشــهود غــير أنّــا لا نعلم أن ذلــك المؤثر ما هو وما كنهــه وحقيقتــه، فــإن العلم بوجــود الشــيء لا يــوجب العلم بحقيقتــه، ولا يقــدح ذلــك في الاعــتراف بــذلك والاعتماد إليه، فــإن العلم بالصــوت يــوجب العلم بالمصــوت، لا بحقيقته، وانفتاح الباب يوجب العلم بوجــود الفــاتح، لا بحقيقتــه، وآثــار الــبرق والنــور تــوجب العلم بوجودهمــا، ولا يــوجب العلم بماهيتهمــا، وعلمــك بحياتــك وعلمــك وإرادتــك وقــدرتك يــوجب علمــك بوجــود الــروح، أي النفس الناطقــة لــك، ولكن لا يــوجب العلم بماهية روحك، وليس ذلك الجهل بقادح في علمك ذلك.

ولذلك تــرى كتــاب اللــه ســبحانه وتعــالى ينطــق بوجــود البــاري وحياتــه وعلمــه وإرادتــه وقدرتــه وســمعه وبصــره وكلامــه، ولا يتعرض لبيان حقيقته، وذلك لأن التكليف

لا يتوجه إلا بما في الوسع، وليس في الإمكـان إحاطـة الممكن بالواجب، والناقص بالكامل، والمحدود باللا محدود.

لا تبــدع الكــون كعقــد نظيم	وتــردع الــذر نظـام السـديم
طبيعـــة عميـــاء في ذاتهـــا	وإنمـــا المبـــدع ربّ عظيم

خُلِقُـــــــــــــــونَ﴾ [1].

يعني بعد أن شعر الإنسان بأنـه مخلـوق حي مـدرك لـه صـفاته وكمالاته، هل يزعم أنه مخلوق بدون خالق، وبدون الحاجـة إلى منشأ؟ وهو مستحيل بداهة، أو يـزعم أن أفـراد هـذه السلسـلة البشـــرية بعضـــها خـــالق لبعض، مـــع أن ذلـــك من أوضـــح المستحيلات؟ وذلك لأن الأب لو كان هو الخـالق لولـده، لاختـار ولداً يكون أكبر أفراد السلسلة تقويمـاً وصـورة وسـيرة وآثـاراً، مـع أن كثـيراً من النـاس يموتـون حـاملين أسـف العقم وعـدم وجود النسل، وكثير منهم يلدون أولاداً ضعاف النفـوس سـخاف الطبع مشـوهي الصـورة والسـيرة يخجـل الإنسـان من صـحبته فضلاً عن قبول علاقته ونسبته.

ويأتي بقوله تعالى: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَـاطِرِ السَّـمَٰوَٰتِ وَالأَرضِ﴾ [2] وهذا يشير إلى أقوم البراهين، وهو برهان السببية، يعـني أن الإنسان لما نظر إلى هذه الأجرام العلويات

---

[1] سورة الطور، الآية 35.

[2] سورة إبراهيم، الآية 10.

بما فيها من الشمس والقمر والكواكب المستضيئة المنورة للكون، ونظر إلى الأرض ومعادنها ونباتها وحيوانها، وإلى البحر وما فيها من الجواهر والحيوانات العجيبة، فهل يعقل أن تكون هذه الأشباح والمواد وخيراتها ناشئة بدون سبب وفاعل؟ وهذه الآية برهان على وجود ذات كامل الصفات مختار في التأثيرات، وهو الله سبحانه وتعالى.

ويأتي بقوله تعالى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [1] وهذه مع كونها ناطقة بمنة خلق الزوجات، لتكون قرينة صاحبها في تأسيس كيان العائلة وكسب الراحة والسعادة، فهي أيضاً ردّ بأبلغ وجه إلى أقوال الزاعمين للصدفة، وأن الكون أثر صدفة واتفاق، لا فاعل مختار خلاق. فيقول هب أن الاتفاقات المتكررة وصلت إلى تكوين رجل عاقل، فهل يعقل أن تصل الاتفاقات الصدفية إلى ترتيب سلسلة من متطلبات هذا الرجل العاقل؟ لتكّون في جانبه كائناً آخراً مماثلاً له في الصورة والظاهر، ومودعاً فيه آثار الجمال المؤنس، ومبايناً له في بعض التركيبات الداخلية من الرحم وغيرها، حتى تكون عوناً للمخلوق الأول في نيل السعادة الأبدية.

وعلى هذا المنوال قوله تعالى ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [2]، فهل يعقل أن تصل الصدفة إلى خلق حشرات في أرقى درجات الإدراك لبناء الكورة

[1] سورة الروم، الآية 21.
[2] سورة النحل، الآية 68.

ومنافـذها على الشـكل المسـدس الـذي قلمـا يبقى في خلالـه فرجات خالية، ثم يكـون فيـه عقليـة الإدارة والرياسـة والتبعيـة والجوقة الموسيقية أمام الـرئيس وخروجهـا من الكـورة مغنيـة مطربة حتى يخرج الـرئيس فيطـير ويطـيرون وراءه، حاشـا ثم حاشا ولا مجـال لتصـور ذلـك إلا بإيحـاء خـالق حكيم خبـير يلهم مخلوقاته الحكمة.

ويـرد القـرآن الكـريم على مـزاعم الـدهريين الـذين ينسـبون الحوادث إلى الدهر وتصـريفاته بنص ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [1] يعـني أنهم ينسـبون خلـق الإنسـان وحياتـه وبقائـه إلى أجـل، ومماتـه إلى الـدهر، ويشـتبه عليهم الظروف الزمانية بالفاعل القادر المختار، مع أن هذا الاشتباه لا يليق إلا بأبسط الناس عقلاً وإدراكاً، وأن تلك النسبة نسـبة إلى ما لا تأثير له إلا بحسب الخرص والظن الغير المفيد، وذلـك لأن الـدهر عبـارة عن المـدة والاسـتمرار الناشـئ عن الـدورات والحركات المتعاقبة، وتلك الحركـات حاصـلة من قـدرة القـادر المحرك، وتلك القـدرة قـدرة واجب الوجـود العـالم بمـا يخلقـه المختـار في تصـرفاته، فـالحق هـو نسـبة الآثـار إليـه لا إلى الحركات الحاصلة في أشياء جامدة خالية عن العقـل والشـعور والإرادة.

---

[1] سورة الجاثية، الآية 24.

وهكذا يردّ القرآن الكريم على التعطيل والصدفة وتـأثير القـوى اللا شعورية، والدهر والطبيعة، بعبارة سـهلة سـليمة خاليـة عن التعمق والتكلف، وفي عين الوقت تأتي بالأدلة الدامغة للأوهـام الدافعة للاشتباهات السائقة لأولي العقل إلى الحق واليقين.

ويدعو في كثير من الآيـات إلى التوحيـد والاعـتراف بـأن خـالق الكون واحد، لأن الخالق إنما يليق بالخلق والإيجاد والإبـــداع، إذا كان قـادراً مختـاراً لـه الخلـق والأمـر، وحينئـذ لا معـنى لاعتبـار الشريك معه، لاسيما إذا كان الشريك مما لا حول له ولا طـول، فيقول ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰه وَٰحِد لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلـرَّحِيمُ﴾ [1] ويقول ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُـوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [2] ويقـول ﴿ٱللَّهُ خَٰلِـقُ كُلِّ شَيۡء وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡء وَكِيل * لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [3] وربما يتحدى المشركين بأنـه يفعـل أشـياء عظيمـة عجيبة فهل من الشركاء من يفعـل مثـل ذلـك فيقـول ﴿ قُلۡ هَلۡ مِن شُـــرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيـــدُهُۥۚ قُـــلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ [4].

وربما يأتي بدليل واضح جلي اعتيادي على التوحيـد، مثـل قولـه تعالى ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّـهُ لَفَسَدَتَا﴾ [5].

فـإن ظـاهر الآيـة دليـل إقنـاعي خطـابي مبـني على أن تعـدد الشركاء

---

(1) سورة البقرة، الآية 163.
(2) سورة البقرة، الآية 255.
(3) سورة الزمر، الآية 62.
(4) سورة يونس، الآية 34.
(5) سورة الأنبياء، الآية 22.

يوجب النزاع والاضطراب وعدم انتظام الأمور، وهو حق لا يكاد أن يقـع خلافـه إلا نـادراً، كمـا أن حقيقتهـا دليـل برهـاني على التوحيـد، وتقريـره أنـه لـو كـان فيهمـا آلهـة بـالمعنى الصـحيح للألوهيـة، لأمكن بينهم التمـانع، ولـو أمكن بينهم التمـانع، لـزم إمكان عجز كل منهم، ولو أمكن عجز كل منهم، لم يكن شـيء منهم آلهـاً، ولـو لم يكن شـيء منهم آلهـاً، لم يوجـد السـماء والأرض وغيرهمـا، فيكـون المـراد بفسـاد السـموات والأرض انتفاؤهمـا وعـدم خروجهمـا إلى الوجـود، كمـا قررهـا علمـاء التوحيد.

والحاصـل أن الآيـات القرآنيـة، وإن دلت بسـلامة العبـارة على المقصود، ولكنها محتوية على تحقيقات وتدقيقات لا يصل إليها، إلا عقول العلماء الأعلام، وهذه أيضاً في حد ذاتها دليل على أن القرآن كلام الله، ويستدل به على وجـوده سـبحانه وتعـالى من طريق خروجه عن طوق البشر.

الصفات

ويأتي القرآن الكريم بذكر صفات الباري سبحانه بصورة جلية مفهومة لعامة أهل العقل، مع أنها فيها إفادة لدقايق وحقائق تندهش أمامها عقول الفحول، فيأتي في سورة موجزة بجميع صفاته تعالى فيقول ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [1].

قل يا أيها الرسول الجليل في جواب من يسألك عن وصفي: الشأن أن الذات المعلم بلفظ ﴿اللَّهُ﴾: العلم على الذات الواجب الوجود الجامع لجميع الكمالات والمنزه عن كل نقص ﴿أَحَدٌ﴾ فرد واحد في حقيقة ذاته، ولا يمثاله شيء، وفرد لا نظير له في صفاته، وهو الكامل المطلق، فاندرج في تلك المفردات الموجودة ذاته وصفاته النفسية والسلبية والثبوتية، وما ذكر بعدها إيضاح لها وجملة ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ أي المصمود إليه في كل شيء فجميع ما سواه محتاج إليه، أي أنه تعالى قائم بالذات، وغيره قائم به لا يحتاج إلى أي شيء، وغيره محتاج إليه في كل شيء ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ أحداً لاستغنائه عمن ينوب عنه كالولد للوالد، فهو آخر الآخرين والباقي أبد الآبدين ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ من أحد ولم يستفد الوجود من أي مصدر، فهو الواجب الوجود الأزلي ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ لا يماثله أي شيء بحال من الأحوال، فليس جسماً ولا جوهراً ولا عرضاً، فاندرج في صمدانيته وجوده الواجب وحياته

---
[1] سورة الإخلاص.

وعلمه وإرادته وقدرته وسمعه وبصره وكلامــه، لأن من لم يكن موصوفاً بتلك الصفات لا يكون مصموداً إليه لكل شيء في كل شيء، واندرج بقاؤه في قوله ﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾ كما انـدرجت أزليتـه في قوله ﴿وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ واندرج عدم مماثلته لما سواه مطلقـاً في قوله ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾. كما أفاد وحدته، وعــدم وجــود المماثلــة لــه في وجــوب الوجــود، وفي الخالقيــة وفي المعبوديـة، هـذه الوحـدة الـتي بهـا كمـال التوحيـد لكـل مـؤمن موحّد.

ويفيد أزليته وأبديتـه، أي قدمـه وبقـاءه وظهـوره أمـام العقـول بالآثار، وخفاءه بالكنـه والحقيقـة على أسـاس الاسـتأثار، أي أن العـالم بذاتـه وصـفاته هـو ذاتـه فقـط قولـه تعـالى ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ [1]، وذلـك لأن الأوليـة الحقيقيـة لا يتحقـق، إلا بالأزليـة كمـا أن البقـاء بمعنـاه السليم، لا يتحقق إلا بالأبدية والآخرية.

ويأتي القـرآن الكـريم يـذكر صـفاته الباقيـة في صـياغة حسـنة مفهومة، فيأتي ببيان حياته تعـالى بقولـه ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [2] وفي عين الوقت أفادت علة حياته تعـالى بأنـه قيـوم للجميـع ومـدبر لأمورها، والتدبير والقيمومة، لا يمكن إلا من

[1] سورة الحديد، الآية 3.

[2] سورة البقرة، الآية 255.

الحي لبداهة أن الموت والجمود ينافيان الإدارة والمراقبة وهو ظاهر.

ويذكر القرآن الكريم صفة علمه تعالى بأبلغ العبارات فيقول ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1]. ويقول ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[2] فينسب العلم بالكليات والجزئيات إلى الله سبحانه، ويرد على الجهلة المتفلسفة الذين أنكروا علمه تعالى بالجزئيات بما لا مزيد عليه، ويقول ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾[3] يستنكر عدم علمه ويثبت علمه، ويستدل عليه بأنه خالق، والخالق لابد أن يكون عالماً بما يخلقه معنوياً أو مادياً، بسيطاً أو مركباً من الأجزاء، ويعلم بمقدرها وحالها ومآلها، وإلا فلا يميز شيئاً عن شيء ولا يصل إلى إيجاد شيء.

ثم في القرآن الكريم صفة إرادته، أي أنه تعالى حسب علمه الأزلي بالكائنات يخصص شيئاً الوجود وشيئاً بالعدم، وينفذ ما أراده بقدرته، واختياره فيقول ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[4].

ويرشد إلى أن كل ما يفعله سبحانه فهو بإرادته، ويرد على

---

[1] سورة الحجرات، الآية 18

[2] سورة يونس، الآية 61.

[3] سورة الملك، الآية 14

[4] سورة البروج، الآية 13 – 16.

من يقول بعجزه تعالى واضطراره، ووجوب شيء عليه تعالى عن ذلك.

وكذلك يصرح بقدرته وسيطرته على كل ممكن من الممكنات سواء كان جارياً على سننه الكونية الاعتيادية، أو على طريق خرق العادة، فيقول ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [1] ويقول ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [2] ويقول ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴾ [3].

ويصرح بأنه سميع بصير فيقول ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [4] ويقول في شأن الرسول صلى الله عليه وسلم والمرأة المجادلة ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [5] ويعلن كلام الله سبحانه في آيات ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [6].

﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [7].

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [8]. ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي ﴾ [9].

[1] سورة هود، الآية 4
[2] سورة الرحمن، الآية 7.
[3] سورة الإسراء، الآية 1.
[4] سورة المجادة، الآية 7.
[5] سورة المجادلة، الآية 1.
[6] سورة النساء، الآية 164
[7] سورة البقرة، الآية 253.
[8] سورة الأعراف، الآية 143.
[9] سورة الأعراف، الآية 144.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحيًا أَو مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَو يُرسِلَ رَسُولا فَيُوحِيَ بِإِذنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1].
إلى غير ذلك من الآيات البينات الناطقة بصفاته تعالى.
ونحن سمعناها وأخذناها وآمنا بها وفوضنا كنهها إليه تعالى، ذلك أنا إذا راجعنا أنفسنا وجدنا علمنا صوراً وانكشافات نفسية ناقصة عن الإحاطة بكثير ووافية ببعض الأشياء، ووجدنا إرادة وتخصيصات لفعل أشياء أو تركها، وربما نعجز عن تنفيذ ما أردناه، ونجد قدرتنا قاصرة لا تتوجه إلى أشياء بسيطة وإن سمعنا: بوصول الهواء المتكيف بكيفية الصوت إلى الصماخ، وأن أبصارنا: بانكشاف صورة المرئي لنا سواء كان الانكشاف بالانطباع أو بخروج الخطوط الشعاعية من الحدقة إلى المرئي، وأن كلامنا النفسي عبارة عن قوة تنبعث منها عبارات نفسية مخزونة تناسب العلم والإرادة. وأن كلامنا اللفظي عبارة عن أصوات مقطعة في مخارج متعددة يتركب منها المفردات والجمل، وكل ذلك لا يكون فينا إلا محدوداً معدوداً، وأما تلك الصفات بالنسبة إليه فليست على ذلك المنهج فعلمه شامل أزلي أبدي ثابت، وإرادته أزلية وقدرته أزلية نافذة حسب تعلق العلم والإرادة، وأن سمعه وبصره (كشفان) آخران لا مناسبة بينهما وبين ما عندنا، فيقال في التعاليم أن سمع الله بالنسبة إلى <21>

[1] سورة الشورى، الآية 51.

صوت دبيب نملة صغيرة على صخرة ملساء أعلى من صوت نعال جواد ركبه فارس عظيم الهيكل يركض به على حجارة خشنة، وكذلك كلامه تعالى بعيد عن مناسبته لكلامنا، فما يقول بعض علمائنا الأعلام أن سيدنا موسى كان يسمع كلامه سبحانه من جميع الجهات. لا من جهة واحدة وبجميع ذرات جسده لا بالسمع فقط، وليس من مقدورنا الإحاطة بكنه ذاته تعالى، ولا بكنه صفاته، بل ولا بكنه الأشياء المحسوسة عندنا، وإنما نعرف منها خواص وأوصافاً نميز بها بعضها عن بعض، ونستفيد من تلك الصفات والآثار بقدر تيسير الله تعالى لنا. فشأننا في هذه الصفات الأزلية لا يتعدى عن ذلك، فالآثار تدل دلالة قاطعة على ذاته تعالى وصفاته حياته وعلمه وإرادته وقدرته وكلامه وغير ذلك، بحيث لا يبقى مجال شبهة للعاقل المنصف، وما أتانا الرسول الأعظم بشيء فوق مقدورنا ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ ، فإنا نؤمن بالله وصفاته لا نعطل ولا نشبه ونسلك سبيل الاعتدال على الصراط المستقيم فاسلك أيدك الله ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ .

زبدة وخلاصة

تكلمنـا في هـذه الصـفحات عن ذات البـاري سـبحانه وتعـالى وصفاته بمـا يناسـب المقـام، وممـا ينبغي أن تعلم أن الإنسـان ليس مخلوقاً خلق سدى، وإنما خلق لتحمل مسؤوليات عظيمـة شاء أو أبى، فهو كشـخص وقـع في فلاة تركـه أصـحابه، فيجب عليه الجهد بقدر المستطاع للنجـاة والخلاص، فلا يمكن للعاقـل أن لا ينظـر إلى نفسـه الضـعيفة الغـير القـادرة على تكـوين شخصه وما يحتاج إليه، ولذلك علمنا هنا أن الإنسان من سـابق الأزمان إلى الآن اعتبر واستبصر وتفكر ونظـر وجاهـد واجتهـد، كي يعلم الحقيقـة ويصـل إلى مـا تطمئن لـه قلبـه، فمنهم من شرح الله صدره ووهبه إدراكاً وحضوراً واطمئناناً لا يحتاج بعـده إلى دليل وتعليل، كما روى عن سيدنا علي رضي اللـه عنـه أنـه قال (لو كشف الغطاء ما زدت يقيناً) أي لـو شـاهدت ربي بعين باصرتي ما حصل لي يقين أعلى مما وهبه الله تعـالى ونـور بـه عين بصيرتي. وهذا هو مقـام الحضـور والشـهود، والمطيـع في هذا المقام محسن أي أنه يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يـرى ربه فيوقن بأن الله يراه.

ومنهم من آتاه الله مقام الاستدلال، فاسـتدل على ذات البـاري وصفاته، وكـل مـا اسـتدل بـه حسـب الاسـتقراء لم يخـرج عن وجوه أفادها القرآن الكريم بسلامة المنطوق ووضوح الدلالة.

ذلك أن استدلالهم على وجوه:

الأول – الاستدلال على ذات الباري بإمكان السموات والأرض وما فيهما، أي أنها موجودات ممكنة يستوي وجودها وعدمها، أي لا يجب وجودها ولا يجب عدمها، وذوات كذلك تفتقر إلى ذات واجب الوجود يكون مبدءاً لها ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [1] أي أنتم الممكنات المحتاجة إلى مبدأ غير محتاج، وذلك المبدأ الغني هو الله الحميد في كافة شؤونه فإذا كان أشرف الموجودات كذلك فالجوامد والمواد الغير الحساسة كذلك بالأولى.

الثاني – الاستدلال بإمكان صفات الممكنات، أي أن كل صفة من صفاتها يستوي وجودها وعدمها، فعلوية الأجرام العلوية واستدارتها واستنارتها وحركاتها وعوارضها وعوارض الأجرام السفلية تتطور وتتحول وتتسخر فهي من المحتاجات إلى بارئ يأتي بها إذا شاء ويزيلها إذا شاء وإليه الإشارة في قوله تعالى ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ [2] فانبساط الكرة ووهداتها وصحاريها وجبالها، وجريان عيونها واخضرارها وجدبها، وعواصف الجو ونزول أمطارها وضياؤها وظلماتها كلها مما يتقلب ويتغير ومبدؤها هو الله الخالق الحكيم..

[1] سورة فاطر، الآية 15.

[2] سورة غافر، الآية 64.

ثالثها – الاستدلال بحدوث الأجسام وزوالها، وإليه الإشارة بقوله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه السلام ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [1] أي فلما زال القمر وانتقل من الأفق قال لا أحب الزائلين.

رابعها – الاستدلال بحدوث الأغراض والصفات في الأنفس والآفاق، أما دلالة حدوث الصفات في الأنفس، فلأن كل أحد يعلم أنه لم يكن موجوداً قبل ولادته، وهو الآن موجود بهذا الهيكل والعوارض والصفات يولد صغيراً فينمو، يصح فيتمرض، يحزن ويفرح، يقوى ويضعف، وكل ما يوجد بعد العدم لابد له من موجِد، وذلك الموجد ليس نفسه ولا الأبوان ولا سائر الناس، لأن عجزهم عن إبداع مثل هذا الموجود معلوم بالبديهة، فلابد من موجد يخالف هذه الموجودات حتى يصح منه إيجاد هذه الموجودات بحكمة وإتقان. ولما توهم متوهم لم لا يجوز أن يكون لطبائع الأرض والسماء والفصول والأفلاك والنجوم دخل وتأثير، ألفت الله أنظار العقلاء إلى رد ذلك بقوله ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا * وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا * وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ * أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا * وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا﴾ [2] أي أن كل ما يتوهم أنه مؤثر فهو ضعيف ومخلوق ومتأثر بسيطرة القادر العزيز.

ومن هنا يتبين أيضاً دلالة الآفاق على العليم الخلاق،

<25>

---

[1] سورة الأنعام، الآية 76.

[2] سورة النازعات، الآية 27 – 32.

فالأرض والجبال جبال يتصرف الباري سبحانه وتعـالى في هـذه الأجزاء السفلية والعلويـة، فيكـون في بعض الأراضـي والجبـال العيون والمعادن والأشجار، وفي بعضـها لا يوجـد أثـر من ذلـك، وجعــل أضــواء النجــوم على أوجــه مختلفــة بالزيــادة والنقص وسخرها لمشيئته وإرادته فسبحان الله عما يصفون.
ومما يجب أن يعلم أنه ليس الغرض من الآيات القرآنية ودلائلها المجادلة، بل الغاية تحصـيل العقايـد الحقـة وتوجيـه العبـاد إلى الله واطمئنان قلوبهم، فالدين وعظ وإرشاد ومجاملـة، لا مـراء ونزاع ومجادلة، فالمنصف يجب أن ينظـر بنفسـه لنفسـه حـتى يستوي ويعتدل ويراعي جانب نفسـه وجـانب قدسـه، فأشـرف الأوصاف هو الإنصاف، وأكمل الأحوال هو الاعتدال، ولذلك نرى ونسمع أن العارفين لم يـأتوا في هـذا الموضـوع إلا بمـا يجـذب القلوب إلى المطلوب، بالتعبير اللطيف وحسن الأسلوب.
ومن ذلك ما يحكي أن جمعاً من الدهرية دخلـوا المسـجد الـذي فيه الإمـام أبـو حنيفـة يريـدون قتلـه، فقـال لهم: أجيبـوني عن مسألة ثم افعلوا ما شئتم، فقالوا لـه هـات، فقـال: مـا تقولـون في رجــل يقــول لكم إني رأيت ســفينة مشــحونة بالأحمــال مملوءة بالأثقال، قد احتوشها في البحر أمـواج متلاطمـة وريـاح مختلفة، وهي من بينها تجري مستوية ليس لها ملاح يجريها، ولا متعهد يدفعها، هل يجوز ذلك في العقل؟ قالوا لا، هـذا شـيء لا يقبله العقل، فقال أبـو حنيفـة: يـا سـبحان اللـه إذا لم يجـز في العقل سفينة تجري في البحر

مستوية من غير متعهد ولا مجر، فكيف يجـوز قيـام هـذه الـدنيا على اختلاف أحوالهـا وسـعة أطرافهـا وتبـاين أكنافهـا من غـير صانع وحافظ؟ فبكوا جميعاً وقـالوا: صـدقت وأغمـدوا سـيوفهم وتابوا.

وسئل مرة أخرى عن الخالق المختار فتمسك بـأن الوالـد يريـد أن يولد له ذكر فيولد أنثى، وبالعكس، فدل هذا على الصانع.

وسأل هارون مالكاً عن ذلك فاستدل بـاختلاف الأصـوات وتـردد النغمات وتفاوت اللغات.

وسئل الشافعي رضي الله عنه مـا الـدليل على وجـود الصـانع، فقال: ورقة الفرصاد طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد عندكم قالوا نعم قال فتأكلها دودة القز فيخرج منها الأبريسـم، وتأكلهـا النحل فتخرج منها العسل، وتأكلهـا الشـاة فيخـرج منهـا البعـر، ويأكلها الظبـاء فينعقـد في نوافجهـا المسـك، فمن الـذي جعـل هذه الأشياء كذلك مـع أن الطبـع واحـد، فاستحسـنوا منـه ذلـك وأسلموا على يده وهم سبعة عشر.

وسـئل أحمـد بن حنبـل رضـي اللـه عنـه، فقـال: قلعـة حصـينة ملساء لا فرجة فيها ظاهرها كالفضة المذابـة وباطنهـا كالـذهب الأبريز، ثم انشـقت الجـدران وخـرج من القلعـة حيـوان سـميع بصير فلابد من الفاعل، يريد بالقلعة: البيضة، وبالحيوان الفرخ.

رؤيته سبحانه وتعالى

ومن أحواله جل شأنه أنه يراه المؤمنون يوم القيامة عياناً بعيون رؤوسهم مطمئنة بها نفوسهم مستغرقة في أنوار تجلياته الحسنى التي لا حسنى فوقها قال تعالى ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [1] وفسرت الزيادة بالرؤية لوجهه الكريم وقد ثبت في أحاديث كثيرة وروايات مختلفة عن الرسول صلى الله عليه وسلم رؤية المؤمنين ذات الباري سبحانه.

في تفسير القرطبي وروى جرير بن عبد الله قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوساً فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: ((إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا. ثم قرء وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب)) (متفق عليه) وخرجه أيضاً أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح. وقال السعد في شرحه للنسفية أن حديث الرؤية رواه واحد وعشرون من أكابر الصحابة رضي الله تعالى عنهم [2].

---

[1] سورة يونس، الآية 26.

[2] قال السيوطي قلت إما بهذا اللفظ فأخرجه الشيخان من حديث جرير البجلي، وأي هريرة، وأبي سعيد الخدري. وأخرجه اللالكائي من حديث حذيفة بن اليمان، وأخرجه أحمد وابن ماجة والحاكم وصححه من حديث أبي رزين العقيلي ولا سادس لهم.

وأما مطلق الرؤية من غير تقييد بهذا اللفظ فورد من حديث أبي بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وأنس، وجار بن عبد الله، وزيد بن ثابت، وصهيب، وعبادة بن الصامت، وابن عباس، وابن عمر، وعدي بن حاتم، وعمار بن ياسر، وفضالة بن عبيد، وكعب بن عجرة، وأبي موسى.

انظر تخريج الأحاديث والآثار في شرح العقائد النسفية للسيوطي مخطوط.

ويدل على امتياز المؤمنين بهذه الزيادة العظمى قوله سبحانه وتعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ [1] والتفسير: وجوه يوم القيامة حسنة متنعمة ذات نضارة وبهجة ناظرة إلى وجه ربها الكريم. ووجوه يوم القيامة كالحة عابسة توقن وتعلم أنه يفعل بها ما لا يستوفيه إلا الداهية الكبرى والبلية العظمى. ويدل على حرمان الكفار أيضاً عن هذه النعمة قوله تعالى ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [2]، وهذا الذي ذكرناه من تمتع المؤمنين برؤية الله يوم القيامة، ومنع الكفار عنها مذهب جمهور أهل السنة والجماعة.

ومخالفة أهل البدعة ساقطة عن الاعتبار، واستدلالهم بآية ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [3] مردود بحمل ذلك على الدنيا، أو على الإدراك بحيث يوصل إلى كشف شخصيته الكريمة، ويدل على ذلك آخر الآية الشريفة أي ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ فإن اللطيف لا يدرك تمام الإدراك. ثم يستفاد من قوله: وهو يدرك الأبصار أنه تعالى

---

[1] سورة القيامة، الآية 22.
[2] سورة المطففين، الآية 15.
[3] سورة الأنعام، الآية 103.

يرينا ويرى أبصارنا فكما تحقـق رؤيتـه لنـا يتحقـق رؤيتنـا لـه بلا شبهة والحمد لله.
وأما استنادهم إلى اعتبار شـروط في الرؤيـة يسـتحيل تحققهـا في رؤيـة البـاري سـبحانه فسـاقط، لأنــه قيـاس الغـائب على الشاهد وهو قياس فاسد كاسـد، ومن مشـى على ذلـك مشـى على أشـواك، فـإن الجنـة ونعيمهـا وأهلهـا خالـدة مؤبـدة، وأن ثمارها دائمة وظلها دائم، وأن أهل الجنة يتنعمون بلا أذى مـادي أو معنـوي وأن نتـائج مـأكولاتهم ومشـروباتهم رشـحات عـرق تخرج وتفوح، وأنه لا لغـو فيهـا ولا تـأثيم، ويسـتفاد من ذلـك أن قوى عالم الآخرة غير قوى عالم الدنيا، وأن الله قادر على كــل شــيء، فلا مــانع عقلاً ونقلاً على تنعيم المؤمــنين برؤيــة ذاتــه ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[1].
<30>

[1] سورة آل عمران، الآية 74.

الملائكة

الإيمان بوجود الملائكة، وهم أجسام لطيفة نورانية قادرة بـإذن الله تعالى على التشكل بأشكال مختلفة طيبة نظيفة.

ذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم أوصافهم وأصنافهم، وأوصافهم كثيرة: أحدها الرسالة لبعض منهم بين الله تعالى وأنبيائه ورسله، أي أنهم يوصلون وحيه تعالى إليهم قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا﴾ [1] والثاني اجتنابهم عن النواهي وامتثالهم للأوامر قال تعالى: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [2].

وأما ما دار على الألسنة من قصة هاروت وماروت، من أنهما ابتليا بالمعصية فكذب صريح لا أصل له ولا أساس، لأنه على قراءة الملكين (بكسر اللام) وهي قراءة متواترة، فالأمر واضح، لأنه يتبين أنهما لم يكونا من الملائكة بل من الملوك، وكانا عالمين بالسحر ويعلمانه الناس مع التوصية على أن لا يكفروا بمزاولته، بل يتعلمونه ليقوا أنفسهم من شر السحر. وأما على قراءة الملكين (بالفتح) فتعليمهما الناس السحر كان حكمة من الله حتى يميز الناس المعجزات

[1] سورة الحج، الآية 75.
[2] سورة التحريم، الآية 6.

والكرامات من السحر، وحتى يحفظوا أنفسهم من الوقـوع في شبكة السحرة، وظاهر الآيـة دال على هـذا المعـنى. فـإن قيـل كيف يعقل ثبوت القرائتين مـع منافاتهمـا. قلنـا: لا منافـاة، لأنـه على قـراءة الكسـر يسـتفاد أنهمـا كانـا ملكين من ملـوك بابـل وكانا صاحبي إيمان وأخلاق ولذلك يوصون الناس بالخير.

وأما على قراءة الملكين (بالفتح) فمعناها أنهما مـع كونهمـا من الملائكة كانا من كبار الملائكة وفي درجة الملوك بينهم [1].

والوصـف الثـالث دوام طاعـاتهم قـال تعـالى ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [2].

والرابع خوفهم من الله تعالى، قال تعالى ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ [3].

الخامس قرب منزلتهم ورفعة درجتهم لقولـه تعـالى ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ [4].

السادس أنهم لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة قال تعالى ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ﴾ [5] استنكر الله تعالى اعتقاد الكفار أنوثة الملائكة،

---

[1] للتأكد من صحة كلام الأستاذ ومتانته بإمكانك أن تراجع تفسير الإمام فخر الدين الرازي عند قوله تعالى {وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ} سورة البقرة، آية 102.

[2] سورة الأنبياء، الآية 20.

[3] سورة الأنبياء، الآية 28.

[4] سورة الأنبياء، الآية 26.

[5] سورة الزخرف، الآية 19.

وإذا لم يكن فيهم إناث لا يكون فيهم الذكور أيضاً، لأن إباء الماهية النوعية عن أحد الزوجين يقتضي إباءها عن الآخر كما حقق في محله.

وأما الأصناف فكثيرة أيضاً: أحدها – حملة العرش قال تعالى ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [1].

الثاني – الحافّون حول العرش لقوله تعالى ﴿مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ [2].

الثالث – أكابر الملائكة، ومنهم جبريل وميكائيل صلوات الله عليهما لقوله ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [3] ومنهم عزرائيل وإسرافيل كما ورد في الآثار الكثيرة.

الرابع – المتهيئون لنصر أولياء الله وقهر أعدائه كما في قوله تعالى ﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [4].

الخامس – ملائكة الجنة لقوله تعالى ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ﴾ [5].

---

(1) سورة الحاقة، الآية 17.
(2) سورة الزمر، الآية 75.
(3) سورة البقرة، الآية 98.
(4) سورة آل عمران، الآية 124.
(5) سورة الرعد، الآية 23.

السادس – ملائكة النار لقوله تعالى ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ [1].

السابع – الموكلون ببني آدم لقوله تعالى ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [2].

الثامن – من كتبة الأعمال لقوله تعالى ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [3].

التاسع – مأمور سؤال الموتى كما ورد في الحديث الشريف ((أنه يأتي الميت ملكان يسألانه عن ربه وعن دينه)) إلى آخره [4].

العاشر – الموكلون بأحوال العالم وهم المرادون بقوله تعالى ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ [5] وقوله ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ [6] إلى قوله ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ وبقوله تعالى ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا * وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ [7] إلى قوله ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ وغيرهم كثيرون لا يعلم عددهم إلا الله قال تعالى ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [8].

[1] سورة المدثر، الآية 30.
[2] سورة ق، الآية 18.
[3] سورة الانفطار، الآية 10.
[4] عند مسلم جاء في حديث طويل بلفظ «يأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل»، الحديث. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (10/321).
[5] سورة الصافات، الآية 1.
[6] سورة الذاريات، الآية 1 – 4.
[7] سورة النازعات، الآية 1 – 5.
[8] سورة المدثر، الآية 31.

الجن

الإيمان بالجن، وهم أجسام لطيفة نارية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة مطلقاً، ويوصفون بالذكورة والأنوثة، وأبوهم الأول الجان، وقد قال تعالى ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [1]، وفيهم المطيع والمعاصي وقد أرسل إليهم الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، والكافرون منهم شأنهم الاستكبار والطغيان والكفر وإغواء الناس ولا تأثير لهم في أي شيء إلا بإذن الله تعالى، قال تعالى ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [2]، وقال ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [3]. الآية. والشياطين من ذرية إبليس، وإبليس من الجن لقوله تعالى ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [4].

ولا يمتنع ظهور الملائكة والجن والشياطين على بعض الأبصار في بعض الأحوال، والحاصل أن وجود الملائكة والجن والشياطين مما ورد به نصوص الدين من الكتاب والسنة وأن إنكار وجودهم خروج عن الدين وكفر صريح.

[1] سورة الحجر، الآية 27.
[2] سورة الأحقاف، الآية 29.
[3] سورة الجن، الآية 1 – 2.
[4] سورة الكهف، الآية 50.

ولا يمتنع ظهور الملائكة والجن والشـياطين على بعض الأبصـار في بعض الأحوال دون بعض.
وليس كل ما لا يدرك بالبصر معدوماً فإن في الكـون أشـياء لم تنكشــف للنــاس إلى يومنــا هــذا ولم يبصــره أحــد مــع أن الاختراعات المتتالية تفيد وجودها ووجود أمثالها.

الكتب

ومن نور الإسلام الإيمان بالكتب المنزلة على الرسل من الله سبحانه وتعالى إجمالاً وتفصيلاً. أما الإجمال ففي ما لم يصل إلينا تفصيله، فنؤمن بأنه سبحانه وتعالى أنزل الصحف على سادتنا: آدم، وشيث، وإدريس، وإبراهيم، وغيرهم من المرسلين، والمشهور أن المنزل على سيدنا آدم عشرة صحائف، وعلى شيث خمسون، وعلى إدريس ثلاثون، وعلى إبراهيم عشرة، والمجموع من الكتب الأربعة مائة وأربعة كتب، والرسول الذي لم ينزل عليه مستقلاً كان يعمل بالكتاب السابق.

وأما التفصيل فبأن نؤمن بأن الله تعالى أنزل التوراة على موسى، والزبور على داود، والإنجيل على عيسى، والقرآن الكريم على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى سائر إخوانه أجمعين.

ولابد في الإيمان بالكتب من أمور:

الأول – الإيمان بأن هذه الكتب وحي من الله تعالى إلى رسله، وأنه ليست من الأمور الاكتسابية، ولا من قبيل الكهانة والسحر، ولا من باب إلقاء الشياطين والأرواح الخبيثة.

والثـاني – الإيمـان بـأن هـذه الكتب المنزلـة نـزلت مـع جبريـل الأمين، ولم يكن في إمكان أي جن أو إنس التعرض لهـا وإلقـاء شيء من ضلالاتهم فيها كما قال تعـالى ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ [1].

والثـالث – الإيمـان بـأن الكتـاب المـنزل على سـيدنا محمـد لم يتطرق إليه خلل وعيب منذ نزل بالحق إلى يومنا وسيبقى هكذا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [2].

والرابع – الإيمان بأن القرآن مشـتمل على آيـات محكمـات هن أم الكتــاب وآيــات متشــابهة. وأن المحكمــات حاكمــة على المتشـابهات فلا يجـوز في المتشـابهات اعتقـاد معـنى يخـالف النصوص المحكمة.

ولنا في المتشابهات رأيان:

الأول – الإيمـان بهـا وتفـويض المعـنى المـراد منهـا إلى اللــه سبحانه وتعالى، فلا نتكلم في تفسـيرها وتأويلهـا ونقـف عنـدها وقفة الاحترام والإجلال، ونفوض المراد منها إلى اللـه المتعـال، وهذا رأي السلف.

والثاني – تأويلها تأويلاً صحيحاً سليماً ماشياً مع مقتضيات الآيات المحكمات حيث إن الآيات جاءت للإرشاد

[1] سورة الإسراء، الآية 105.

[2] سورة الحجر، الآية 9.

والإصلاح وإنما يتيسر الإرشاد بما يفهم معناه ومغزاه، وهذا رأي الخلف رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وبحثنا نحن المسلمين مع القرآن الكريم، فإنه أصل ديننا ودستور إلهي أنزله الباري سبحانه وتعالى إلى حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم.

فالقرآن هو الكتاب المنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في مدة ثلاث وعشرين سنة، للعمل بمقتضاه عقيدة وعملاً، والتعبد بتلاوته، والإعجاز بمقدار أقصر سورة منه وكان مبدأ نزول هذا القرآن على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في السابع عشر من رمضان المبارك الواقع في العام الأربعين من عمره الشريف، وكان صلى الله عليه وسلم في غار (حراء) من بعض نواحي مكة المكرمة، وأول ما نزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم﴾ [1].

وبعد ذلك نزل بالتدريج حسب ما اقتضته الحكمة الإلهية في مدة ثلاث وعشرين سنة وآخر ما نزل منه آية ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٍ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [2].

---

[1] انظر صحيح البخاري باب كيف كان بدأ الوحي قبل كتاب الإيمان.

[2] سورة البقرة الآية 281. فمن أراد المزيد بإمكانه أن يراجع كتاب البرهان في علوم القرآن 1/209.

وكان نزول أمين الوحي جبريل عليه السلام على أوجه منها أنه يتمثل له بصورة ملكية مهيبة، ومنها أنـه يتمثـل بصـورة إنسـان معتدل يسمى (بدحية) وهو من أصهاره صلى الله عليه وســلم، ومنهـا أنـه يأتيـه بلا انكشـاف الصـورة مـع صلصـلة كصلصـلة الجرس يسـمعها الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم ويغيب عن حالته الاعتيادية، وذلك أشد أحوال نزول الوحي عليه صلى اللـه عليه وسلم.
ولما كان أوقات مبادئ دعوى الرسـالة منـه وإيمـان النـاس بـه أوقاتـاً حرجـة دقيقـة، وكـان من يـدخل في الإسـلام يـدخل في آفاق واسعة من انشـراح الصـدر، وفي عين الـوقت يـدخل في موجة رهيبـة من الاضـطهاد والأذى بتعـدي المشـركين، وكـانت الـدعوة في اختفـاء، مـا أمكنهم الكتابـة بصـورة واسـعة وإنمـا يحفظـون مـا قـرأه عليهم الرسـول عن ظهـر القلب وتلاوتـه وتكراره، مع العلم أن أمة العرب كانت أمة أمية، وكان اعتماده في قصصـهم وأدبهم على الحفـظ في الصـدور، فأخـذ القـرآن موقع الصدارة من صـدورهم، لاسـيما وكـان ينبعث القـرآن من عالم الغيب المتلاطم بموجات الأنوار، ويحدث بكل ما نــزل من الآيات تطـور لقلـوب المسـلمين، وتـدرج من درجـة إلى درجـة أعلى كلما ﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ [1].

---
[1] سورة الأنفال، الآية 2.

إلى أن هـاجر الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم إلى المدينـة المنورة واستقر بها المسلمون، فأمر رجالاً كراماً من الصـحابة بكتابة الوحي من أول ما نزل إلى ذلك اليوم ومن ذلـك التـأريخ إلى وفاته عليه الصلاة والسلام.

وبلـغ عـدد كتـاب الـوحي نيفـاً وأربعين شخصـاً منهم الخلفـاء الراشـدون، ومعاويـة بن أبي سـفيان، وزيـد بن ثـابت، وأبي بن كعب وغيرهم كما هو مذكور في كتب السير. وبمـا أنـه لم يكن إذ ذاك أوراق قرطاسية وما كان النـاس يتمكنـون من صـحايفه جلود مصفاة كانت كتابتهم على عظام الأكتاف وسـعاف النخـل والحجارة الملساء، وكان اخص النـاس بكتابـة الـوحي للرسـول صلى اللـه عليـه وسـلم زيـد بن ثـابت، وكـان كـل مـا نـزل من الوحي يبلغه الرسول عليه الصـلاة والسـلام إليهم وإلى غـيرهم فيكتبونه ويحفظونه يكررونـه آنـاء اللـه وأطـراف النهـار، ويعلم الحفــاظ أهلهم وذويهم، فعنــدما يمــر الإنســان بــأطراف دور الأصحاب يسـمع دويـاً كـدوي النحـل من قـراءة القـرآن، فتنـور العالم الإسـلامي بـأنوار القـرآن، ولم يكن عنـدهم كلام ووعـظ وإرشاد وحكمة يصل درجة آيـة من آيـات القـرآن فالاعتنـاء بهـا كان في أعلى درجات الاعتناء.

وكان صلى اللـه عليـه وسـلم يـأمر كتـاب الـوحي بضـم الآيـات بعضها إلى بعض ويعلمهم انتهاء سورة من السور بنزول «بسم اللـه الـرحمن الـرحيم» فلم تكمـل سـورة إلا بتوقـف جبريـل للرسول وإعلام الرسول أصحابه الكرام ولم تأخذ آية

من أي سورة محلها إلا بإعلام الرسول وتوقيفه [1].
وكان صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن المحفوظ عنده في رمضان كل سنة مرة على جبريل عليه السلام، ولكنه قرأه عليه في الرمضان الأخير من حياته مرتين كما قرأ زيد بن ثابت ما عنده من القرآن مرتين فيها، ولعل هذا الأمر نعي بوفاته صلى الله عليه وسلم، وإعلان أن زيد بن ثابت أمين على الوحي المنزل.
وهذا لجمع الموجود عند زيد بن ثابت هو الجمع الأول الموجود في آخر حياته صلى الله عليه وسلم وعند وفاته في ربيع الأول في العام الحادي عشر الهجري.
ولما ألقت الخلافة قيادها إلى أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ووقعت وقائع حربية مدهشة في جزيرة العرب، ولاسيما ما وقع بين المسلمين وبين مسيلمة الكذاب وأعوانه في اليمامة، واستشهد في هذه الواقعة نحو سبعين صحابياً من قراء القرآن الكريم خاف عمر بن الخطاب من ضياع القرآن بموت القراء وأشار إلى سيدنا أبي بكر بجمع القرآن في صحايف مضبوطة ووافق أبو بكر على ذلك وأسمعوا زيد بن ثابت ما عندهم وترجياه الوفاء بهذا الأمر ووافقهما وشرعوا في إنجاز المهمة العظيمة.

[1] حيث روي عن ابن عباس رضي الله عنه كان النبي لا يعرف فصل السورة، حتى ينزل عليه «بسم الله الرحمن الرحيم» وفي رواية: لا يعرف انقضاء السورة، رواه أبو داود. والحاكم وقال: أنه صحيح على شرط الشيخين. انظر نصب الراية 327/1.

فجمعـوا كـل من كـان عنـده قـرآن مسـطور أو محفـوظ في الصدور فكتبوا جميع ما عنـدهم بعـد الاطمئنـان والاسـتيثاق في صحائف من الجلد، وحفظت عنـد سـيدنا أبي بكـر الصـديق في حياتــه واســتلمها عمــر بعــد اســتخلافه، وبقيت عنــده إلى استشهاده، وبعد وفاته بقيت عند أم المؤمنين حفصة بنته رضي الله عنها إلى أيام خلافة عثمان رضي الله عنه.

وفي أيام عثمان رضي الله عنه زادت الفتوحات واتسعت رقعة الخلافـة شـرقاً وغربـاً جنوبـاً وشـمالاً، فصـادف أن وقـع بين المجاهدين من الأصحاب الكرام عندما وصلوا إلى (باب الأبواب شمال أذربيجان) اختلاف في بعض القراآت كادت أن تؤدي إلى فتنة كبيرة أطفأها الله تعالى برحمته. وكـان حذيفـة بن اليمـان صاحب أسرار الرسول صلى الله عليه وسلم شاهداً لما جـرى، فرجع الى المدينة المنـورة ولم يـنزل الا على الخليفـة عثمـان، ووصاه بجمـع القـرآن وجمـع النـاس على وضـع لا يكـون مثـاراً للاختلاف وحذره من مغبة إهمال ذلك الأمر العظيم.

فاستشـار عثمـان رضـي اللـه عنـه الأصـحاب الموجـودين من المهاجرين والأنصار بما فيهم سـيدنا علي بن أبي طـالب وبقيـة العشـرة المبشـرة حـول القضـية فـاتفقت آراؤهم على جمـع القرآن الكـريم مـرة أخـرى، فأرسـل عثمـان إلى أم المؤمـنين حفصة، لأخذ القرآن المجمع عليـه في عهـد أبي بكـر، فأرسـلته إليـه، وعهـد عثمـان في نسـخ المصـاحف إلى أربعـة من خـيرة الصحابة وثقات الحفاظ، وهم زيد بن ثابت، وعبد الله بن

الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشـام، وهؤلاء الثلاثة الأخيرة من قريش.
وقرر أن لا يكتبوا في هذه المصاحف إلا ما تحققـوا أنـه قـرآن، وعلموا أنه استقر في العرضة الأخيرة، وما أيقنوا صـحة نسـبته إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ويتركوا ما سوى ذلـك نحـو ﴿فامضوا إلى ذكـر اللـه﴾ بـدل ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [1]،
وأمرهم عثمان أن يكتبوا القرآن على الوجه التالي:
اللفـظ الـذي لا تختلـف فيـه القـراءة يرسـم بصـورة واحـدة لا محالة.
والذي تختلف فيه القراءة ويمكن رسمه في المصـحف محتملاً لتلك الوجوه رسموه كـذلك كلفـظ ﴿فتـبينوا﴾ [2] في الحجـرات حيث يحتمل لقراءة ﴿فتثبتوا﴾ مجردة عن النقاط فكتبوه برسم واحد محتمل لهما.
وما لم يمكن فيه رسمه محتملاً لهـا كتبـوه برسـم يوافـق بعض الوجوه في مصحف، وكتبـوه برسـم آخـر يوافـق بعض الوجـوه الأخرى في مصحف آخر وذلـك نحـو ﴿وصّـى﴾ ماضـياً من بـاب التفعيل و﴿أوصى﴾ ماضياً من باب الأفعال.
وقد نسخ بأمر عثمان ستة نسخ أرسل منها إلى مكة المكرمـة، ومصـر، والشـام، والبحـرين، والكوفـة، وبقيت نسـخة بالمدينـة المنورة، وهي المسماة بالمصحف الإمام، ثم أمر

---
[1] سورة الجمعة، الآية 9.
[2] سورة الحجرات، الآية 6.

بما سواها من المصاحف أن تحرق وتدفن، وكان بعض من الصحابة يمنع إحراق المصحف الموجود عنده، فوافق أخيراً عندما تبين له أنه خير للإسلام، وكان يقول الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يا معشر الناس اتقوا الله وإياكم والغلو في عثمان، وقولكم: حراق المصاحف، فوالله ما حرقها إلا على ملأ مِنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وكان يقول: رحم الله عثمان حيث جمع الناس على الخير، فلو كنت أنا الخليفة بدله لفعلت هذا بادئ بدء أو كما قال.

ومما ينبغي معرفته أن المصاحف العثمانية لم تنقط، ولم تشكل، وبقي الأمر على ذلك إلى عهد عبد الملك بن مروان، ولما اتسعت رقعة الإسلام، واختلط الأعراب والأعجام، وكانوا يشتبهون في قراءة بعض الكلمات، أمر الحجاج بن يوسف بتدارك هذا، وهو عهد ذلك الخطب المهم إلى عالمين جليلين هما نصر بن عاصم الليثي، ويحيى بن يعمر العدواني، وكلاهما كفء قدير لجمعهما العلم والعمل والصلاح والورع والخبرة بأصول اللغة ووجوه قراءة القرآن فكفلا مهمتهما وأعجما القرآن الكريم على أتقن وجه وأجوده.

وأما تشكيله فكان هو أيضاً من المهمات بعد أن حصل اختلاط الناس بعضهم ببعض، وازداد اللحن في إعراب اللغة. حتى صادف أبو الأسود الدؤلي قارئاً يقرأ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ بجر لام الرسول، فأفزعه <45>

ذلك وقال عزّ وجه الله أن يبرأ من رسوله، ثم ذهب إلى (زياد) والي البصرة، وقال له: قد أجبتـك إلى مـا سـألت وكـان يطلب منه سابقاً إعراب القرآن وهو يأبى، فشكل القرآن بصور نقـاط فوقية وتحتية، وجعل علامة السـكون نقطـتين، واسـتمر النـاس على ذلك، وزادوا ما يحتاجون إليه، حتى وصـل القـرآن الكـريم إلى هذا الحد المعلوم من الشـد – والمـد والحركـة والسـكون، فجزاهم الله تعالى عن المسلمين خيراً. <46>

القراآت السبع

ثبت أنه صلى الله عليه وسلم قال ((إن هذا القـرآن أنـزل على سبعة أحرف)) [1]. وفسر بسـبعة أوجـه من القـراآت المختلفـة ظاهراً والمتحدة معنى ومغزى ومآلاً، وذلك لتيسير قراءته على كافة قبائل العرب. وهذه القـراآت السـبع متـواترة أي ثبت كـل منها بنقل جمع يؤمن من اتفاقهم على الكذب عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم طبقة بعد طبقة.

ولما بعث عثمان بالمصاحف إلى الممالك الإسلامية أرسـل مـع كل مصحف من يوافق قراءته لذلك المصحف.

والمشـتهرون بـإقراء القـرآن من الصـحابة رضـي اللـه تعـالى عنهم: عثمـــان، وعلي، وأبي بن كعب، وزيـــد بن ثـــابت، وابن مسعود، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشـعري رضـي اللـه تعـالى عنهم. ومن التابعين في المدينة المنورة: اين المسيب، وعروة، وسالم، وعمر بن عبد العزيز، وسليمان بن يسار، وأخوه عطاء، وزيد بن أسلم، ومسلم بن جندب، وابن شـهاب الزهـري، وعبـد الرحمن بن هرمز، ومعاذ بن الحـارث المشـهور بمعـاذ القـارئ.

وفي مكة المكرمة: عطاء، ومجاهـد، وطـاوس، وعكرمـة، وابن أبي مليكة، وعبيد بن عمير، وغيرهم.

وفي البصرة: عامر بن عبد القيس، وأبو العالية، وأبو

[1] أخرجـه البخـاري في كتـاب فضـائل القـرآن. انظـر القسـطلاني (7/451).

رجاء، ونصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر، وجابر بن زيد، والحسن، وابن سيرين، وقتادة، وغيرهم.
وفي الشام: المغيرة بن شهاب المخزومي صاحب مصحف عثمان، وخليد بن سعيد صاحب أبي الدرداء، وغيرهما.
وفي الكوفة: عتبة، والأسود، ومسروق، وعبيدة، والربيع بن خيثم، والحارث بن قيس، وعمر بن شرحبيل، وعمرو بن ميمون، وأبو عبد الرحمن السلمي، وزر بن حُبَيش، وعبيد بن فضلة، وأبو زرعة بن عمر، وسعيد بن جبير، والنخعي، والشعير رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

القراء السبعة ورواتهم

ثم تفرغ قوم للقـراآت يضـبطونها ويعنـون بهـا، فكـان بالمدينـة المنورة: أبو جعفر يزيد بن القعقاع، ثم شيبة بن نصاح، ثم نافع ابن أبي نعيم [1].

وكان بمكة المكرمة عبد الله ابن كثير، وحميد بن قيس الأعرج، ومحمد بن محيص. وكان بالكوفـة يحـيى بن وثـاب، وعاصـم بن أي النجود، وسليمان بن الأعمش، ثم حمزة، ثم الكسائي.

وكان بالبصرة عبد الله بن أبي إسحاق، وعيسى بن عمرو، وأبو عمرو بن العلا، وعاصم الجحدري، ثم يعقوب الحضرمي.

وكـان بالشـام عبـد اللـه بن عـامر، وعطيـة بن القيس الكلابي، وإسـماعيل بن عبـد اللـه ابن المهـاجر، ثم يحـيى بن حـارث الزماري، ثم شريح بن يزيد الحضرمي رضي الله تعالى عنهم.

ثم اشـتهرت عبـارات تحمـل أعـداد القـراآت، فقيـل القـراآت السـبع، والقـراآت العشـرة، والقـراآت الأربـع عشـرة، وأحظى الجميع القراآت السبع، وهذه هي القراآت المنسوبة إلى

---

[1] من أراد التفصيل في معرفة القراء والقراآت فليراجع الشـاطبي ص 9.

الأئمة السبعة المعروفين، وهم نافع، وعاصم، وحمزة، وعبد الله بن عامر، وعبد الله بن كثير، وأبو عمرو بن العلاء، وعلي الكسائي، التي اشتهرت على رأس المأتين في الأمصار الإسلامية.

فكان الناس في البصرة على قراءة أبي عمرو ويعقوب، وفي الكوفة على قراءة حمزة وعاصم، وفي الشام على قراءة ابن عامر، وفي مكة المكرمة على قراءة ابن كثير، وفي المدينة المنورة على قراءة نافع.

وبقيت القراآت السبع على هذه الحال، دون أن تأخذ مكانها من التدوين حتى خاتمة القرن الثالث، إذ نهض ببغداد الإمام ابن مجاهد أحمد بن موسى بن عباس، فجمع قراآت هؤلاء الأئمة السبعة، وأخذ على نفسه أن لا يروي إلا عمن اشتهر بالضبط، والأمانة وطول العمر في ملازمة القراءة.

رواة القراء السبعة

وكان لكل من القراء السبعة رواة كثيرون وأشهر رواة (نافع) اثنان: الأول عثمان بن سعيد المصري الملقب بـ (ورش) انتهت إليه رئاسة القراء بالديار المصرية في زمانه ولد سنة مائة وعشر بمصر. وتوفي بمصر سنة مائة وسبعة وتسعين عن سبع وثمانين سنة.

الثاني عيسى بن ميناء مولى بني زهرة الملقب بقالون لجودة قراءته، فإن قالون باللغة الرومية بمعنى الجيد، ولد سنة مائة وعشرين، وتوفي سنة مائتين وعشرين عن عمر يناهز المائة.

وأشهر رواة عبد الله بن كثير المكي اثنان:

(الأول) محمد بن عبد الرحمن المخزومي المكي الملقب بـ (قنبل) لاستعماله دواء يقال له قنبل، ولد سنة مائة وخمسة وتسعين، وتوفي سنة مائتين وواحد وتسعين.

(الثاني) أحمد بن محمد البزي المكي مقرئ مكة ومؤذن المسجد الحرام، ولد سنة مائة وسبعين وتوفي سنة مائتين وخمسين عن عمر يقارب الثمانين.

وأشهر رواة أبي عمرو زيان بن العلاء التميمي المازني البصري اثنان:

الأول أبو عمر حفص بن عمر بن عبد العزيز الدوري الأزدي البغدادي الضرير نزيل سامراء إمام القراء وشيخ

الناس في زمانه، وهو أول من جمع القراآت توفى سنة مـائتين وستة وأربعين.
والثاني أبو شعيب صالح بن زياد السوسي الرقي، وتوفى سـنة مائتين وواحد وستين عن عمر يقارب السبعين.
وأشهر رواة أبي عمران عبـد اللـه بن عـامر إمـام أهـل الشـام اثنان:
الأول أبو وليد هشـام بن عمـار السـلمي الدمشـقي إمـام أهـل دمشق وخطيبهم ومقرئهم ومحدثهم ومفـتيهم، ولـد سـنة مائـة وثلاثة وخمسين وتوفى سنة مائتين وخمسة وأربعون.
الثاني أبو عمر عبد الله بن أحمد بن بشر بن ذكـوان القرشـي، ولـد سـنة مائـة وثلاثـة وسـبعين، وتـوفي سـنة مـائتين واثنـتين وأربعين.
وأشهر رواة حمزة بن حبيب الكوفي اثنان:
الأول خلاد بن خالد الشيباني الكوفي الصيرفي وكان إمامـاً في القراءة ثقة عارفاً محققاً، توفى سنة مائتين وعشرين.
الثاني أبو محمد خلف بن هشام البزاز البغـدادي الأسـدي، ولـد سـنة مائـة وخمسـين، وتـوفى سـنة مـائتين وتسـعة وعشـرين ببغداد، في وقت اختفائه من الجهمية.
وأشهر رواة أبي بكر عاصم اثنان:
الأول حفص بن سليمان الأسدي الكوفي ربيب عاصم

وابن زوجته وأعلم الناس بقراءته، وقد أقرأ الناس دهراً ولد سنة تسعين، وتوفى سنة مائة وثمانين.

الثاني أبو بكر ابن شعبة الأسدي الكوفي. وكان إماماً كبيراً عالماً عاملاً وكان من أئمة السنة وعمر دهراً وتوفى سنة مائة وثلاثة وتسعين وقد ناهز المائة.

والمصاحف التي بأيدينا الآن هي بحسب رواية حفص لقراءة عاصم عن عبد الله بن حبيب السلمي عن علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وعلى قراءته ورسم مصحفه طبع المصاحف الموجودة بأيدينا في بلادنا، ونسأل الله تعالى أن يجعلنا ثابتين على خدمة هذا القرآن الكريم بمنه وكرمه.

هذا الذي ذكرناه في القرآن الكريم كان من حيث روايته، وأما من حيث معناه ومغزاه فهو كلام ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1].

لم يوجد ولا يوجد ولن يوجد مثله من جهة فصاحته وبلاغته، واستيعابه لسعادة الدارين اعتقاداً وعملاً وأخلاقاً.

فإنه يوجه المكلف أولاً إلى الشعور بمسؤوليته والاعتراف بربه رب العالمين ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[2].

خلق هذا العالم البديع بعلوياته وسفلياته أبدع الكائنات بعلمه وحكمته وإرادته وقدرته ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[3]

---

[1] سورة فصلت، الآية 42.

[2] سورة الأعلى، الآية 2.

[3] سورة الزمر، الآية 62 – 63.

وهو المستحق لأن يعبد ويسجد له ويستعان به ما شاء كان وما لم يشـاء لم يكن ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُـولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [1] وخلق وراء هذا العالم عالماً آخر يجزى فيه المكلف حسب أعماله أن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وأنه أرسل رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للنـاس على اللـه حجة بعد الرسل بلغوا أحكامه تعالى، وهم الواسـطة بين العبـاد وربهم، وأنه قرر أن يكـون للنـاس أولـوا أمـر مطـاعين في مـا وافـق حكم اللـه. وقـرر أن يتشـاوروا في كـل أمـر مهم، وإذا عزمــوا فليتوكلــوا على اللــه، وأن يحكمــوا بالعــدل ويزنــوا بالقسـطاس المسـتقيم، وأن يعـدوا مـا في طـاقتهم من القـوة لصــيانة العبــاد والبلاد من الأعــداء، وأن يســعوا في أســباب المعــاش والاقتصــاد، ورغب في أن يسـتفيد النــاس ممــا في الأرض منابعها ومعادنها وأشجارها وثمارها.

وفرض حسن السلوك وتطبيق النظام، وصلة الأرحام، والترحم والإنصاف، ورعاية الضعاف، وأن يجعلوا العلم أمامهم، والصدق شعارهم، والجهاد دثارهم، والصبر درعهم، والتوكيـل اعتمـادهم إلى لقاء رب العالمين.

---

[1] سورة يس، الآية 82.

ومع إفادة هذه الجواهر الثمينة تراه في أعلى درجات الفصاحة والبلاغة أو ما والاها، يحير العقول ويعجز الألباب، وتحدى الجن والإنس على أن يأتوا بمثله فلم يقدروا واستسلموا أمام عظمته، وهذا أمر مفروغ منه، أي أن هذا الكلام المجيد معجز ولم يصل إليه طاقة المتكلمين البلغاء.
وتفكر العلماء لمعرفة سر هذا الإعجاز فمنهم من قال إن هذا الكلام كلام الحق سبحانه وتعالى، ونزل من عالم الغيب، فحفظه علام الغيوب عن أن يعارضه أحد.
ومنهم من اعترف بذلك ولكنه أبدى وجوهاً عديدة بني عليها إعجازه للناس وعزه: الأول أن بلاغة العرب كانت غالباً في المشاهدات من المظاهر والمناظر المحسوسة التي يتمكن الإنسان من إحالة القلم وإحالة اللسان فيها، وهذا القرآن يتكلم غالباً في الأمور الغيبية والروحية البعيدة عن الإحساس مع أنه أبدع فيها وأجاد وبرع فيها وأفاد وزهد الإنسان في ما لا يفيده الخير في المعاش والمعاد.
الثاني أن طراوة الكلام وحلاوته غالباً تأتي من ناحية المبالغة والغلو والإغراق، وفي ما لم ير مثله في الآفاق وتلك مملوءة بالأكاذيب.
وأما القرآن الكريم فإنه أخذ طريق الصدق وإحقاق الحق للأنام، مع أنه أتى بما بهر العقود والأفهام، وظهر على المصاقع من أصحاب الخطب والتفنن في الكلام.

الثالث أن البلاغة وعلو الدرجات فيها لا تأتي في كلام الناس إلا في مواضع معدودة، وجمل محددة منه. وأما هذا القرآن المجيد فالفصاحة سارية، في أجزائها، والبلاغة جلية في جملها، وحسن الأسلوب ممزوج بسردها بحيث لا يقدر الحاذق أن يتجاوز عن سماع جملة إلا وتأتيه جملة أخرى ألصق وأنسب وأوفق بالمقصد والمطلب.

الرابع أن كل كلام فيه تكرار يتنفر منه الذوق ويمل، ولكن القرآن مع ما فيه من التكرار في مواضع كثيرة لما كان بتغير أسلوب وتفنن في التعبير بالمطلوب، لا يمل منه الإنسان، ولا يسأم، بل يقبله الطبع ويتنعم.

الخامس أن كل بليغ من أصحاب البلاغة تقتصر بلاغته على ضرب من المقاصد، وأسلوب من الأساليب من حماس، وشجاعة، وإقدام، وتشبيب، وغزل، وغرام، أو حكمة، ووعظ، وإرشاد، أو في وصف المظاهر، والمناظر، أو في الأنهار، والحدائق، والأوراد، والأشجار، أو في التخويف، والترهيب، والترغيب، فلا يتعدى ذلك الموضوع المعين.

وأما القرآن الكريم فهو بليغ في كل فن من الفنون، فيقول في الترغيب ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[1] ويقول ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾[2] ويقول في الترهيب ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾[3] وقال

[1] سورة السجدة، الآية 17.
[2] سورة الزخرف، الآية 71.
[3] سورة الإسراء، الآية 68.

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[1] إلى قوله ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ وقال في الزجر ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ إلى قوله ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾[2] وقال في الإلهيات ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾[3].

السادس أن هذا القرآن أصل العلوم كلها، فالدين وأصوله والفقه وأصوله، والعربية، وعلم الزهد، والقناعة وبعبارة أشمل الحكمة العملية والنظرية، أي تهذيب الأخلاق، وتدبير المنزل، وسياسة المدن، وعلم ما وراء الطبيعة، أعني الإلهيات المجردة عن المادة، والغيب المطلق، والفلكيات، وسباحة السيارات في أفلاكها، وموازين الحركات، كل ذلك مذكور في القرآن، ويذكر الأرض والجبال والبر والبحر وجريان السفن فيها، ويثبت أن كل ذلك نعمة خلقت لأشرف خليقة، وهو الإنسان المخلوق في أحسن تقويم من الفطرة السليمة والعقل والإدراك، وشجع الإنسان على النظر في الأنفس والآفاق بغية الوصول إلى حقيقة الإيمان والاطمئنان والاستقامة على الانقياد لله سبحانه وتعالى.

السابع مغايرة أسلوبه لأسلوب كلام الناس في العالم العربي، فلم يدرك أحد أسلوباً يشبه أسلوب القرآن الكريم (بله) ما يجد المسلم في وجدانه بل كل إنسان خالي الذهن عن العناد والاستكبار من جماله الروحي المعنوي الذي يستولي على <

[1] سورة إبراهيم، الآية 15 – 17.
[2] سورة العنكبوت، الآية 40.
[3] سورة الرعد، الآية 8.

المشاعر والقلوب، ويحول الإنسـان من عـالم إلى عـالم، ومن نفسـية شخصـية إلى روحيـة قدسـية، ومن الغفلـة إلى اليقظـة والشعور، ومن الظلمات إلى النور، ومن الأفق المـادي الضـيق إلى الآفاق المعنوية الروحية الواسعة التي فيهـا نجـاح الإنسـان وقـوة القلب وحقيقـة التوجـه إلى اللـه والتوكـل على رب العالمين. <58>

ومن نور الإسلام الإيمان بالأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم

أما النبي: فهو إنسان أوحى الله إليه بشرع سواء أمـره بتبليغـه إلى الخلق أو لم يـأمره بـه، وأمـا الرسـول فهـو إنسـان كـذلك أوحى الله إليـه بشـرع وأمـره بتبليغـه سـواء نـزل عليـه كتـاب مستقل، أو كان مأموراً بتبليغ الكتاب السابق عليه.

وطريق ثبوت الرسالة المعجزة، فإنه إذا أظهر الرسول رسالته وادعى أنه أرسله إلى الخلق لتبليـغ الأحكـام، فمنهم من يـؤمن به بلا توقف وتردد، وذلـك لصـفاء عقلـه، وقـوة إدراكـه، ومثلـه كمثــل زيت مســته النــار واشــتعل فــوراً، أولئــك النــاس هم الصديقون، ومنهم من يبقى برهة من الزمـان فيتفكـر في آثـار ذلك الإنسان وأحواله وأخلاقه، ومـا يـدعوا إليـه، ويسـتمع كتابـه ودستوره بقلب سليم إلى أن يشرح الله صدره للإسلام.

ومنهم من لا يهتم بذلك ويتعلل بعلل ويأتي بعوائق أمام الدعوة إلى أن يتحـداهم الرسـول بمعجـزة من المعجـزات، فتسـتولي على قلوبهم ومشاعرهم، فينقادون له ويؤمنـون بـه. ومنهم من يبقى تائهاً في ضلاله مغموراً في عناده واستكباره، وقلبه يقسو من ســماع المواعــظ والإرشــادات وينبــو عن النظــر إلى المعجزات، بل كلما رأى أو سمع شيئاً من ذلك تنبعث به نفسـه إلى المهالك والعياذ بالله تعالى.

والمعجزة: أمـر خـارق للعـادة قصـد اللـه بـه إظهـار صـدق من ادعى أنه رسول من الله فالعاقل المنصف الموفق عندما نظـر إلى المعجزة استدل بأنه لـو لم يكن هـذا الشـخص رسـولاً من الله سبحانه وتعالى ما كان يؤيده بهذه المعجزة، لكنه أيـده بهـا فهو رسوله، وذلك لأن من ادعى بمحضـر جمـع من النـاس أنـه أرسله هذا الملك الجالس على كرسيه إليهم لتبليغ أوامره، وأن ما يقوله لهم فهو قوله، وادعى بأن الشاهد على صـدقه هـو أن الملك يستجيب أمري، حتى إذا أشرت إليه بأن يقوم من مكانـه يقوم، فأشـار إليـه وقـام من محلـه مـرات، حصـل علم قطعي عادي للناس بأنه وكيل ذلك الملك، ولم تبق عنـدهم شـبهة في صدقه.

ومما يجب أن يعلم أن المعجزة التي فسرناها بالخـارق للعـادة ليست على السنن الكونية والنواميس الاعتيادية، ولا مجال فيها للاكتساب والصناعات، وإنما هي تظهر بمحض خلق اللـه تعـالى وإبداعه تصديقاً لرسوله.

ثم هي إن ظهـرت من الشـخص قبـل بعثـه ورسـالته سـميت إرهاصـاً، أي تأسيسـاً وتوطئـة لرسـالته. وإن ظهـرت منـه بعـد إظهـار الرسـالة، فـإن كـانت مـع التحـدي سـميت معجـزة، وإلا فكرامة. وقد تطلق المعجزة على جميع الخـوارق الواقعـة بعـد دعوى الرسالة سـواء اقـترنت بالتحـدي، أو لا. وإن ظهـرت من غير من ادعى الرسالة، فإن كانت ممن كان تابعاً لرسوله عاملاً بأحكام شرعه سميت كرامة، وإلا سميت استدراجاً.

فظهر أن السحر والشعوذة وخفة اليد وأمثالها ليست معجزة ولا كرامة، لأنها أمور ناتجة عن الكسب والصنعة، ومبنية على أسباب وشرائط مادية عادية.

ويجب الإيمان بجميع الأنبياء والرسل بلا تفرقة بينهم في أصل النبوة والرسالة إجمالاً في ما علم إجمالاً، وتفصيلاً في ما علم تفصيلاً، كالرسل المذكورين في القرآن الكريم، وهم ستة وعشرون: آدم، وإدريس، وهود، وصالح، ونوح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وشعيب، وموسى، وهارون، وإلياس، واليسع، وذو الكفل، ويونس، وداود، وسليمان، وعزير، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وسيدنا محمد عليهم الصلاة والسلام.

وأما سيدنا الخضر فهو ولي من أولياء الله تعالى، ولقمان كان حكيماً بارعاً ديناً وارعاً آتاه الله حكمة ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾ [1]. وأما ذو القرنين فكان ملكاً صالحاً موفقاً للاستيلاء على بقاع المعمورة، وروي في الحديث الشريف أسماء بعضهم كيوشع، وشيعا، وأرمياء، من رسل بني إسرائيل عليهم السلام.

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أن عددهم مائتان وأربعة وعشرون ألفاً، وفي رواية أخرى مائة وأربعة وعشرون ألفاً [2]، والحق التوقف في التنصيص على عدد معين لقوله تعالى

---

[1] سورة البقرة، الآية 269.

[2] راجع تفسير ابن كثير حيث ذكر روايات الأحاديث التي تذكر عدد الأنبياء، سورة النساء عند قوله تعالى {ورسلاً لم نقصصهم عليك} (1/585-587).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [1].

ويجب الإيمان إجمالاً بأنبياء آخرين لم يذكروا في الكتاب والسنة بأسمائهم لقوله تعالى ﴿ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ﴾.

ولقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [2] وإنما ذكر الله سبحانه وتعالى أفراداً معينين لكونهم في الديار العربية وسمع الناس بعض أخبارهم وأحوالهم، وإلا فالأنبياء كثيرون ولا يعلم عددهم إلا الله الكريم.

ويجب الإيمان بأن الرسل أفضل من الأنبياء الغير المرسلين، وأن أولي العزم من الرسل أفضل من غيرهم، والمراد من أولي العزم الرسل الكرام الذين تحملوا مكابد ومكايد من أهل الشرك والطغيان، وأصابهم الأذى منهم، فصبروا وجاهدوا، حتى قضى الله بما أراد على العباد، وهم خمسة: سادتنا نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وسيدنا محمد، صلى الله تعالى عليهم وسلم أجمعين.

ويجب الإيمان بأن سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن شريعته ناسخة لما خالفها من شرائع الرسل السابقين، وإذا وجدنا شيئاً موافقاً لما في الشرائع السابقة، فإنا نعمل به من حيث أنه آتانا به الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم لا من حيث التبعية،

---

[1] سورة غافر، الآية 78.

[2] سورة فاطر، الآية 24.

فإن رسالة رسولنا الكريم رسالة عامة مؤبدة شاملة. كما يجب الإيمان بأن الأنبيـاء والمرسـلين كـانوا كلهم متفقين في أصـول الدين من الإيمان بالله، ورسله، وملائكته، وكتبه، وباليوم الآخر، وبالقدر، وعلى ذلك نزل قوله تعالى ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾[1].

ويجب في حقهم صـــفات ثلاث: وهي الصـــدق، والأمانـــة، والفطانة، أي الـذكاء، فيجب الإيمـان بثبوتهـا لهم وبـراءتهم عن أضدادها، أي أنهم صادقون في ما بلغوه من الشرائع والأحكـام، وأمنـاء على الـوحي المـنزل لم يـتركوا تبليـغ شـيء منهـا، ولم يزيدوا فيها، وأنهم أصـحاب فطنـة وذكـاء. وأمـا بـاقي الصـفات الاعتيادية فهم فيها مثل سائر البشر يأكلون ويشربون وينـامون ويتعبون ويسـتريحون ويصـحون ويمرضـون ويحيـون ويموتـون. ولكن عالم البرزخ وما بعـد البعث بالنسـبة إليهم أعلى العـوالم برحمة رب العالمين.

ويجب الإيمان بعصمتهم من بدأ النبوة إلى وفـاتهم من الـذنوب الكبائر مطلقاً ومن الصـغائر عمـداً، وقـال بعض: وسـهواً أيضـاً، كما أنهم معصومون قبل النبوة أيضـاً من الكبـائر وصـغائر تـدل على الخسة وحاشـاهم منهـا. ومـا يـوهم خلاف ذلـك فمحمـول على معنى يناسب مقامهم من خلاف الأولى، أو

---

[1] سورة الشورى، الآية 13.

أنها لم تكن في وقت التكليف جمعاً بين الأدلة والأصول النقليـة والعقلية السليمة.

ودليل ذلك على العموم قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [1] وآل إبـراهيم يشمل سيدنا إسماعيل وسيدنا محمد، كما يشمل سيدنا إسحق وأولاده المرسلين من بني إسرائيل، وكذلك يشـمل آل عمـران سيدنا موسى ومن وراءه منهم. وقوله ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [2] وقوله ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓ﴾ [3] وقوله تعالى بعـد ذكـر المرسلين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [4] وقولـه تعالى ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [5] وذلــك لأن الاصــطفاء والاختيــار لا يقــع على أهــل الفســوق والسيئات والمجرمين من الناس، والسـلام والإكـرام والاحـترام لا يقــدم من اللــه تعــالى إليهم، ولا يــؤمر بالاقتــداء والاهتــداء بأصحاب السيئات، وحاشا أن يكون النور مظلماً، والإمام العدل ظالماً، والمرشد الأعظم مجرماً ذلك أوهام الجاهلين.

---

[1] سورة آل عمران، الآية 33.

[2] سورة الصافات، الآية 180.

[3] سورة النمل، الآية 59.

[4] سورة الأنعام، الآية 90.

[5] سورة البقرة، الآية 124.

والمراد بالعهـد في قولـه ﴿لَا يَنَـالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إن كـان عهد النبوة والرسالة، فالأمر واضح من حيث التنصـيص على أن الظالمين وأصحاب الفسـوق لا ينـالون عهـد النبـوة والرسـالة، وإن كــان عهــد الأمانــة والقــدوة في الــدين، فلأنــه إذا كــان الظالمون محرومين من الرياسة والقدوة الشرعية، فحرمـانهم من النبوة والرسالة بالطريق الأولى.

الحكمة من إرسال الرسل

الإيمـان بـأن بعث الرسـل إلى العبـاد لطـف من اللـه ورحمـة، لجمـع شـتات الأفكـار، وتنورهـا بـالأنوار، وسـوقها إلى العقايـد والأعمــال والأخلاق العاليــة، وأن للإنســان حاجــة أكيــدة إلى الرسالة وإلى الاقتباس من أنوارها: وذلك من وجوه:

دليل النظام

أولاً – أن الإنسـان إذا تفكـر قليلاً عـرف أنـه خلـق اجتماعيـاً لا يعيش معيشة الإنسان وحده، ومدني لا يعيش بدون نظـام عـام جامع مانع، وأن النظام يحتاج إلى الرعاية، والرعايـة في حاجـة إلى محبة الإنسان الراعي لبني نوعه المرعى، وكل إنسـان راع وكـل إنسـان رعيـة، وكـل راع مسـئول عن رعيتـه، وأن هـذه المحبة لا تتكامل بحيث تسـوق الإنسـان إلى رعايـة النظـام، إلا بأمل نتيجة واقعية حميدة في عـالم الحيـاة، ونتيجـة مؤبـدة في عالم ما بعد الحيـاة الـدنيا، وهـذا الأمـل الجـامع لرغبـات الـدنيا المحدودة، ولرغبات الآخرة اللا محدودة، أمل يحصل من تعاليم الرسل الكرام، فثبت حاجة البشر إلى رسالة الرسل الكرام.

لقائل أن يقول ما وجه أن هذه المحبة لا تتكامل إلا بذلك؟

وجوابه أن محبة الإنسان للإنسان لعلاقة القرابة أو الدراســة أو المصـالح الحيويـة كالتجـارة والزراعـة والإدارة، لا تتجـاوز عـدة أشخاص متشاركين في ذلك، إلى غيرهم،

كغريب مسافر منقطع، ويتيم ليس له معين، ولأرملـة ليس لهـا معيل، ولشياب لا مجال لهم في الناس من أي جهة، ولمرضى، ولمعوزين، ولأهل غير الوطن من المسلمين، ولأهل غـير دينـك من الـذميين والمسـتأمنين، وأمـا المحبـة المتولـدة من قواعـد الإسلام فهي محبة جامعة لصلة كل إنسان بكـل إنسـان في مـا أمكن تطبيقه حسب القواعد والأصول.

ولقائل أن يعود ويقول لنفرض أن تلك المحبة ناتجـة عن نظـام حيوي دنيوي شامل كما في أنظمة الدول العالمية بـدون حاجـة إلى الدين والرسالة.

وجوابه أنك علمت من مطالعاتـك وملاحظاتـك أن تلـك العلاقـة علاقــة قصــيرة يســيرة لا تتجــاوز عن ملاحظــة أبنــاء الــوطن المربوط بذلك النظام، ونحن نريد علاقة وديـة بعيـدة المـدى لا تتقيد بزمان ولا مكـان ولا قـوم دون آخـر تـربطهم بمبـدأ واحـد وآله واحد ونظام واحد، وذلك لا يمكن أن يتحقق في غير نظـام الرسالة، ثم المحبة الموجبة لفوائد محدودة في عالم الحياة، لا تأثير له غالباً ذلك التأثير البالغ الموجب لنكران الذات والتضحية بـالنفس إلا في أفـراد معـدودين. وأمـا أمـل السـعادة الأبديـة والرحمة الخالدة، فهو إذا اسـتقر في أي نفس هـان عليهـا كـل شيء.

دليلا الرغبة والرهبة

ثانياً – ثبت بالدليل القطعي بلا نزاع، أنه لا يقدم العاقل المختار على عمــل إلا لرهبــة أو رغبــة، أي لخــوف أو طمــع، وهمــا الأساسان في تكوين الحضارة البشرية بمعناها الواسع. ومعـنى ذلــك أن الإنســان في الإســاءة والإحســان مســخر للقــوتين المذكورتين، فقد يترك التعرض لأموال النـاس أو أعراضـهم، أو نفوسهم خوفاً من سلطة تنتقم منه، وقد يقوم على عمل جبـار بغية الوصول إلى تحسين عام أو نيل مال وجـاه أو مـا شـاكله، ولما دققنا النظر وجدناهما غير كافيين في الأقـدامات البشـرية المتسلسلة، بدون الخوف من قوة فوق العادة، وبــدون الرغبــة في نعمة دائمة وهي السعادة.

فــإن الضــعاف إذا تركــوا السفاســف خوفــاً من الســلطة، فالأشــراف من الســلطة لا يخـافون أحــداً، بـل والضـعاف في المحلات المنعزلة عن النـاس لا هيمنــة عليهم، فليس لهم رادع قاطع هناك إلا الله، والرغبة في تحسين الناس أو في نيل مرام لا يوصـل الإنسـان إلى درجـة خدمـة كـل يـتيم ويتيمـة وأرمـل وأرملـة، وإلى إسـعاف المرضـى المنقطعين غـير المعـروفين، وإعانة المحتاجين والمعوزين، وإدارة شـؤون الكفـار عنـدنا من الذميين، فالرغبة والرهبة لا تنتجان إلا بالرغبة في مـا عنـد اللـه والرهبة عما يوجد عنده، وذلك لا يصل نظامه إلينا إلا بالرســالة من الله سبحانه وتعالى.

دليل الشرف

ثالثاً – أن الإنسان ليس جماداً بلا إحساس، ولا حيواناً مهملاً يعيش فقط مع الحواس، وإنما هو خليقة أكبر من كل عوالم الكون، بل الكون خلق له، ولأجل انتفاعه به، وهذا النوع المحترم المزود بالعقل الذي هو أساس كل خير، وبالوجدان الذي يبنى عليه العطف والترحم والسماح، وبالعلم الذي يطيره في أجواء السموات، ويستفيد به الكنوز من خبايا المعادن والمنابع والنباتات، يبعد كل البعد عن الفكرة السليمة أن يعيش هذا الإنسان الكامل كالحيوان، ولا تكون له نتيجة أدبية دائمة ونعيم مقيم غير زائل ووسعة في عالم الوجود يتنعم فيها، إذا كان نجيباً خادماً مصلحاً نافعاً للبشر، أو لا يكون له جزاء ومعاقبة في مقابلة إساءته مع غيره يبطش بهم ويقتل ويسفك وينهب الأموال والأعراض ويؤذي الإنسانية كحشرة فتاكة في جسد، هذا ما لا يقبله العقل فاحتاج البشر إلى رسالة خالدة، وهي الرسالة الإسلامية التي توضح للعاقل طريق الخير والشر ويحدد له جزاء أعماله الصالحة والسيئة، ويبين أنه لا يغيب عن خالقه مثقال ذرة في السموات والأرض، وأن الإنسان بعد قضاء أجله في دنياه يلتحق بآخرته وينال ما قدمت له يده، فيكون على بصيرة من أمره وعلى نظام في سيره ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [1].

[1] سورة الملك، الآية 22.

دليل الاعتراف

رابعاً – قد ثبت أخيراً عند كثير من العقلاء والعلماء البارزين المتجردين عن التقليد والارتباط بالبيئات أن وراء هذا العالم المادي الواسع عالماً روحانياً غيبياً أوسع، ولولا ذلك ما كان يجيب زارع بدوي بعد أن نوموه [1] عن أسئلة مشكلة هندسية أو جبرية اندهشت لها عقول الحاضرين.

وثبت أيضاً أن النواميس الكونية الطبيعية يمكن تخلفها عن إفادة آثارها بقوة نواميس أخرى أرقى منها، ويبنى على هذا إمكان وجود الخوارق للعادات التي أتى بها الرسل الكرام.

وثبت أيضاً أن الإنسان مرتبط بعالم الروحانيات صلاحاً أو فساداً، أي أن كل فرد معرض لتأثره وانفعالاته بالكائنات الروحية العالية، أو بالكائنات الروحية السافلة، ومن تأثر بالأولى انتفع ونفع، استفاد وأفاد، واسترشد وأرشد، خدم العقائد الصحيحة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، والعكس بالعكس.

ومنا هنا اعترف جمهرة من الماديين المنكرين لما وراء الطبيعة عن أفكارهم ورجعوا إلى حظيرة الاعتراف بالقدسيات

[1] هذا إشارة إلى التنويم المغناطيسي، حيث ينومون إنساناً بواسطة عملية مغناطيسية، ثم يسألونه أنواع الأسئلة فيجيب الجواب الوافي عن كل سؤال وهو نائم، ومن غرائبه أن النائم قد يكون طفلاً أو جاهلاً، ولو كان يقظاناً لا يعرف جواب أي سؤال من تلك الأسئلة التي أجاب عنها عندما كان نائماً.

والمثل العالية، فآمن بالله وبرسوله وبما جاء به من عنده.
ونقول على ضوء هذه الحقائق التي اعترف العلماء الأفـذاذ في العالم بها: وصول عقولهم إلى تلـك الأمـور الهامـة وصـول إلى تعاليم الرسل الكرام أي أن وراء هـذا العـالم عالمـاً آخـر غيبيـاً يندرج فيه عالم الأرواح، وعـالم الملائكـة، وعـالم ملـك الملـوك الذي بيـده ملكـوت كـل شـيء، وهـو الـذي تسـخر لـه القواعـد والنواميس المادية وغيرها، وهو الـذي يسـيطر عليهـا ويسـيرها وقد يمشيها وقد يبطلها، كما آتى القـوة القدسـية لبعض رسـله في عدم التأثر بالنار، وموجة الأثير، وخـرق طبقـات الأفلاك في أقل وقت من الأوقات، والنفخ في الجوامد لتأخـذ روحـاً سـارية وحيـاة جليـة، والتوجـه إلى الـدماء الفاسـدة وتخليصـها من الجـراثيم ليـبرء الأبـرص، والتوجـه إلى الـروح الغيـبي لتتعلـق بالجسد بعد فراقها وهجرها ولتصير حيـاً، كمـا كـان، وهـو الـذي بيده مفاتيح الغيب، وبيده مقاليد السموات والأرض، وأن عبـاده المصطفين هم الرسل الكرام.
وأن الأرواح العالية أرواح الملائكة الـتي من تعـارف معهـا تمتـع بالعقائـد والأعمـال الصـالحة. وأن الأرواح الخبيثـة هي أرواح الشـياطين المـردة الـتي من تناسـب معهـا سـقط في رذائـل المادة ومشتهيات النفس الأمارة، ومن هنـا يتـبين قولـه تعـالى ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [1].

---
[1] سورة الشمس، الآية 9-10.

ويتعين مغزى قوله سبحانه وتعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [1] ولكن فوائد إدراك أولئك العلماء لا تتجاوز عن أنفسهم، وعن ناس معدودين يوافقونهم في الاعتراف بتلك المعلومات. وأما الرسل الكرام فبما عندهم من الصفاء والنور الرهبي وبما ألقي في روعهم من الوحي الإلهي والفيض القدسي جذبوا أرواح الناس إلى الانقياد والتوجه إلى رب العباد، إلا من غطا قلبه غاشية العناد وتولى عن الحق والرشاد.

دليل المعرفة

خامساً – مما يلفت أنظار أهل المعرفة أن الإنسان لم يخلق ليترك سدى، لأنه يبعد عن العقل والإدراك أن يبني شخص داراً قوية الأركان، واسعة الجوانب، رفيعة العمران، مزخرفة بأنواع الزخارف، ومضيئة بألوان اللمع والشمعات والمصابيح، ولم يكن في قلب بانيها عمرانها بالرجال الأكابر والأصدقاء الأعزة والعلماء الفضلاء ذوي المفاخر. بل أراد أن يجمع فيها المجانين والسفهاء، فالله سبحانه وتعالى خلق هذا العالم الواسع وزينها بمصابيح وورد أزهارها وأجرى أنهارها وزيد ثمارها، ولم يترك للحيوانات البهم، بل جعل فيها أشرف أنواع الموجودات، وهم البشر، فمن سوانح الإدراك أن طلب من هذا النوع الشريف أشرف الأحوال، وهو الإطاعة لله والسجود

---

[1] سورة النازعات، الآية 40.

والتسبيح لـه، وهـذه الأحـوال لا يمكن تحقيقهـا بـدون المعرفـة الوافية بالمطلوب، وهذه المعرفة لا تتحقق إلا بتعاليم الرســول الكـريم وعليـه قـال تعـالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ .

محبة الرسول

محبة الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من هدي الإسلام، قال تعالى ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [1].

هدد الله سبحانه وتعالى كل من يرجح محبة ذويه وعلاقته على محبة الله ورسوله ومعناه وجوب ترجيح محبتهما على محبتها.

وقال صلى الله عليه وسلم ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)) [2] وقال للسائل عن الساعة بعد قوله إني أحب الله ورسوله ((أنت مع من أحببت)) [3].

والمحبة ميل القلب وشغفه بالنسبة إلى محبوبه، وتتنوع بالإضافة إلى ما تتعلق به أنواعاً.

ومن محبة الرسول صلى الله عليه وسلم تعظيمه وتوقيره وكثرة ذكره والصلوات عليه، لاسيما عند ذكره، وزيارته

---

[1] سورة التوبة، الآية 24.

[2] رواه البخاري في كتاب الإيمان. انظر القسطلاني (1/96).

[3] رواه البخاري في فضائل الصحابة. القسطلاني (6/103).

بعد وفاته، والاقتداء به بامتثال أوامره واجتناب نواهيه والتخلق بأخلاقه. ومحبة الكتاب والسنة اللذين هما أساس سعادة الدارين. ومحبة آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان. ومحبة القراء والحفاظ والمحدثين والأئمة المجتهدين في الدين، والعلماء العاملين، والصديقين والشهداء، والصالحات والصالحين.

وكل ذلك عليه دليل من الكتاب أو السنة أو اتفاق الأكثرية الساحقة من أهل الدين إما تعظيمه وتعزيزه وتوقيره، فالدليل عليه قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ [1] وقال تعالى ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ [2] وأخذ المجتهدون من ذلك وجوب الأدب مع الرسول، وحرمة ندائه بـ (يا محمد)، كيف لا وتشريفه في النداء منهج القرآن الكريم، حيث خاطبه الله سبحانه بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ [3] ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ [4] ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ [5] ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ [6] إلى غير ذلك وقوله تعالى ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ [7]. وأنه صلى الله عليه وسلم

---

[1] سورة الفتح، الآية 8-9.
[2] سورة النور، الآية 63.
[3] سورة المائدة، الآية 67.
[4] سورة التحريم، الآية 1.
[5] سورة المزمل، الآية 1.
[6] سورة المدثر، الآية 1.
[7] سورة الأحزاب، الآية 6.

كان المبلغ الأول لأحكام الله ومفتاح باب السعادة على البشرية.

وأما الاقتداء به صلى الله عليه وسلم، فالدليل عليه قوله تعالى ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾[1] وقوله تعالى ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾[2] وقوله تعالى ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[3].

وأما الاستقامة على آدابه فالدليل عليه قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾[4] وقوله تعالى خطاباً لرسوله ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾[5] مع وجوب إتباعه بدليل قوله تعالى ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾.

وأما كثرة ذكره صلى الله عليه وسلم، فالدليل عليه، هو أن الله قرن الشهادة برسالته مع الشهادة بألوهيته في أنه لا يتم الإيمان بأحديهما بدون الأخرى، فجعل من أركان الإسلام كلمتي الشهادة (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) وقرن اسمه باسمه في التشهد حيث يقول «التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته» <77>

---
[1] سورة الأحزاب، الآية 21.
[2] سورة آل عمران، الآية 31.
[3] سورة الحشر، الآية 7.
[4] سورة فصلت، الآية 30.
[5] سورة الشورى، الآية 15.

وفي كلمات الأذان وكلمات الإقامة، وفي آيـات الأمـر بإطاعـة اللـه كقولـه تعـالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ وفي قولـه ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ إلى غـير ذلك من المواضع المعلومة لمقارنـة اسـمه باسـمه، وكـل ذلـك حجة بليغة لتقدير حقه صلى الله عليه وسلم وتكـرار ذكـره في الخلوة والجلوة إلى ما شاء الله، وشخصية بهـذه المنزلـة يجب ذكـره وذكـراه. وأمـا الصـلوات عليـه صـلى اللـه عليـه وسـلم فالـدليل عليهـا قولـه تعـالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ والآيـة الكريمة نص في أن الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم مطلوبة، فمن العلماء من قال أنها مندوبة وحمل الآية الكريمـة فيهـا على النـدب وادعى فيـه الإجمـاع، ومنهم من حملهـا على الوجوب في الجملة وقرر أنها فرض على المسلم أن يـأتي بهـا مرة، ومنهم من حملها على الوجوب عقب التشهد الأخـير وهـو الإمام الشافعي وأحمد رضي الله تعالى عنهما وقالا: أنها واجبة عقب التشهد الأخير ولو تـركت بطلب الصـلاة وهـو مـروي عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضي الله عنهمـا وهـو قـول

الشعبي وقد رواه عنه البيهقي كما في شرح الإمام النووي على صحيح مسلم * وقال: هنا وأصحابنا يحتجون بحديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه المذكور أنهم قالوا «كيف نصلي عليك يا رسول الله؟ فقال قولوا اللهم صلِ على محمد إلى آخره» قالوا والأمر للوجوب، وهذا القدر لا يظهر الاستدلال به إلا إذا ضم إليه الرواية الأخرى ((كيف نصلي عليك إذا نحن صلينا عليك في صلواتنا؟ فقال صلى الله عليه وسلم قولوا اللهم صلِ على محمد وعلى آل محمد إلى آخره)) .

وهذه الزيادة صحيحة رواها الإمامان الحافظان أبو حاتم بن حبان (بكسر الحاء) البستي والحاكم أبو عبد الله في صحيحيهما. قال الحاكم هي زيادة صحيحة. واحتج لها أبو حاتم وأبو عبد الله أيضاً في صحيحيهما بما رواه عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يصلي لم يحمد الله ولم يمجده ولم يصل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم ((عجل هذا ثم دعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال إذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد ربه والثناء عليه وليصل على النبي صلى الله عليه وليدع ما شاء)) [1] قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط مسلم.

[1] رواه ابن خزيمة والترمذي وصححاه، ورواه أبو داود انظر دليل الفالحين (7/219-220).

وعلى كل حال فالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم مطلوبة ومرغوب فيها ومؤكدة بالأحاديث التي تنص على مزيد أجر المصلى عليه صلى الله عليه وسلم، وصوغ الآية الكريمة المصدرة بأداء التأكيد على الجملة الاسمية الصدر الفعلية العجز لاسيما وأن الجملة الفعلية المضارعة جملة فعلية استمرارية، ثم تعقيبها بنداء جمع المؤمنين، والأمر بالصلاة وزيادة السلام وتأكيد الجملة بمقارنة المصدر مع العامل، فلو قلنا على ضوء هذا أن الأمر في الآية الكريمة للوجوب بقرينة الآيات الكثيرة الدالة على وجوب تعظيمه صلى الله عليه وسلم وتوقيره، وهذا الذي أعتقده أنا بحمد الله تعالى. ولكن الأمر غير محدود وغير مؤقت، فالمطلوب الإتيان بالصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم، بحيث يظهر شعار التعظيم، بأن نقول: بوجوبها في أعظم العبادات وهي الصلاة، وفي الخطب المشروعة للصلاة، وللأمور المهمة ومع الدعاء، وفي ديباجات التآليف الدينية، وفي مجلس سماع اسمه الشريف ولو مرة واحدة، وذلك يطابق وجوب الإتيان بالمأمورات حسب المستطاع عادة، ويختلف بالأزمنة والأمكنة والمناسبات.

وأما صيغة الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم، فهي كثيرة على ما رواه المحدثون فعن أبي حميد الساعدي رضي الله تعالى عنه أنهم قالوا ((يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ فقال: قولوا اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد)) [1].

[1] حديث أبي حميد الساعدي أخرجه البخاري في الدعوات، ومسلم في الصلاة، والنسائي في التفسير من سننه، وابن ماجة في الصلاة من سننه، انظر دليل الفالحين (7/224) ومشكاة المصابيح (1/290).

وفي رواية مالـك عن أبي مسـعود البـدري قـال ((قولـوا: اللهم صل على محمد وعلى آله كما صليت على آل إبـراهيم، وبـارك على محمـد وعلى آل محمـد كمـا بـاركت على آل إبـراهيم في العالمين إنك حميد مجيد والسـلام كمـا قـد علمتم)) [1]. أي أنـه جملـة السـلام عليـك أيهـا النـبي ورحمــة اللــه وبركاتــه (في التحيات) أو ما شابهها من صيغ السلام فيها.

وفي رواية كعب بن عجرة ((اللهم صل على محمـد وآل محمـد كما صليت على إبـراهيم وعلى آل إبـراهيم وبـارك على محمـد وآل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد)) [2].

وعن عقبة بن عمرو في حديثه ((اللهم صـل على محمـد النـبي الأمي وعلى آل محمد)) وفي رواية أبي سـعيد الخـدري ((اللهم صل على محمد عبدك ورسولك)).

وعن زيد بن علي بن الحسين عن أبيــه على عن أبيــه الحسـين عن أبيه علي بن أبي طالب قال: عدهن في يدي رسول

---

[1] أخرجه مسلم في الصلاة، والترمذي في التفسير من سننه، وأبو داود في كتاب الصلاة من سننه. انظر دليل الفالحين (7/221-223).

[2] متفق عليه انظر المشكاة بتحقيق الألباني (1/290)، ودليل الفالحين (7/221).

الله صـلى اللـه عليـه وسـلم، وقـال: عـدهن في يـدي جبريـل، وقـال: هكـذا نـزلت أي كلمـات الصـلوات من عنـد رب العـزة ((اللهم صـل على محمـد وعلى آل محمـد كمـا صـليت على إبـراهيم وعلى آل إبـراهيم إنـك حميـد مجيـد، اللهم بـارك على محمـد وعلى آلـه محمـد كمـا بـاركت على إبـراهيم إنـك حميـد مجيد، اللهم وترحم على محمـد وعلى آل محمـد كمـا تـرحمت على إبراهيم وعلى آل إبـراهيم إنـك حميـد مجيـد، اللهم وتحنن على محمد وعلى آل محمد كمـا تحننت على إبـراهيم وعلى آل إبـراهيم إنـك حميـد مجيـد اللهم وسـلم على محمـد وعلى آل محمد كمـا سـلمت على إبـراهيم وعلى آل إبـراهيم إنـك حميـد مجيد)).[1]

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ((من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل الـبيت فليقـل: اللهم صل على محمد النبي وأزواجه أمهـات المؤمـنين وذريتـه وأهـل بيته كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد)) [2].

ومعنى عدهن أي كلمات الصلوات في يدي كعد الفلوس في يد شخص هذا كناية عن ضبط الكلمات وفي رواية زيـد بن خارجـة الأنصاري سألت النبي صلى الله عليه وسلم كيف نصـلي عليـك فقال ((صـلوا واجتهـدوا في الـدعاء ثم قولـوا اللهم بـارك على محمـد وعلى آل محمـد كمـا بـاركت على إبـراهيم إنـك حميـد مجيد)) *.

[1] حديث زيـد بن خارجـة رواه النسـائي في كتـاب الصـلاة من سـننه (3/49)

[2] رواه أبو داود (1/225) ومشكاة المصابيح (1/294).

* حـديث زيـد بن خارجـة رواه النسـائي في كتـاب الصـلاة من سـننه (3/49).

وعن سـلامة الكنـدي كـان علي رضـي اللـه تعـالى عنـه يعلمنـا الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم اللهم داحي المدحوات وبارئ المسموكات، اجعل شـرائف صـلواتك، ونـواحي بركاتـك، ورأفـة تحننـك على محمـد عبـدك ورسـولك الفـاتح لمـا أغلـق، والخـاتم لمـا سـبق، والمعلن الحـق بـالحق، والـدامغ لجيشـات الأباطيـل كمـا حمـل، فاضـطلع بـأمرك لطاعتـك مسـتوفزاً في مرضاتك واعياً لوحيك حافظـاً لعهـدك ماضـياً على نفـاذ أمـرك، حتى أورى قبساً لقابس آلاء الله تصل بأهله أسـبابه، بـه هـديت القلــوب بعــد خوضــات الفتن والإثم، وأبهج موضــحات الأعلام، ونائرات الأحكام، ومنيرات الإسلام، فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدين، وبعيثـك نعمـة، ورسـولك بـالحق رحمـة، اللهم افسـح لـه في عـدنك، واجـزه مضـاعفات الخـير من فضـلك مهنئـات لـه غـير مكـدرات من فـوز ثوابـك المحلول، وجزيل عطائك المعلول، اللهم أعل على بنـاء النـاس بنـاءه، وأكـرم مثـواه لـديك ونزلـه، وأتمم لـه نـوره وأجـزه من ابتعاثك له مقبول الشـهادة. ومـرض المقالـة، ذا منطـق عـدل، وخطة فصل وبرهان عظيم.

وعنه أيضاً في الصلاة على النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم ((إن الله وملائكته يصلون على النبي، لبيك اللهم وسـعديك، صـلوات الله الـبر الـرحيم، والملائكـة المقـربين، والنبـيين، والصـديقين، والشهداء، والصالحين، وما سبح لك من شـيء يـارب العـالمين على محمد بن عبد الله خاتم النبيين، وسـيد المرسـلين، وإمـام المتقين، ورسـول رب العـالمين الشـاهد البشـير الـداعي إليـك بإذنك السراج المنير وعليه السلام)).

وعن عبـد اللـه بن مسـعود اللهم اجعـل صـلواتك، وبركاتـك، ورحمتك على سـيد المرسـلين، وإمـام المتقين، وخـاتم النبـيين محمدٍ عبدك ورسولك إمام الخير ورسول الرحمـة، اللهم ابعثـه مقاماً محموداً يغبطه فيـه الأولـون والآخـرون، اللهم صـل على محمـد وعلى آل محمـد كمـا صـليت على إبـراهيم إنـك حميـد مجيـد، وبـارك على محمـد وعلى آل محمـد كمـا بـاركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.
وكان الحسن البصري يقول من أراد أن يشرب بالكـأس الأولى من حوض المصطفى فليقل: اللهم صل على محمـد وعلى آلـه وأصحابه وأولاده وأزواجه وذريته وأهل بيتـه وأصـهاره وأنصـاره وأشياعه ومحبيه وأمته وعلينا معهم أجمعين يا أرحم الراحمين.
وعن طاوس عن ابن عباس أنه كان يقول: اللهم تقبـل شـفاعة محمـد الكـبرى، وارفـع درجتـه العليـا، وآتـه سـؤله في الآخـرة والأولى كمـا آتيت إبـراهيم وموسـى، وعن وهيب بن الـورد أنـه كـان يقـول في دعائـه: اللهم أعـط محمـداً أفضـل مـا سـألك لنفسه، وأعط محمداً أفضل ما سألك له أحد من خلقك، وأعـط محمداً أفضل ما أنت مسؤول له إلى يوم القيامة.
وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقول: إذا

صليتم على النبي صلى الله عليه وسلم فأحسنوا الصلاة عليه فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه، وقولوا: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين محمد عبدك ورسولك إمام الخير وقائد الخير، ورسول الرحمة، اللهم ابعثه مقاماً محموداً يغبطه فيه الأولون والآخرون، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد... *

ويظهر من رواية هذه الصيغ العديدة للصلوات الشريفة أن صيغة الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليست محدودة ومقيدة بجملة دون أخرى، وبأسلوب دون آخر، وأن المقصود جملة تدل على طلب التشريف والتعزيز من الله تعالى له صلى الله عليه وسلم، وإن كانت المحافظة على إحدى تلك الصيغ أحب.

ويدل على ذلك وجود الصيغ المختلفة المروية من بعض الأصحاب الكرام كسيدنا علي، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

فبأي صيغة يصلي المسلم على الرسول صلى الله عليه وسلم ينال الإحسان ويتقرب بها إلى الله تعالى، ولا وجه لإنكار صيغة من صيغ الصلوات مادامت مفيدة لتشريفه وتعزيزه المطلوب مطلقاً.

* رواه إسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي رقم (61).

كمـا أن الأمـر من اللـه تعـالى بالصـلاة والسـلام على الرسـول صلى الله عليه وسلم مطلق غـير مقيـد بزمـان أو مكـان، ففي أي زمان ومكان يصلي المسلم عليه صلى الله عليه وسلم فهو جائز ومستحب ما لم يعارضه مانع شرعي ومعارض قطعي.

فلا وجه لإنكار بعض الناس للتصـويت بالصـلوات الشـريفة بعـد الأذان على المنابر [1]، أو بعد الخلاص من أداء صلوات الجماعة بين المسلمين الذاكرين بالأوراد المـأثورة، لأن كلاً منهـا مـأمور به في الجملة وأداؤه خير، ولم يقل أحد بأنهـا إذ ذاك فيـه مـانع شرعي ولا معارض ظني فضلاً عن القطعي.

وما يقال من أنهـا بدعـة لم تكن في عهـد الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم، وكـل بدعـة كـذلك ضـلالة، غـير وارد، وذلـك لأن البدعة في اللغة عبـارة عن الأمـر الحـادث الـذي لم يكن قبـل، وهذا بصورته الظاهرة شامل لكثير من الواجبات والمسـتحبات التي لم تكن في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم،

[1] صرح ابن حجر في فتاواه بأنه قد أحدث المؤذنـون الصـلاة والسـلام على رسول الله صلى الله عليـه وسـلم عقب الأذان للفـرائض الخمس إلا صـلاة الصـبح والجمعـة فـإنهم يقـدموا ذلـك فيهمـا على الأذان، ولا المغرب فإنهم لا يفعلون غالباً لضيق وقتها، وكان ابتداء حدوث ذلك في أيام السلطان صلاح الدين بن أيوب الكردي وبأمره في مصر وأعمالها، وسبب ذلـك أن الحـاكم الفـاطمي لمـا قتـل أمـرت أختـه المـؤذنين أن يقولوا في حق ولده السلام على الإمام الطاهر، ثم استمر السلام على الخلفاء بعده إلى أن أبطله صـلاح الـدين وجعـل بدلـه الصـلاة والسـلام عليه صـلى اللـه عليـه وسـلم، فنعم مـا فعـل فجـزاه اللـه خـيراً، ولقـد استفتى مشـايخنا وغـيرهم في الصـلاة والسـلام على النـبي (ص) بعـد الأذان على الكيفيـة الـتي يفعلهـا المؤذنـون، فـأفتوا بـأن الأصـل سـنة والكيفية بدعة. انظر فتاوى الشيخ ابن حجر (1/131).

وحدثت بعد، وارتضتها الأمة الإسلامية والأئمة نظراً إلى أنها تدخل في عموم قواعد الإسلام والدين التي لا تبقى الإسلام إلا بها.
ومن ذلك جمع القرآن الكريم وكتابته على صحائف من الجلد في عهد خلافة أبي بكر، وجمعه ثانياً واستنساخ ست أو سبع نسخ منه في عهد عثمان، وتدوين ديوان المرتزقة المسلمين المجاهدين وغير المجاهدين من المستحقين في عهد عمر، وتأسيسه لدار القضاء، وكتنقيط القرآن في عهد عبد الملك بن مروان ثم تشكيله، وتدوين الأحاديث الشريفة وتبوبيها، وتدوين الفقه وتبوبيه، وتدوين القراآت السبع، وتدوين قواعد اللغة العربية المعروفة بعلم النحو والصرف، ثم تدوين سائر العلوم الإسلامية كأصول الفقه والبلاغة وغيرها، فكل ذلك لم يكن ولم يذكر، ولكنه داخل في عموم الأصل أي أن كل ما ينفع الإسلام والدين يجب إتباعه، فهذه الأمور بعضها فرض عين، وبعضها فرض كفاية على ما هو جلي للمتتبع.
ولما نظر المسلمون إلى أهمية إعزاز الرسول صلى الله عليه وسلم، وإعلاء مقامه، وتعريفه للعالم أحدثوا ذكرى مولد الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم في ربيع الأول من كل سنة وذكرى معراجه الرفيع في رجب الأصم الفرد من <87>

الأشهر الحـرم، واسـتحبوا أن يضـيف المؤذنـون عـدداً قليلاً من الصلوات على الرسول صلى الله عليـه وسـلم بعـد الأذان على المنــابر في البلــدان، وعلى الســطوح في القــرى المأهولــة بالمصلين، كـل ذلـك خدمـة لقولـه سـبحانه وتعـالى ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾. ولقوله سبحانه وتعالى ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ وتشهيراً <88>

لمآثر الرسول ومفاخره المندرجة في قوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وإظهاراً لبركاته وأنواره الساطعة وفيوضاته الروحية القدسية المستفادة من قوله سبحانه وتعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾.

ومن اعتبر هذه الأمور ضلالة فقد تاه، وضل عن سواء السبيل، ولم يتفكر في أخلاق الرسول وتأريخه، وأمره لحسان بن ثابت رضي الله عنه أن يهجوا المشركين ويجاوب شعرائهم الهاجين للإسلام والمسلمين [1]، وتمايله من الوجد عند سماع قول كعب بن زهير:

إن النبي لسيف يستضاء بـه   مسلول [2]

حيث أعطاه رداءه المبارك جائزة لـه على إلقائه تلك الأبيات الآتيات بجواهر المدائح ودرر الفوائد.

والحق ما أطبق عليه الأئمة الأعلام من سالف الأيام إلى يومنا هذا ان كل ما ظهر في عالم الإسلام والمسلمين أن كان مما أجمع عليه من أعيان المسلمين، أو استنبطه الإمام

---

[1] حيث ورد في صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لحسان: «اهجهم أو قال هاجمهم وجبريل معك». انظر القسطلاني كتاب بدأ الخلق (5/269) وكرره في كتاب المغازي، وكتاب الأدب.

[2] قال ابن عبد البر فلما بلغ إلى قوله: أن الرسول، البيت أشار النبي إلى من معه أن اسمعوا، انظر الاستيعاب القسم 3/1314.

العالم المجتهد في الدين، أو اندرج في ظواهر الكتـاب والسـنة الشريفتين فأمره ظـاهر جلي وإن كـان ممـا سـوى ذلـك، فـإن كان ذلك الأمر مما يخدم هذا الدين خدمة لابد منهـا فهـو واجب وفريضة، أو خدمة نافعة غير محتمة فهو مسـتحب ومنـدوب، أو لم يكن من هذين، وكان مما نهى عنه نهياً صريحاً، أو مسـتفاداً من الأدلة العامة فهو حرام أو مكروه.

وعلى هذا يحمل ((من أحدث في أمرنـا هـذا مـا ليس فـه فهـو رد)) [1] وقوله صلى الله عليه وسلم ((إيـاكم ومحـدثات الأمـور فإن كـل محدثـة بدعـة)) [2]. وإن كـان متسـاوي الجـانبين فهـو مباح.

ومن الواجبـات من ذلـك كـل مـا يتوقـف عليـه إعـزاز الإسـلام وصيانة بلاده وعمرانها وتثقيف أبنـاءه من العلـوم، والصـناعات، والتدريبات الحربية، والأمـور الرياضـية، وتعلم الفنـون بأنواعهـا وأصنافها، وتعلم اللغات الأجنبية، ومعرفة تواريخ الأمم، وأساس رقيهـا وانحطاطهـا، وكـذلك خدمـة كـل مـا يتوقـف عليـه نشـر الإسلام، وإعزاز رسوله، وبث روح الإسلام، وتركيزها في قلوب الجيل الناشئ، <90>

---

[1] أخرجه البخاري في كتاب الصلح بـاب إذا اصـطلحوا على صـلح جـور فالصلح رد. انظر القسطلاني (4/421)، ومسلم في كتاب الأقضية بهذا اللفظ وبلفظ «من عمل عملاً ليس عليـه أمرنـا فهـو رد». انظـر شـرح النووي في هامش القسطلاني (7/272).

[2] يأتي الحديث بطوله وتخريجه – في ص 180 -.

وأحيـاء مـا انـدرس من معـالم الخـير في المسـلمين. ومن المستحبات كل ما كان أدنى من ذلك، فإن الإسلام دين ودولـة، عقل وعلم، اعتقاد وعمل، خلق شريف وعدل، وبطولة، وصـبر، واستقامة، ووحدة، وتماسك، واعتصام، ومرونة قابلة للاستفادة منهـا في كـل وقت، وليس الإسـلام جمـوداً وخمـولاً واكتفـاءا بالقشـور، وانقباضـاً في الصـدور فـإن تلـك الأحـوال لا تناسـب تحمل أعباء الدين وإدارة شؤون المسلمين فنسأل المولى جـل شأنه أن يشرح صدورنا لفهم الدين، ويسـهل أمورنـا في سـبيل نشـره في إرشـاد العبـاد إلى السـعادة بـالتزام أخلاق سـيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. <91>

زيارة الرسول

وأما زيارته صلى الله عليه وسلم في حياته فالدليل عليها قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [1] وقوله تعالي ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾ [2] فإن الرسول أفضل الصادقين وصحبته جسداً وروحاً مهمة وأما زيارة قبره الشريف بعد وفاته فالدليل عليها ما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم ((من زار قبري وجبت له شفاعتي)) [3] وما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((من زارني محتسباً كان في جواري، كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة)) [4] وفي

---

[1] سورة التوبة، الآية 119.

[2] سورة النساء، الآية 64.

[3] رواه الدار قطني وفي إسناده موسى بن هلال العبدي قال أبو حاتم: مجهول. انظر نيل الأوطار 5/108.

[4] رواه ابن أبي الدنيا وفي إسناده سليمان بن زيد الكعبي ضعفه ابن حبان والدار قطني وذكره ابن حبان في الثقات، وعن عمر عند أبي داود الطيالسي بنحوه. انظر نيل الأوطار (5/109).

حديث آخر ((من زارني بعـد مـوتي فكأنمـا زارني في حيـاتي)) [1]. وهذا الحديث أجودها إسناداً.

والإجماع على أن زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسـلم من المهمات فمنهم من قال بوجوبها، ومنهم من قال بندبها.

ولو راعينا القياس في أدلتنا لقلنا أن زيارة قـبر الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم مقيس على زيـارة الرسـول نفسـه لقبـور المسلمين في شهداء أحد والبقيع، فقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يزور أهل البقيع وشهداء أحد فزيارتنا لقـبر الرسـول مقيس على تلك الزيارات بالقياس الجلي الأولى.

ومقيس على استحباب زيارتنا لقبور موتانا وزيارتنا لقبور موتانا ثابتـة بقولـه صـلى اللـه عليـه وسـلم ((كنت نهيتكم عن زيـارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة)) [2].

[1] أخرجه الدار قطني عن رجل من آل حاطب، وأخرجه ابن عمر أيضاً. ورواه أبو يعلى في سنده. وابن عدي في كامله وفي إسـناده حفص بن داود قـال أحمـد فيـه: أنـه صـالح. وأخرجـه الطـبراني في الأوسـط عن عائشة. انظر نيل الأوطار (5/108).
وكـذا أخرجـه الحافـظ العـراقي في حـديث إحيـاء علـوم الـدين. انظـر الإحياء (1/259).

[2] أخرجه مسلم في الجنائز عن ابن بريده عن أبيه. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني 4/315.
والنسائي عن ابن بريده أيضاً في كتاب الجنـائز. انظـر شـرح السـنن (4/89) والترمذي. وأخرجه ابن ماجة عن ابن مسعود في كتاب الجنـائز رقم 1571 (1/501) وأخرجه أبو داود في كتاب الجنائز عن ابن بريده. انظر السنن (2/195).

ولاشك أن زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم علاوة على أنه تذكرة الآخرة، تذكر أيضاً أحـوال شخصـية الرسـول الكـريم الأمين وبعثه ورحمته للعالمين، ونزول الوحي عليه، وجهاده في سـبيل إعلاء كلمـة الحـق، وبـذلك تتجلى أنـوار الحـق سـبحانه وتعالى على قلوب الزائرين، وتستعد للاقتداء به بقـدر الإمكـان في طريق الإسلام والإحسان.

وأما حمل تلك الزيارات على ما إذا كان الزائر والمزور في بلـد واحد، وأنه لا تجوز عند بعد المسافة بدليل قوله صلى الله عليه وسلم ((لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسـجد الحـرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى)) [1].

أخرجه الشيخان وأحمد وأبو داود وغيرهم فهو حمل غير صـحيح واستدلال غير مستقيم عند من يعرف قواعد اللغة <94>

---

[1] رواه البخـاري في أبـواب التطـوع عن أبي سـعيد الخـدري. انظـر القسـطلاني في (2/348). وأخرجـه مسـلم في كتـاب الحج عن أبي هريرة. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (6/105).

العربية فضلاً عن سائر الأدلة، لأن قوله صلى الله عليه وسلم ذلك جملة استثنائية مفرغة حذف منها المستثنى منه كما هو معلوم، فيجب تقدير المستثنى منه بحيث يكون الاستثناء متصلاً لا منقطعاً، لعدم وروده في الكلام الفصيح إلا ما شذ، فوجب تقدير المستثنى منه بالمحل أو بالمسجد، وتقدير المحل غير صحيح، لأنه يستلزم أن لا يشد الرحال إلى محل الجيوش المجاهدين لسد الثغور والحروب مع الأعداء، ولا إلى الجامعات البعيدة والمدارس النائية لطلب العلوم المهمة النافعة، ولا إلى البلدان لجلب أموال التجارة، ولا إلى أماكن الأقارب لصلة الأرحام، ولا إلى القرى المتباعدة لزيارة الأحباب المتحابين في الله إلى غير ذلك، وذلك باطل قطعاً فوجب حمل المستثنى منه على المسجد، أي لا تشد الرحال إلى أي مسجد إلا إلى ثلاثة مساجد كما في الحديث الشريف، ومعناه لا تشد الرحال لأداء الصلاة في أي مسجد إلا إلى ثلاثة مساجد، وهذا أمر لا نزاع فيه لعدم الفرق من حيث المكان في أداء الصلوات بين المساجد في المعمورة الإسلامية إلا المساجد الثلاثة، ومعلوم أن من يشد الرحال للزيارة خارج عن موضوع القضية وانتهت المشكلة. <95>

كيفية زيارته صلى الله عليه وسلم

يستحب للزائر أن ينوي مع زيارته صلى الله عليه وسلم التقرب إلى الله تعالى بالمسافرة إلى مسجده صلى الله عليه وسلم والصلاة فيه. ويستحب أن يكثر من الصلاة والتسليم عليه في طريقه، فإذا وقع بصره على أشجار المدينة المنورة وحرمها وما يعرف بها زاد من الصلاة والسلام عليه، ويسأل الله تعالى أن ينفعه بزيارته ويتقبلها منه. ويستحب أن يغتسل قبل دخوله ويلبس أنظف ثيابه، ويستحضر في قلبه شرف المدينة المنورة، وأنها أفضل الدنيا بعد مكة عند العلماء، وعند بعضهم أفضلها على الإطلاق وأن الذي شرفت به خير الخلائق أجمعين. وليكن من أول قدومه إلى أن يرجع مستشعراً لتعظيمه ممتلئ القلب من هيبته صلى الله عليه وسلم كأنه يراه.

وهناك آداب للزائرين مذكورة في محلها. ومن المهم أن يدخل المسجل الشريف فيقصد الروضة الكريمة وهي ما بين المنبر والقبر المبارك، فيصلي تحية المسجد بجنب المنبر، ويجعل عمود المنبر حذاء منكبه الأيمن، ويستقبل السارية التي إلى جانبها الصندوق، وتكون الدائرة التي في قبلة المسجد بين عينيه، فذلك موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان يصلي فيه حتى توفى أربع عشر ذراعاً وشبر وأن ذرع ما بين المنبر والقبر المنور ثلاث وخمسون ذراعاً وشبر.

وإذا صلى التحية في الروضة أو غيرها من المسجد شكر الله تعالى على هذه النعمة، ويسأله إتمام ما قصده وقبول زيارته. ثم يأتي القبر الكريم فيستدبر القبلة، ويستقبل جدار القبر، ويبعد من رأس القبر الشريف نحو أربعة أذرع، ويقف خاشعاً متأدباً، ثم يسلم ولا يرفع صوته، بل يقتصد فيقول: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا نبي الله، السلام عليك يا خير خلق الله، ثم يقرأ الأوراد والأدعية المأثورة، ثم يتأخر إلى صوب يمينه قدر ذراع فيسلم على أبي بكر رضي الله عنه لأن رأسه عند منكب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول: السلام عليك يا أبا بكر صفي رسول الله، وثانيه في الغار جزاك الله عن أمة نبيه صلى الله عليه وسلم خيراً، ثم يتأخر إلى صوب يمينه قدر ذراع للسلام على عمر رضي الله عنه فيقول: السلام عليك يا عمر أعز الله بك الإسلام جزاك الله عن أمة محمد خيراً، ثم يرجع إلى موقفه الأول قبالة وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوسل به في حق نفسه، ويستشفع به إلى ربه سبحانه وتعالى في حق نفسه ومن شاء من آبائه وأمهاته وأولاده وحواشيه وغيرهم من المسلمين.

التوسل والوسيلة

واعلم أن التوسل بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم من أهم المهمات، لإجابة الدعوات، وقضاء الحاجات، وغفران الذنوب، وكشف الكروب، وحصول الآمال الخيرية، وكل ما يدخل في مطالب الإنسان المسلم، من أوثق ما يعتبر مفتاحاً لأبواب الخيرات ولا تسمع قول من أنكر التوسل به صلى الله عليه وسلم، واعتباره خروجاً من أدب الدين، بل اعتقد أن إنكاره ذلك إنكار لما يستفاد من ظاهر القرآن الكريم، وسنة الرسول العظيم، وإجماع المسلمين قبل ظهور البدع والأهواء، وليس قول المبتدعة الأشبهة تافهة تنطفئ نارها بأدنى نفحة قدسية، وإليك ما يلي:

نحن معشر أهل السنة والجماعة نستدل على جواز التوسل بكل وسيلة مشروعة، بالكتاب، والسنة، وإجماع الأمة قبل ظهور البدع والأهواء، أما الكتاب فمنه قوله سبحانه وتعالى ﴿مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [1]. نزلت في بني قريظة وبني النضير، كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه، كما قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقتادة، والمعنى يطلبون من الله تعالى أن ينصرهم على المشركين، كما روى السدي أنهم

[1] سورة البقرة، الآية 89.

كانوا إذا اشتدت الحرب بينهم وبين المشركين أخرجوا التوراة، ووضعوا أيديهم على موضع ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا: اللهم إنا نسألك بحق نبيك الذي وعدتنا أن تبعثه في آخر الزمان أن تنصرنا اليوم على عدونا فينصرون. وبنو قريظة والنضير أهل كتاب، والأوس والخزرج من المشركين، وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ.

ومنه قوله تعالى ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾[1]. والوسيلة بظاهرها تشمل التوسل بالأشخاص أحياءً وأمواتاً، والتوسل بالأعمال الصالحة للمتوسل ولغيره، كما يشمل التوسل بغيرهما من الوسائل المشروعة، وذلك لأنه إن كان الوسيلة بمعنى الواسطة فيشمل التوسط بكل واسطة مشروعة، وإن كانت بمعنى المنزلة والقربة من الله، فحذف المفعول غير الصريح لقوله ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ﴾ يشمل كل ما يبتغي به القرب من الله سبحانه وتعالى، ومن بلاغة القرآن الكريم حذف المتعلقات، لإفادة العموم كما في قوله تعالى ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[2] أي معلوم كان ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾[3] أي جميع عباده، وكذلك ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾، أي بأي وجه مشروع غير منهى عنه..

---

[1] سورة المائدة، الآية 35.

[2] سورة الزمر، الآية 9.

[3] سورة يونس، الآية 25.

ولذلك قال سيدنا عمر رضي الله عنه بعدما استسقى أي توسل بالعباس رضي الله عنه ((هذا والله الوسيلة إلى الله)) كما في الاستيعاب لابن عبد البر [1].

وأما السنة فمنها حديث عثمان بن حنيف (بالتصغير) وفيه أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ادع الله أن يعافيني فقال صلى الله عليه وسلم: إن شئت دعوى وإن شئت صبرت فهو خير لك، قال: فادع، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يتوضأ فيحسن الوضوء، ويصلي ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء:

((اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة، يا رسول الله إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضي اللهم فشفعه في)) [2]. قال ابن حنيف فوالله ما تفارقنا وطال بنا الحديث، حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط. رواه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح، ورواه أيضاً ابن ماجه، والحاكم عن عثمان

[1] حديث توسل عمر بالعباس رواه البخاري في رقم 1010 وكرره 3710، ورواه الإسماعيلي، وابن حبان في صحيحه والطبراني في الكبير رقم 84 وذكر الحافظ ابن حجر تفصيل ذلك في الفتح (2/497).

[2] حديث الضرير أخرجه الحاكم في المستدرك (1/526) وقال: صحيح على شرط البخاري. والترمذي رقم الحديث 3595 طبعة القاهرة، وابن ماجة رقم الحديث 1385.

بن حنيف وصححه الحاكم. فإن الظاهر أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يدع للرجل كما طلب، وإنما اقتصر على ما أمره به وعلمه، وحينئذ يكون متوسلاً في دعائه بذات النبي صلى الله عليه وسلم، ويكون أمره بهذا الدعاء دليلاً واضحاً على جواز التوسل بالذات، وإنما علمه صلى الله عليه وسلم ذلك ولم يدع له لعموم فائدة هذا الدعاء، ولذلك استعمله السلف وتبعهم الخلف لقضاء حوائجهم بعد وفاته، ولأنه أراد أن يحصل منه التوجه إلى الله تعالى، وإظهار الاضطرار إليه عز وجل مستعيناً به صلى الله عليه وسلم ليحصل له كمال مقصوده، وليتميز في نفسه نوع التوجه إلى الفاعل المختار عن نوع التوجه إلى الأسباب، فإن الأسباب إنما يتوجه بها ولا يتوجه إليها مع التوجه إلى الله عز وجل وحده، وهذا المعنى حاصل في حياته وبعد مماته صلى الله عليه وسلم.

والحاصل أن في هذا الحديث الشريف التوسل بشخص الرسول صلى الله عليه وسلم، وصرفه عن ظاهره تحريف الكلم عن مواضعها بالهوى، وأما كون استجابة دعاء الضرير بدعاء الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو غير مذكور في الرواية، أو بدعاء الضرير نفسه، فلا شأن لنا بذلك، بل الحجة هي نص الدعاء المأثور عن الرسول عليه السلام، وقد نص على صحة هذا الحديث جماعة من الحفاظ.

وقد ورد أيضاً في حديث فاطمة بنت أسد رضي الله تعالى عنها قوله صلى الله عليه وسلم ((بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي)) [1]

[1] الحديث يأتي بطوله وتخريجه في ص 120.

ورجال هـذا الحـديث ثقـات سـوى روح بن صـلاح، وعنـه يقـول الحاكم (ثقـة مـأمون) وذكـره ابن حبـان في الثقـات، وهـو نص على أنه لا فرق بين الأحياء والأمـوات في بـاب التوسـل، وهـذا توسل بجاه الأنبياء صريح. وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنـه ((اللهم إني أسـألك بحـق السـائلين عليـك)) [1] وهـذا توسل بالمسلمين عامة أحياء وأمواتاً، وابن الموفـق في سـنده لم ينفـرده عن ابن مـرزوق، وابن مـرزوق من رجـال مسـلم، وعطية حسن له الترمذي عدة أحاديث.

وعلى التوسل بالأنبيـاء والصـالحين أحيـاء وأمواتـاً جـرت الأمـة طبقة فطبقة بحيث يظهر منه انعقاد الإجمـاع الصـحيح، بمعـنى أنا لم نجد في القضية خلافاً ممن يعتد به ومضت عليـه الأزمنـة قبل ظهور البدع والأهواء.

ثم نقول أن التوسل وقع ويقـع بأوجـه كثـيرة، ويرجـع كلهـا إلى حقيقـــة واحـــدة هي الالتجـــاء إلى اللـــه ســـبحانه وتعـــالى من المتوسـل، والتشـفع بمـا يؤيـد إجابـة دعائـه وطلبـه في قضـاء حاجته، وباب التشفع باب واسع على ما هو واضح للمسلمين.

[1] الحديث يأتي في ص 118.

الوجه الأول من التوسل هو التوسل بأسماء الله تعالى وكلماته وأنبيائه

وهذا الوجه وجيه وواقع، وليس فيه من المنصفين منـازع، فقـد أخرجه ابن ماجه عن عائشة رضـي اللـه تعـالى عنهـا أن النـبي صلى الله عليه وسلم قال ((اللهم إني أسـألك باسـمك الطـاهر الطيب المبـارك الأحب إليـك الـذي إذا دعيت بـه أجبت وإذا سئلت به أعطيت وإذا استرحمت به رحمت وإذا اسـتفرجت بـه أفرجت)) [1].

وفي حديث الصديق رضي الله تعـالى عنـه، الـذي أخرجـه عبـد الملك ((وأسألك باسمك الـذي بثثت بـه أرزاق العبـاد، وأسـألك باسمك الذي وضـعته على الأرض فاسـتقرت، وأسـألك باسـمك الذي وضعته على السموات فاستقلت، وأسـألك باسـمك الـذي وضعته على الجبال فرست، وأسألك باسـمك الـذي اسـتقل بـه عرشك، وأسـألك باسـمك الطهـر الطـاهر الأحـد الصـمد الـوتر المنزل في كتابك من لدنك من النور المـبين، وأسـألك باسـمك الـذي وضـعته على النهـار فاسـتنار، وعلى الليـل فـأظلم، وبعظمتك وكبريائك، وبنور وجهـك الكـريم، أن ترزقـني القـرآن والعلم به، وتخلطه بلحمي ودمي، وسمعي وبصـري، وتسـتعمل به جسدي بحولك وقوتك، فإنه لا حول ولا قوة إلا بـك، يـا أرحم الراحمين)) [2].

[1] أخرجه ابن ماجه في كتـاب الـدعاء عن عائشـة رقم الحـديث 3859 السنن.

[2] قال الحافظ العراقي: من رواية عبد الملك بن مروان وهما ضـعيفان انظر تخريج أحاديث الأحياء (1/317).

وفي مشكاة المصابيح عن المهلب أن رسـول اللـه صـلى اللـه عليــه وســلم قــال: ((إن بيتكم العــدو فليكن شـعاركم حم لا ينصرون)) [1] أي إذا ذكرتم هذا الاسم المفتتح به سبع سور من القرآن الكريم لا ينصرون أي لا يظفرون بكم، وذلك لما وضـعه الله تعالى في الأسـماء والحـروف من الأسـرار الخفيـة والآثـار العجيبـة، ومن هنـا تعبـدنا الشـارع بالـذكر وتلاوة القـرآن بفهم وبغير فهم.

ولأسـماء النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم من أسـماء الحسـنى النصيب اللائق بذاته الشريفة، فقد أخرج ابن السـني في كتـاب عمل اليوم والليلة في باب ما يقـول الرجـل إذا خـدرت رجلـه، عن ابن عباس أنه علم رجلاً خدرت رجله أن يتبرك باسم محمد صلى الله عليه وسلم ففعل الرجل فذهب خدره.

وأخرج أيضاً بإسناده عن ابن عمر رضي الله عنهما أنـه خـدرت رجله فقال: يا محمد صلى الله عليه وسلم، قال: فقـام فكأنمـا نشط من عقاله إلى غير ذلك من الأحاديث

[1] رواه الترمذي في كتاب الجهاد، وأبو داود في كتاب الجهـاد بـاب في الرجل ينادي بالشعار. انظر السنن 2/31. وانظر مشكاة المصابيح رقم الحديث 3948 (260/386).

الواردة في هذا الباب، وإذا صح التوسل إلى الله تعالى باسـمه صـلى اللـه عليـه وسـلم وكـانت لـه عنـد اللـه هـذه المنزلـة، فالتوسل بذاته وجاهه وحقه وحرمته من بـاب أولى. وظـاهر أن ما خص به اسـمه الشـريفة من المزايـا إنمـا جـاء لـه من ذاتـه الشريفة، وحقيقته الممتازة عن سائر الحقـائق البشـرية بمـا لا يعرف قدر كما لها إلا واهب المنن.

وكما وهب عـز وجـل ذاتـه الشـريفة مـواهب لا تحصـى، كـذلك وهيب أسـماءه منهـا، وجعلـه تعـالى أول مظهـر من مظـاهر أسمائه وصفاته العلى، فكان لاسـمه الشـريف من أسـماء اللـه الحسنى ما يتناسب مع مـا لذاتـه الشـريفة من تلـك المـواهب، وفي هذا المعنى يقول حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه:

وشـق لـه من اسـمه ليجلـه   فـذو العـرش محمـود وهـذا

كمـا قـرن اسـمه باسـمه في الأذان وغـيره. وروي عن عبـد الرحمن بن عوف أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((يقـول سبحانه وتعالى أنـا الـرحمن وهي الـرحم اشـتققت اسـمها من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعته)) [1]

[1] تمامه ومن ثبتهـا ثبتـه أن رحمـتي سـبقت غضـبي رواه البخـاري في الأدب المفـرد وأحمـد في المسـند وأبـو داود والترمـذي. انظـر شـرح الاتحاف السنية بالأحاديث القدسية ص 60.

فهذا ونحـوه يـدل على أن للأسـماء حظـاً وافـراً من مسـمياتها الـتي وضـع اللـه بهـا من الأسـرار مـا شـاء أن يضـع. وأسـرار الأسماء والحروف والكلمات القرآنية وأوراد الصالحين لا تنكر.
من الصواعق الإلهية ص 156.

الوجه الثاني التوسل بطلب الدعاء من المتوسل به

تستفاد مشروعية دعاء المسلمين بعضهم لبعض مواجهة أو غياباً في الحياة أو بعد الممات سواء طلب الدعاء منه أو لا، من الكتاب والسنة، والإجماع: أما الكتاب فهو دعاء الرسل الكرام لأمتهم كدعاء سيدنا نوح عليه السلام لأمته، ودعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام لأمته، واستغفار المسلمين لإخوانهم السابقين عليهم بالإيمان قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [1] وقوله سبحانه وتعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [2] الشامل بظاهره لكل تعاون مادي أو معنوي، ومنه الدعاء للمكروب والمريض والمذنب والمحتاج، برفع الكرب والمرض وعفو الذنب ودفع الفقر والحاجة، وكذلك الدعاء بالتوفيق وتكثير المال والولد والجاه، وقد تحقق هذا النوع من العون، وطبقه الرسول صلى الله عليه وسلم في كثير من الناس كما هو واضح على علماء السيرة النبوية، وكذلك المسلمون من الصحابة ومن بعدهم إلى يومنا هذا.

وأما السنة فقد صح أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه لما استأذنه في العمرة ((لا تنسنا يا أخي من دعائك)) <107>

---

[1] سورة الحشر الآية 10.
[2] سورة المائدة، الآية 2.

فقال عمـر: كلمـة مـا يسـرني أن لي بهـا الـدنيا. وفي مشـكاة المصابيح للخطيب التبريزني عن عمر بن الخطـاب رضـي اللـه تعـالى عنـه أن رسـول اللـه صـلى اللـه وسـلم قـال ((إن رجلاً يأتيكم من اليمن يقال له أويس لا يـدع بـاليمن غـير أم لـه. قـد كان بـه بيـاض (بـرص) فـدعا اللـه فأذهبـه إلا موضـع الـدينار أو الـدرهم. فمن لقيـه منكم فليسـتغفر لكم، وفي روايـة فمـروه فليستغفر لكم)) . انتهى، فأمر صلى الله عليـه وسـلم أصـحابه باسـتغفار أويس لهم، وفيـه حث على طلب الـدعاء من الصالحين، وأن الفاضل يسـتحب لـه أن يطلب الـدعاء ولـو من المفضول، فإن الصحابة أفضل من التابعين. وأويس رضي اللـه تعالى عنه كـان من خيـار التـابعين. كمـا روى الحـاكم عن علي مرفوعـاً ((خـير التـابعين أويس)) وروي عن ابن عبـاس ((سيكون في أمتي رجل يقـال لـه أويس بن عبـد اللـه القـرني وأن شفاعته في أمتي مثل ربيعة ومضر)) . <108>

وصح أنه صلى الله عليه وسلم أمـر أمتـه بطلب الصـلاة عليـه، وطلب الوسيلة له، فقال ((قولـوا اللهم صـل على محمـد))[1].
وقال «فاسألوا لي الوسيلة»[2]. كما صح أنـه صـلى اللـه عليـه وسـلم عنـدما كـان قـد طلب منـه أحـد أصـحابه أن يستسـقي للناس فدعا صلى الله عليه ويلم وسقاهم الله تعالى.
وروي عن أنس رضـي اللـه تعـالى عنـه أنـه قـال أن عمـر بن الخطاب رضـي اللـه عنـه كـان إذا قحطـوا استسـقى بالعبـاس رضي الله عنه فقال اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك صـلى اللـه عليه وسلم فتسقينا وأنا نتوسل إليك بعم نبيك فاسقنا [*].
وقد بين زبير بن بكار ما دعا به العباس في هذه الواقعة فقال: اللهم أنه لم ينزل بلا إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبـة وقـد توجـه القـوم بي إليـك لمكـاني من نبيـك وهـذه أيـدينا إليـك بالـذنوب ونواصـينا إليـك بالتوبـة، فاسـقنا الغيث فـأرخت السـماء مثـل الجبال حتى أخصبت الأرض وعاش الناس.
وهذا ظاهر في الوسيلة في قوله تعالى ﴿ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ شـاملة للنـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم وللعبـاس ولكـل من يستسقي به بعدهما.

---

[1] سبق تخريجه في محبة الرسول ص 81.
[2] أخرجه الترمذي بلفظ (سلوا اللـه لي الوسـيلة) رقم الحـديث 3616 طبعة حمص.
[*] سبق تخريجه ص 100.

ولا يتوهمن أحد أن استسقاء عمر بالعباس يدل على أنه لا يستسقي بجاه الأموات، فإنه وهم فاسد، ووجه استسقائه به دون أن يذهب بهم إلى روضة الرسول صلى الله عليه وسلم، أو أن يستسقي بجاهه صلى الله عليه وسلم في خارجها أمور:
الأول إرشاد المسلمين إلى أنه كما كان يستسقي بالرسول صلى الله عليه وسلم لمكانته عند الله كذلك يستسقي ويتوسل في المهمات بالصالحين من أمته لاسيما من كانت له علاقة قرابة منه صلى الله عليه وسلم. الثاني أن استسقاءه به كالاستسقاء بالنبي صلى الله عليه وسلم حيث قال عمر: وأنا نتوسل إليك بعم نبيك ولم يقل بالعباس بن عبد المطلب فقوة التشريف من إضافته إلى النبي صلى الله عليه وسلم فهذه الإضافة المعنوية قد أكسبت المضاف التشريف كالتعريف، ولا يخفي هذا على علماء البلاغة.
الثالث أنه خاف عمر رضي الله عنه على ضعفاء المسلمين حيث إن الله تعالى غني عن العالمين، ويحتمل أنهم إذا ذهبوا إلى الروضة وتوسلوا به صلى الله عليه وسلم أن لا يسقوا، فيقع الضعيف في قلق نفسي.
الرابع أنه أراد أن يفهم الناس معنى الوسيلة في قوله تعالى ﴿ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ وأنها لا تنحصر في الأعمال الصالحة بل يشملها وباقي وجوه التوسل، فإن عمر كان ملهماً كما ورد في بعض الأحاديث وقد وافق رأيه الكتاب العزيز في مواضع عديدة مذكورة في محلها.

الخامس إعلان شرف ذوي العلاقة بالرسول صلى الله عليه وسلم من آله الكرام لاسيما وأن العباس كان بمنزلة الوالد منه صلى الله عليه وسلم.

والسادس أراد عمر أن يدعو العباس فيؤمن على دعائه الحاضرون من المسلمين، فإنه لا تخفى مظافرة الدعوات بالتامينات. وكل ما ذكرنا مؤيد بما يأتي من دعائه صلى الله عليه وسلم واستشفاعه بالأنبياء الكرام الذين لحقوا بربهم كما سيأتي بعد إن شاء الله تعالى.

السابع أن في الاستسقاء بالعباس ورعاية احترامه اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، حيث جاء في رواية فخطب الناس عمر فقال: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى للعباس ما يرى الولد للوالد، فاقتدوا أيها الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم، واتخذوه وسيلة إلى الله تعالى.

وسر طلب الدعاء من الغير مع أن الله سبحانه وتعالى سميع قريب مجيب يسمع دعاء كل داع ومجيب دعاءه إذا شاء كما قال تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ [1] هو أمور نذكرها إن شاء الله تعالى:

الأول تواضع من العبد الداعي وتناس لنفسه فكأنه ابتعد عن ساحة الدعاء لكثرة ذنوبه وخجله أمام ربه، وهذه

[1] سورة البقرة، الآية 186.

شيمة المخلصين.

الثاني امتثال للآيات والأحاديث الدالة على استحباب دعاء الجماعة وتعاونهم بينهم في اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى فإن الله مع الجماعة والجماعة رحمة.

الثالث اعتراف من الداعي بما يستفاد من الكتاب والسنة من اختصاص بعض الناس بمزيد فضيلة لا توجد في غيره. فقال سبحانه وتعالى ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[1] وقال تعالى ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[2] فإنها تدل بظاهرها على أن الصالحين مختصون بفضائل ودرجات عالية عند الله.

فالمسلم المضطر يتحرى أن يكون طلبه مقروناً بالإجابة ببركة إضافة دعاء الوسيلة إلى دعائه، ألا ترى قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[3].

أضاف استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى استغفارهم للتأكد من القبول ببركة استغفار الرسول لهم مع أن الله سبحانه وتعالى قال ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾[4] وقال ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[5].

[1] سورة البقرة، الآية 253.
[2] سورة الجاثية، الآية 21.
[3] سورة النساء، الآية 64.
[4] سورة طه، الآية 82.
[5] سورة الزمر، الآية 53.

وقال سبحانه وتعالى في ما روى عنه الرسول صلى اللـه عليـه وسـلمن من أحاديثـه القدسـية ((لا يـزال عبـدي يتقـرب إلي بالنوافل حتى أحبـه فـإذا أحببتـه كنت سـمعه الـذي يسـمع بـه، وبصـره الـذي يبصـر بـه، ويـده الـتي يبطش بهـا، ورجلـه الـتي يمشـى بهـا، وإن سـألني أعطيتـه، وإن اسـتعاذني لأعيذنـه)) [1] رواه البخاري، فـإذا ظن واعتقـد الـداعي برجـل صـالح أنـه من أولئك الناس المحبوبين التجأ إليه وطلب منه الدعاء، لعله يدعو له فيجيب الله تعالى دعاءه.

وقال عليه الصلاة والسـلام ((رب أشـعث مـدفوع بـالأبواب لـو أقسم على الله لأبره)) [2] فالتجاء الناس إلى أولئـك الصـالحين تأكيد لرجاء القبول من الله سبحانه وتعالى.

وقال صلى الله عليه وسلم ((أرجى الـدعوات دعـاء الأخ لأخيـه بظهر الغيب)) [3] فيطلب الملتجئ من أخيه الدعاء، فيدعو

[1] أخرجه البخاري في الرقاق باب التواضع. انظر القسطلاني (9/389).

[2] أخرجه مسلم عن أبي هريرة في كتاب البر باب فضل الضعفاء. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (10/54). وكرره في كتاب الجنـة شرح النووي في هامش القسطلاني (10/305).

[3] أخرجـه مسـلم بلفـظ «دعـوة المـرء المسـلم لأخيـه بظهـر الغيب مستجابة» انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (10/160). وعند أبي داود بلفظ «أن أسـرع الـدعاء إجابـة دعـاء غـائب لغـائب» السـنن الصلاة باب الدعاء (1/352).

له غياباً بإخلاص ويفوز بالقبول من الله وهو الجواد الكريم.
ولم يزل المسلمون يطلب بعضهم من بعض الدعاء ويدعو بعضهم لبعض بالخصوص كما يدعون للمسلمين عامة.

الوجه الثالث التوسل بنفس الذوات

وهذا الوجه من التوسل هو أصل في باب التوسل، لأن كل فضل وكرامة وعمل صالح وخوف ينبع من الذات وجوهر شخصيته المختارة، وهو المستفاد من قوله تعالى ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [1] ومن قوله ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [2] وقوله ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [3] ومن قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [4]. والعاقل ينظر إلى اصطفاء الذوات قبل النظر إلى محاسن الصفات، والبسيط ينظر إلى الصفات ويستدل بها على رفعة الذات، فالذات أصل والوصف فرع.
وصورة هذا التوسل أن يقول الداعي: اللهم إني أتوسل إليك بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم، أو بعبدك الفلاني أن تقضي لي حاجتي، وهذا أيضاً واقع في قضية الشخص

[1] سورة النمل، الآية 59.
[2] سورة ص، الآية 47.
[3] سورة الأحزاب، الآية 69.
[4] سورة الانفال، الآية 33

المكفوف فإن ظاهرها أنه قال: اللهم إني أتوسل إليك بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم [1]. وفي استسقاء عمر بالعباس في قوله: إنا نتوسل إليك بعم نبيك فاسقنا [2] ولم يطلب منه دعاء، ولكنه عبر عن بيان المقصود بقوله وبدعائه الذي سبق ذكره، وكذلك في قضية توسل سيدنا معاوية بزيد بن الأسود رضي الله عنهما حيث قال: اللهم إنا نستسقي بخيرنا وأفضلنا اللهم إنا نستستقي بزيد بن الأسود، وأما دعاؤه فكدعاء سيدنا العباس في طلب مراد الناس.

ولا مانع من التوسل بالذات إذا كان من الأموات كالأحياء، لأنه يتوسل بيمنه وقدسيته، والكرام إذا ماتوا باتوا في حلية النعيم والكرم المقيم وصفاء أرواحهم أزيد وأنوار قلوبهم أوسع، ولا يتوسل باللحم والدم والعصب والعظم بل يتوسل بذوات لا ينقص مقدارهم ديناً وشرعاً عن مقادير الشهداء الذين قال سبحانه وتعالى في شأنهم ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [3].

فإذا كان الشهداء على تلك المنزلة من الحياة لخدمتهم وجهادهم في الدين فكيف بصاحب الدين وسيد المرسلين وصحابته الأكرمين.

[1] سبق تخريج الحديث ص 100.

[2] سبق تخريجه ص 100.

[3] سورة آل عمران، الآية 169 – 170.

الوجه الرابع التوسل بالأعمال الصالحة وذكرها

وصح التوسل بذكر الأعمال الصالحة كما روى في الصحيحين عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم في قصة أصحاب الغار الثلاثة الذين آووا إلى غار فأطبقت عليهم صخرة، فتوسل كل واحد منهم بصالح عمله بعد ذكره قائلاً «اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرّج عنا ما نحن فيه» [1] فأزال الله عنهم بسؤال كل واحد ثلثاً من الصخرة وخرجوا يمشون، فكل هذا يدل على جواز التوسل بالخير وبأهل الخير، لأن مغزى ذلك التوسل أن إطاعة الله بالأعمال الصالحة محبوبة مرغوبة عند الله، والعاملون لها مظاهر تلك الطاعات والخيرات فيكون لهم قدم صدق عند مليك مقتدر ووجاهة عند الله الرؤوف الرحيم. والتوسل بهم يكون عرضاً لتلك الرغبة والوجاهة عند الله، ألا ترى أن الله سبحانه أمر العبد الذي أتاه من لدنه علماً بإقامة جدار اليتيمين اللذين كان أبوهما صالحا، أليس ذلك لطفاً معه ومع ذريته المساكين؟ أليس ذلك مندرجاً في لطائف قوله الكريم ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ﴿الصَّٰلِحِينَ﴾ [2]؟

ثم إذا ثبت أن للأعمال الصالحة الناشئة من المسلم بركة وقيمة، ظهر أن المتوسل إذا قام: اللهم اقض حاجتي ببركة إخلاص النبي الكريم، أو ببركة تضحية هذا الشهيد

---

[1] الحديث يأتي بطوله وتخريجه في كرامات أولياء الله.

[2] سورة الأعراف، الآية 196.

المستشهد في سبيل الله، أو ببركـة مسـاعي القـراء والحفـاظ لكتـاب اللـه أو بيمن حملـة أحـاديث رسـول اللـه، أو باجتهـاد المجتهدين لاستنباط أحكـام اللـه، أو بصـداقة الصـادقين الـذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، كان لتوسـله ذلـك قيمـة واحترامـاً ويعز عليه سبحانه وتعالى أن يرد المتوسل خائبـاً. بـل بـالعكس يتجلى عليه بالرحمن وقضاء حاجتـه، وهـذا هـو الواقـع المعلـوم من سنته في عباده وأهل ذمته، حشرنا الله تعـالى معهم وعفـا عنا ببركات أعمالهم وقوة نياتهم.

الوجه الخامس

التوسل إلى الله تعالى بحق عباده المكرمين من الأنبياء والمرسلين ومن الأئمة العارفين

وهذا النوع من التوسـل يشـمل التوسـل بحقهم أحيـاء وأمواتـاً، وهــو استشــفاع بحقهم، وليس معــنى حقهم الحــق المــرعي الــواجب على اللــه تعـالى، فإنــه لا يجب عنــه، ولا يجب عليــه شيء، وهو الفاعل المختار، بل المـراد حـق الاحـترام والإكـرام المرعي منه تعالى فضلاً ورحمة وإحساناً، كما في قولـه تعـالى ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [1] وكمـا في قولـه تعـالى ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [2]. والحق بهذا المعـنى يرجـع إلى معنى الجاه والشأن والقدر عند الله تعالى.

---

[1] سورة الأنعام، الآية 54.

[2] سورة الروم، الآية 47.

وهذا التوسل وقع منه صلى الله عليه وسلم وأمر أصحابه به، فقد كان من دعائه صلى الله عليه وسلم ((اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك)) وروى ابن ماجه بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وأسألك بحق ممشاي هذا إليك، فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة، خرجت اتقاء سخطك، وابتغاء مرضاتك، فأسألك أن تعيذني من النار، وأن تغفر لي ذنوبي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، أقبل الله بوجهه عليه واستغفر له سبعون ألف ملك)) [1]. وذكره الجلال السيوطي في الجامع الكبير.

وروى الحديث المذكور أيضاً ابن السني بإسناد صحيح عن بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنه ولفظه كان رسول الله إذا خرج إلى الصلاة قال ((بسم الله، آمنت بالله، وتوكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وبحق مخرجي هذا فإني لم أخرج بطراً ولا أشراً ولا رياء ولا سمعة، خرجت ابتغاء مرضاتك، واتقاء سخطك أسألك أن تعيذني من النار وأن تدخلني الجنة)) [2].

---

[1] أخرجه الإمام أحمد في المسند (3/121). وابن ماجه في باب المشي إلى الصلاة (1/256) ورقم 778 قال في الزوائد هذا إسناده مسلسل بالضعفاء.. لكن رواه خزيمة في صحيحه من طريق بن مرزوق فهو صحيح عنده.

[2] أخرجه النووي في الأذكار وضعفه ص32، وابن السني في عمل اليوم والليلة رقم الحديث (84).

ورواه الحافظ أبو نعيم في عمل اليـوم والليلـة من حـديث أبي سعيد بلفظ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج إلى الصلاة قال «اللهم» إلى آخر الحديث.

ورواه البيهقي في كتاب الدعوات من حديث أبي سعيد أيضاً.

ومحل الاستدلال قوله صلى الله عليه وسـلم ((بحـق السـائلين عليك)) النص في التوسل بحق العباد الداعين السائلين، ومنهم الأحياء والأموات، كما أن في الحديث الشريف دلالة على جـواز التوسل بحق نفس المتوسل وأعمالـه الصـالحة كمـا يظهـر من قولـه ((وأسـألك بحـق ممشـاي هـذا إليـك)). ولمـا كـان الحـق بمعنى القدر والجاه كان فيه الاستشـهاد للتوسـل بالجـاه أيضـاً. فالحـديث المـذكور برواياتـه وطرقـه الكثـيرة يكـون دليلاً على جــواز التوســل بــالحق والجــاه للأحيــاء والأمــوات من العبــاد المكرمين، ويعمل النفس أيضاً، كما هـو منصـوص بقولـه صـلى اللـه عليـه وسـلم «ممشـاي» ولم يـزل السـلف من التـابعين وأتباعهم ومن بعدهم يستعملون هذا الـدعاء عنـد خـروجهم إلى الصلاة بأمره صلى الله عليه وسلم.

ويدل على هذا النوع من التوسـل أيضـاً مـا رواه الطـبراني في الكبـير والأوسـط، وابن حبـان والحـاكم وصـححوه عن أنس بن مالك رضي الله تعـالى عنـه قـال لمـا مـاتت فاطمـة بنت أسـد رضي الله عنها، وكانت ربت النبي صلى الله عليه وسلم

وتعهدته وخدمته وهي أم علي بن أبي طالب رضي الله عنه دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس عند رأسها وقال ((رحمك الله يا أمي بعد أمي)) وذكر ثناءه عليها وتكفينها ببرده وأمره بحفر قبرها قال فلما بلغوا اللحد حفره النبي صلى الله عليه وسلم بيده، فلما فرغ دخل صلى الله عليه وسلم فاضطجع فيه ثم قال ((الله الذي يحي ويميت وهو حي لا يموت اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فإنك أرحم الراحمين)) [1].

وروى ابن أبي شيبة عن جابر رضي الله عنه مثل ذلك، وكذا روى مثله ابن عبد البر عن ابن عباس رضي الله عنهما ورواه أبو نعيم في الحلية عن أنس رضي الله عنه ذكر ذلك الحافظ السيوطي في الجامع الكبير.

وروى البيهقي بإسناد صحيح في كتابه (دلائل النبوة) الذي قال فيه الحافظ الذهبي عليك به فإنه كله هدى ونور عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((لما اقترف آدم الخطيئة، قال يا رب أسألك بحق محمد ألا ما غفرت لي، فقال الله تعالى: يا آدم كيف عرفت محمداً ولم أخلقه، قال يارب إنك لما خلقتني رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله. فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله تعالى: صدقت يا آدم، إنه لأحب الخلق إليّ، وإذ سألتني بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك)). [2]

[1] أخرجه الطبراني في المعجم الكبير في حديث طويل، وفي رواته روح بن صلاح وثقة ابن حبان والحاكم، قال الحافظ الهيثمي: روح فيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح. انظر مجمع الزوائد (9/256-257) وأخرجه أبو نعيم في الحلية (3/121).

[2] وأخرجه الحاكم في المستدرك (2/615) وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق من طريقه وصححه الحاكم فتعقبه الذهبي بقوله: قلت بل موضوع وعبد الرحمن واه.

ورواه أيضاً الحاكم وصححه الطبراني وزاد فيه «وهو آخر الأنبياء من ذريتك».

وإلى هذا التوسل أشار الإمام مالك رحمه الله تعالى للخليفة الثاني من بني العباس، وهو المنصور جد الخلفاء العباسيين، وذلك أنه لما حج المنصور المذكور وزار قبر النبي صلى الله عليه وسلم سأل الإمام مالكاً وهو بالمسجد النبوي، وقال له: يا أبا عبد الله استقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال مالك، ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله تعالى، بل استقبله واستشفع به فيشفعه الله فيك، قال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [1].

ذكره القاضي عياض في الشفاء وساقه بإسناد صحيح، وذكره الإمام السبكي في شفاء السقام في زيارة خير الأنام،

---

[1] سورة النساء، الآية 64.

والسيد السمهودي في خلاصة الوفاء، والعلامة القسـطلاني في المواهب اللدنية، والعلامة ابن حجر في تحفـة الـزوار والجـوهر المنظم بالمنتظم، وذكـره كثـيراً من أربـاب المناسـك في آداب زيارة النبي صلى الله عليه وسلم.
قال العلامة ابن حجر في الجوهر المنظم رواية ذلك عن الإمام مالك جاءت بالسند الصحيح الذي لا مطعن فيـه، وقـال العلامـة الزرقاني في شرح المواهب ورواها ابن فهد بإسناد جيد ورواها القاضي عياض في الشفاء بإسناد صحيح رجاله ثقـات ليس في إسنادها وضاع ولا كذاب، ومراده بذلك الرد على من لم يصـدق رواية ذلك عن الإمام مالك، ونسب لـه كراهيـة اسـتقبال القـبر فنسبة الكراهة إلى الإمام مالك مردودة.

الوجه السادس
التوسل إلى الله بالتبرك بآثاره صلى الله عليه وسلم

وهذا أمر ثابت في عهده صلى الله عليه وسلم بمرأى منه، وقد قرره صلى الله عليه وسلم وجرى الأمر عليه بعـد وفاتـه أيضـاً، لأن الله سبحانه وتعالى خص آثاره وما لمسه أو باشـره بمزايـا وخصائص يتبرك بها وينتفع بأثرها.

ففي الصحيح عن أسماء بنت أبي بكـر رضـي اللـه تعـالى عنهـا أنها أخرجت جبة طيالسة وقالت: كـان رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم يلبسـها فنحن نغسـلها للمرضـى يستشـفون بهـا، وكانوا يفعلون ذلك فيشفون.
وكان لعبد القاسم بن المأمون قصعة من صاع النبي صلى اللـه عليه وسلم يجعلون الماء فيها للمرضى فيشفون به.
وكان صلى اللـه عليـه وسـلم إذا توضـأ ابتـدروا وضـوءه وكـانوا يقتتلون عليه، وكان لا تسقط منـه شـعرة إلا ابتـدروها وتـبركوا بها. وقد أقرهم النبي صلى الله عليه وسلم على ذلـك بـل كـان يأمر أبا طلحـة أن يفـرق شـعره عنـد حلـق رأسـه بين أصـحابه ليتبركوا به كما في صحيح البخاري [*].
وفيه عن أبي جحيفة قال: ((خرج رسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم بالهاجرة إلى البطحاء فتوضـأ ثم صـلى ركعـتين والعصـر ركعـتين وقـام النـاس فجعلـوا يأخـذون يديـه فيمسـحون بهمـا وجوههم قال فأخذت يـده فوضـعتها على وجهي فـإذا هي أبـرد من الثلج وأطيب رائحة من المسـك)) [1] رواه أحمـد والبخـاري وقولـه ((يمسـحون بهـا وجـوههم)) فيـه مشـروعية التـبرك بملامسة أهل الفضل والصلاح.
<123>

[*] لمزيد تفصيل ذلك راجع فتح البـاري كتـاب الوضـوء بـاب المـاء الـذي يغسل فيه شعر الإنسان (1/238-239).
[1] البخاري باب المناقب. انظر القسطلاني (6/29).

وفي صحيح مسلم عن عائشة أنه صلى الله علي وسلم كان يداوي من به قرحة أو جرح بأن يضع إصبعه السبابة بالأرض ثم يرفعها قائلاً ((بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى سقيمنا بإذن ربنا)) [1]. أي هذه تربة أرضنا معجونة بريقة بعضنا، قال النووي. ومعنى الحديث أن يأخذ من ريق نفسه على إصبعه السبابة ثم يضعها على التراب ليعلق بها شيء منه فيمسح به على الموضع العليل والجرح ويقول هذا الكلام في حال المسح متبركاً باسمه تعالى. انظر شرح المشكاة.

والسنة مملوءة بذكر التبرك والرقية بآثاره صلى الله عليه وسلم عرقه ودمعه ولعابه ومشاهده التي شرفها صلى الله عليه وسلم، ومن هنا أخذ التبرك بآثار الصالحين.

وقد حوفظ على عدد من شعرات لحية الرسول صلى الله علي وسلم عند ملوك المسلمين، ووقع منها عدد في خزانة السلاطين العثمانيين رحمهم الله تعالى، ووصلت منها عدد إلى ديار كردستان العراق كما هي موجودة الآن في تكية (بيارة) المباركة إحدى نواحي قضاء (حلبجة) التابعة لمحافظة السليمانية وقد توسل ببركتها على مرآى منا في مناسبات

---

[1] أخرجه مسلم في كتاب الطب. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (9/26)، وأبو داود في سننه كتاب الطب (2/339).

خاصة في زمن الجدب وقلـة الأمطـار، فـأخرجت من صـندوقها الخاص واجتمعنا واقفين وصلينا على الرسول صـلى اللـه عليـه وسلم مرات وتوسلنا بها فـنزلت الأمطـار الغزيـرة، وفي أوقت الخـوف من هجـوم الأعـداء على بعض أقطـار المسـلمين من مجاورين فحصلت صيانة لها عنهم، وذلك معلوم ومعـروف عنـد المسـلمين الموجـودين في تلـك الربـوع بحيث لم يبـق مجـال للشك فيه، واقرأوا قوله تعـالى ﴿بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً﴾ . <125>

الوجه السابع التوسل بالرقى والتمائم

وثبت أن التوسل بقراءتها وكتابتها نافع وسبب من الأسباب العادية التي يخلق الله المسبب عندها، قال ابن رسلان كما في نيل الأوطار أن هذا جائز لا أعرف الآن من يمنعه في الشرع [*]. وأحاديث البخاري وغيره من الرقية بالفاتحة والمعوذتين تدل على جواز الرقية بغيرهما من سائر آيات الله، وكذلك الرقية بكل ما هو مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب من الأدعية والتعوذات، ويلحق به ما ورد عن الصالحين من الأقوال والأعمال التي لا تشتمل على باطل. فإن الرقية منها ما هو مشروع ومنها ما هو غير مشروع كما يشير إليه حديث خارجة بن الصلت عن عمه أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم ثم أقبل راجعاً من عنده فمر على قوم عندهم رجل مجنون موثق بالحديد فقال أهاه أنا قد حدثنا أن صاحبكم (يعنون النبي صلى الله عليه وسلم) قد جاء بخير فهل عندك شيء تداوي به قال فرقيته بفاتحة الكتاب ثلاثة أيام كل يوم مرتين فبرئ فأعطوني مائتي شاة فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال ((خذها فلعمري من أكل برقية باطل فقد أكلت برقية حق)) [1] رواه أحمد وأبو داود ولفظ

[*] انظر نيل الأوطار (8/239).

[1] أخرجه أبو داود في كتاب الطب، انظر السنن (2ص 339 و341).

أبي داود «ثلاثة أيام غدوة وعشـية كلمـا ختمهـا جمـع بريقـه ثم تفـل» قـال ابن أبي جمـرة ومحـل التفـل يكـون بعـد القـراءة لتحصل بركة القراءة في الجوارح التي يمر عليها الريق.
وفي قوله صلى الله عليه وسلم «برقية باطل» أي برقيـة كلام باطل إشارة إلى أن الرقيـة منهـا حـق ومنهـا باطـل وهي الـتي اشتمل كلامها على محرم أو مكروه.
ويدل على المقصود أيضاً خـبر أبي سـعيد الخـدري رضـي اللـه عنه وذلك أنه كان مـع جماعـة من الصـحابة في السـفر فمـروا بحي من أحيـاء العـرب فاستضـافوهم فلم يضـيفوهم، فبـاتوا بالوادي فلدغ رئيس ذلك الحي فأتوا له بكل دواء فلم ينجـع، أي لم ينفع بشيء، فقال بعضهم لبعض: سلوا ذلك الحي الذي نزل عندكم فسألوهم فقالوا هل فيكم من راق فإن سـيد الحي لـدغ فقالوا: نعم، ولكن لا يكون ذلك إلا بجعل لكـونهم لم يضـيفوهم فجعلوا لهم قطيعاً من الغنم وكان ثلاثين رأساً وكـانت الصـحابة كذلك، فقرأ عليه أبو سـعيد الفاتحـة ثلاث مـرات فكأنمـا نشـط من عقال، وإنما رقاه بالفاتحة دون غيرها لأنه صـلى اللـه عليـه وسلم قال ((فاتحـة الكتـاب شـفاء من كـل داء)) [1] ثم توقفـوا في ذلك فقالوا كيف نأخـذ أجـراً على كتـاب اللـه تعـالى؟ فلمـا قدموا المدينة أتوا النبي صلى الله عليه

---

[1] رواه بهذا اللفظ البيهقي في شعب الإيمـان عن عبـد الملـك مرسـلاً انظر الجامع الصغير (2/122).

وسلم وسألوه عن ذلك فقال ((أن أحق وفي رواية أن أحسن، ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله تعالى)) [1].

وقد رقى صلى الله عليه وسلم سهل بن حنيف من نظرة عامر بن ربيع حيث أمره بغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وما تحت إزاره، ثم بصب الماء على رأسه فبرئ لوقته. وكان صلى الله علي وسلم يأمر العائن بذلك وكم وكم له صلى الله عليه وسلم ولغيره ممن ورث حاله في هذا الباب، وإن كان بين رقاه صلى الله عليه وسلم ورقي غيره من التفاوت ما بين مقامه ومقامهم، ولاشك أن هذه الرقى منه صلى الله عليه وسلم ومن غيره من العمل الصالح الذي يتوسل به إلى حصول المطلوب ويتقرب به إلى الله تعالى لنيل ثوابه المعروف.

وأحاديث النهي عن الرقي والتمائم محمولة على قوم كانوا يعتقدون نفعها وتأثيرها بطبعها، كما كانت الجاهلية يزعمون في أشياء كثيرة أنها تؤثر بطبعها، أو على رقى اشتمل كلامها على محرم أو مكروه، وإلا فرقيه صلى الله عليه وسلم متواترة لا شك ولا شبهة فيها.

[1] أخرجه أبو داود في كتاب الطب انظر السنن (2/340).

الوجه الثامن
التوسل بطلب الفعل من الرسول صلى الله عليه وسلم أو من غيره من الأنبياء أو الأولياء

كأن يقول يـا رسـول اللـه أو يـا سـيدي فلان خلّصـني من هـذه المشــكلة الماديــة، كابتلائــه بالأعــداء، أو المعنويــة كابتلائــه بوساوس نفسية وغيرها، فهذا الوجه من التوسـل إن كـان على رعاية المعنى المجازي كأن يريد المتوسل: يـا رسـول اللـه ادع لي أو اشــفع لي كي أخلص من هــذه المشــكلة فإنــه جــائز، وحصول المتوسل إليه واقع، فكم شفى مريض بتوجهاتهم، وكم قضيت حاجات بإرشاداتهم، ومن أنكر ذلك فقد أنكر محسوســاً وقد صح أنه صلى الله عليه وسلم رد عين قتادة بعد أن ســالت على وجنته، [*] وشفي ابن (ملاعب الأسنة) من مرض استسقائه بتفاله على حثوة من التراب بعـد إعيـاء حيلتـه، إلا أنـه لا يجـوز دعاء الرسول صلى الله عليه وسـلم ولا طلبـه منـه بمثـل هـذه الصيغة التي من شأنها أن تستند إلى اللـه تعـالى لا إلى غـيره، لأن الــداعي وإن أراد المعـنى المجـازي الصـحيح لكن صـيغته موهمة للفساد فيجب تركها. ونحن ما سمعنا الدعاء من مسـلم فاهم للدين بتلك الصيغة،

[*] قصة رد الرسول صلى الله عليه وسلم عين قتادة إلى مكانها جـاءت في روايات كثيرة، ذكر البغوي وأبو يعلى أن القصة كانت في بدر، وفي رواية أن الرسول وضع راحته على حدقة قتادة ثم غمزها فكان لا يدري أين ذهبت عينه، وفي رواية أنه ردها إلى مكانها، وعند الدار قطني وابن شاهين أن القصة كانت في غزوة أحد وقد فصل الكلام فيهـا ابن حجـر في الإصابة (3/217).

وأما المسلم الجاهل أو البدوي البعيد عن معرفة الأحكام فإن صدرت منه تلك الصيغ وجب تنبيهه وإعلامه أن تلك الصيغة غير سليمة، وأن الصحيح هو أن تقول صيغة تدل على جعله صلى الله عليه وسلم داعياً ووسيلة لوصول المتوسل إلى مراده.

ويجب أن يعلم أنه ليس من قبيل تلك الصيغة الركيكة قول المسلم المتوسل: اشفع لي يا رسول الله، أو أسألك الشفاعة لي يوم القيامة على معنى سل الله تعالى أن يغفر لي ويدخلني الجنة، أو أن يقول: يا رسول الله كن وسيلة النجاة لي من تلك المحنة، أو ادع الله تعالى أن يشفيني أو يعينني على حصول مقصودي، فإن كل تلك العبارات في المآل دعاء إلى الله، وطلب من الله، والتجاء إليه في الواقع، وجعل الرسول وسيلة وشفيعاً وذلك أمر صحيح سليم وشفاعته صلى الله عليه وسلم ثابتة لا تنكر.

فإن قوله تعالى ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذنِهِۦ﴾ [1] مما يقرر ثبوت الشفاعة للأنبياء وغيرهم بإذنه سبحانه وتعالى، وكذلك قوله تعالى ﴿وَلَا يَشفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارتَضَىٰ﴾ [2] وقوله تعالى ﴿يَومَئِذ لَّا تَنفَعُ الشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَن أَذِنَ لَهُ الرَّحمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَولا﴾ [3] من الأدلة الجلية على ثبوت الشفاعة. وإنكارها

[1] سورة البقرة، الآية 255.
[2] سورة الأنبياء، الآية 28.
[3] سورة طه، الآية 109

إنكار البديهيات، وحديث شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم يوم القيامة كاد أن يكون متواتراً.

وكذلك ليس من المحظور الاستعانة برسول الله صلى الله عليه وسلم بالمعنى المعروف حسب اللغة العربية المستعملة وحسب العرف العام، وهو إمداده وإسعافه للمستغيث بالوسائل الاعتيادية والأسباب المتداولة المعروفة. وكذا ليس من المحظور الاستعانة برسول الله صلى الله عليه وسلم بالمعنى المعروف، وهو عونه للمستعين بما في وسعه وطاقته الاكتسابية بمباشرة أسباب الخلاص والفرج عن المستعين المكروب، فإن الله سبحانه وتعالى بحكمته العالية جعل لكل شيء سبباً ألا ترى قوله تعالى في قصة ذي القرنين ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا * فَأَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ [1] فالأسباب الاكتسابية كثيرة لا يحصيها إلا الله، فمن الأسباب توجه المستغيث والمستعين إلى من يغيثه ويعينه، ومن الأسباب أيضاً إمداد المستغاث والمستعاذ بما في وسعه لإزالة الكرب عن السائل.

ومما هو نص في الاستغاثة بالمعنى الاكتسابي المعروف قوله سبحانه وتعالى ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِ﴾ [2] ومما هو نص في الاستعانة بالمعنى الاكتسابي المعلوم قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [3]، وقوله

---

[1] سورة الكهف، الآية 84 – 85.

[2] سورة القصص، الآية 15.

[3] سورة البقرة، الآية 153.

صلى الله عليه وسلم ((استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان))[1] وينادي على صحة ذلك قوله سبحانه وتعالى ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾[2] فإن التعاون مصدر باب التفاعل، والباب للمشاركة على ما هو معلوم عند علماء العربية، وعونك لشخص كثيراً ما يكون بعد استعانته بك، وكذلك عونه لك يكون بعد استعانتك به.

وأما حصر الاستعانة في الاستعانة بالله العظيم في قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾[3]، وكذا حصر السؤال والاستعانة به تعالى في قوله صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله تعالى عنهما ((وإذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله))[4]، فهو حصر لها على معنى خلق المسؤول والمستعان فيه وإيجاده في ذات الله سبحانه، كيف وقد قال ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾[5].

فالاستعانة بمعنى خلق المعونة حصر في الله سبحانه وتعالى، وبمعنى الاستعانة وطلب المعونة الممكنة المتيسرة <132>

---

[1] تمامه «فإن كل ذي نعمة محسود» أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، وأبو نعيم في الحلية، والطبراني، كما ذكره الزركشي في اللآلئ المنتثرة في الأحاديث المشتهرة، وأورده السيوطي ورمز لضعفه في الجامع الصغير (1/64).

[2] سورة المائدة، الآية 2.

[3] سورة الفاتحة، الآية 5.

[4] هذه قطعة من حديث طويل أخرجه الترمذي عن ابن عباس في كتاب صفحة القيامة من سننه، وقال: حديث حسن صحيح، ورواه أحمد انظر المسند (4/233-269)، وذكره النووي في الأربعين.

[5] سورة الزمر، الآية 62.

من الناس تستعمل مع كل من يمكن منه ذلك. وذلك نظير الهداية، فإنها بمعنى خلق الاهتداء ونور البصيرة حصر في الله سبحانه وتعالى، ومسلوب عن كل ما سواه كما قال تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ وبمعنى إراءة الطريق وإرشاد الناس يستعمل في القرآن كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ ويستعمل للأنبياء والمرشدين الهداة إلى الحق وحماته كما في قوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾. فيجب رعاية هذه الأمور والتنبه لمعرفة معاني ألفاظ القرآن الكريم وأحاديث الرسول العظيم، حتى نستعين بهما على السلوك في الصراط المستقيم ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ ألا ترون قوله تعالى خطاباً لحبيبه الأمين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فإن كفاية الله له بخلقه النجاح وترتيبه المسببات على الأسباب، وكفاية المؤمنين له بخدمتهم للدين والجهاد لإعلاء كلمة الحق واليقين، ومباشرة أسباب النجاح الاعتيادي الواجب رعايته على سنة الله في الكون ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾.

والناجح هو الموفق الذي يوفق بين الاعتماد على اللـه والتوكـل عليـه في خلـق النجـاح والسـعادة، وبين مباشـرة الأسـباب المشروعة الـتي خلقهـا اللـه تعـالى للعبـاد في دنيـاهم لـرقيهم وظفرهم بأعدائهم، فـإن الحكم هي الجمـع بين هـذين الأمـرين ﴿ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ [1]، ويـا أسـفاً على المسلمين الذين تناسـوا جهـاده صـلى اللـه عليـه وسـلم مـادة ومعنى حيث كان يحارب الأعداء، ويعدّ العدة، ويستنجد، ويعاهد، ويأمر بالهجرة إلى البلاد، وفي كل أحواله يرجع إلى ربه ويتوكل عليـه ويقـول ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [2].

والحاصـل أن مـذهب أهـل السـنة والجماعـة صـحة التوسـل وجوازه بالنبي صـلى اللـه عليـه وسـلم في حياتـه وبعـد وفاتـه، وكذا بغيره من الأنبيـاء والمرسـلين والأوليـاء والصـالحين، كمـا دلت الأحاديث السابقة، لأنا لا نعتقد تأثيراً، ولا خلقاً، ولا إيجـاداً، ولا إعداماً، ولا نفعـاً، ولا ضـراً، إلا للـه وحـده لا شـريك لـه، فلا نعتقـد تـأثيراً ولا نفعـاً ولا ضـراً للنـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم، باعتبار الخلق والإيجاد والتأثير، ولا لغيره من الأحيـاء والأمـوات، فلا فرق في التوسل بالنبي صلى اللـه عليـه وسـلم وغـيره من الأنبيـاء والمرسـلين صـلوات اللـه عليـه وعليهم أجمعين، وكـذا بالأولياء والصالحين، لا فرق بين كونهم أحيـاءً أو أمواتـاً، لأنـه لا يخلقون شيئاً، وليس لهم

(1) سورة البقرة، الآية 269.
(2) سورة يونس، الآية 62.

تـأثير في شـيء، وإنمـا يتـبرك بهم لكـونهم أحبـاء اللـه تعـالى، والخلق والإيجاد والتأثير لله وحده لا شريك له.

وأمـا الـذين يفرقـون بين الأحيـاء والأمـوات حيث جـوزوا بعض التوسلات بالأحياء لا للأمـوات، فهم القريبـون من الزلـل، لأنهم اعتـبروا أن الأحيـاء لهم التـأثير دون الأمـوات، مـع أنـه لا تـأثير إيجاديـاً لغـير اللـه سـبحانه وتعـالى على الإطلاق. وأمـا الإفـادة وفيض البركــات والاســتفادة من أرواحهم اســتفادة اعتياديــة، وتوجه أرواحهم إلى الله سبحانه وتعالى طـالبين فيض الرحمـة على ذلك المتوسل، فهو شيء جائز وواقع وخال عن كل خلـل، بدون الفرق بين الأحياء والأموات.

فشبهة المانعين إن كانت من جهـة أن الأمـوات أجسـاد هامـدة جامــدة، ولا روح ولا إدراك ولا مجــال للخطــاب معهم، فتلــك ساقطة من الاعتبار، بـأن أجسـاد الأنبيـاء والرسـل لا تبلى، وأن اللـه حـرم على الأرض أن تأكـل لحـومهم، وأن أرواحهم باقيـة ثابتة، ولها إدراك بإذن الله تعالى، وهـو تعـالى يعلمهـا بصـلوات المسلمين وبتوسلات المتوسلين، وحسبك في الموضوع خطاب النبي صلى الله عليه وسلم في كل صلاة عند التشـهيد بقولـك: السلام عليك أيها النبي ورحمة اللـه وبركاتـه [*]، ولا ينـافي ذلـك قوله تعالى ﴿ لَاتُسْمِعُ لمَوْتَىٰ ﴾ [1] لقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [2]، فإنـه لـولا خلـق الله للإسماع لم يكن إسماع

---

[*] راجع فتح الباري (2/260) لمزيد من البحث.

(1) سورة النمل، الآية 80، وسورة الروم، الآية 52.

(2) سورة فاطر، الآية 22.

لأي شخص من أي شخص حـتى في الـدنيا وفي حـال اليقظـة، ولكن اللـه يسـمعهم، وإلا فكيـف كـان يتكلم صـلى اللـه عليـه وسلم مع قتلى بـدر الـواقعين في القليب، وكيـف يقـول صـلى الله علي وسلم أن الموتى يسمعون قرع نعال المشـيعين لهم، وكيف كان مجال لتلقين الموتى بعد الدفن؟.
وإن كانت شبهتهم من جهة أن تأثير لما سوى الله تعـالى، فهي مدفوعة بأن المتوسلين لا يريدون منهم التـأثير والإيجـاد، معـاذ الله أن يتصـور المسـلم صـحة شـيء مخـالف لقواعـد الإيمـان والإسلام والتوحيد. وإن كـانت الشـبهة وقـوع بعض ألفـاظ غـير سـليمة من الخلـل، فهي مدفوعـة بتـداركها بـأدنى عنايـة حـول تربيـة المسـلمين لـترك الألفـاظ غـير السـليمة، واسـتعمال مـا يناسب مقام العبودية.
وأما منع التوسـل مطلقـاً فلا وجـه لـه مـع ثبوتـه في الأحـاديث الصـحيحة، ومـع صـدوره من النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم وأصحابه وسـلف الأمـة وخلفهـا، وجعـل التوسـل شـركاً وكفـراً معارضة صريحة لقواعد الإسلام، فإن من قواعـده عـدم تكفـير أي مسلم إلا بعد ثبوت مكفر منه لا يقبل التأويل، وإضلال للأمة المعصومة من الخطأ فضلاً عن الكفـر بقولـه صـلى اللـه عليـه وسـلم ((لا تجتمـع أمـتي على ضـلالة)) [1]، الحـديث المعـروف المشـهور الجلي الـذي ادعى بعض المحـدثين أنـه متـواتر ومخاصمة مع قوله تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [2] إذ كيف

[1] الحديث يأتي تخريجه في محبة الصحابة.
[2] سورة آل عمران، الآية 110.

تجتمـع كلهـا أو أكثرهـا على ضـلالة؟ وهي خـير أمـة أخـرجت للناس.
فإذا وفقنا وتوجهنا إلى الضريح الأنور وخاطبناه صلى الله عليـه وسلم، فخطابنا معه له أصل في الدين، وهو الخطاب معـه في تشهدنا لكل صلاة، ومعنى ذلك أنه صـلى اللـه عليـه وسـلم لـه روح عالية الدرجات موهوبة منـه سـبحانه بفضـائل لا يعلمهـا إلا هـو، وأنـه تعـالى يخـبره ويعلمـه بصـلاة المصـلين وخطـاب الحاضرين والغائبين.
وإذا توسلنا به صلى الله عليه وسـلم على معـنى طلب الـدعاء منه صلى الله عليه وسلم، فطلب الـدعاء مشـروع، وروحانيتـه المنـورة لا فـرق بين عـالم علاقتهـا الماديـة الدنيويـة وعلاقتهـا البرزخية، بل والأرواح في البرزخ أصفى منها في عالم الدنيا.
وإذا توسلنا بذاته الشريفة، أو بجاهة العظيم، أو بحقه الجسـيم، أي حق رعايته للعبودية الخالصة عند الله تعالى بمحض إحسانه ولطفـه، أو فضـل طاعتـه وأعمالـه وجهـاده في تبليـغ الـدين المبين، فكل ذلك واقع في الروايات الصحيحة كما سـمعت منـا في أوجه التوسل به صلى الله عليه وسلم.
وإذا كان القصد الاستشفاع به صلى الله عليه وسـلم، فلا شـك أنه الشفيع الأكرم المشفع، وشفاعته ثابتة لا شك فيهـا، وقبـول شفاعته ثابت بفضل الله وهو من خالص كرمه ورحمتـه تعـالى، لا حق لأحد في منعه وحجره أو إنكاره.

وما توهم الناس به من أنه إشراك، فهو توهم من تعامي عن حقيقة معنى الإشراك، فإنه عبارة عن أن يجعل العبد أحداً سوى الله تعالى شريكاً له في الألوهية والربوبية والخلق، أي أن ذلك الشريك له نصيب من الصفات المذكورة، وأين ذلك من التوسل بالرسول صلى الله عليه وسلم، بصفة أنه عبد الله ونبيه ورسوله أكرمه بفضله، وجعل له الشفاعة والوسيلة والمقام المحمود؟

وقياس المسلمين المتوسلين على عباد الأصنام في ما حكاه الله تعالى عنهم من قولهم ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [1] ونحوه ناشئ عن إغماض عن الحق وانحراف عن الواقع، وتسوية بين الأمة الوثنية الجاهلة الضالة العمياء وبين الأمة المسلمة المؤمنة بالله وحده لا شريك له، الناشئة عن الملة الإسلامية الحنيفة المهتدية البيضاء، التي تمرنت على الاعتقاد بأن الله سبحانه وتعالى رب العالمين وخالق كل شيء ومعبود المكلفين. وكيف يتصور بمن أسلم وقرأ القرآن وفهم تعاليمه أن يظن تلك الظنون الفاسدة التي ظنها عباد الأصنام الجاهليون؟ وكيف يتصور ذلك من العلماء الأعلام الدارسين لمعنى قوله تعالى ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [2] ولإنذارات الرسول الكريم لعشيرته بعد نزول قوله تعالى ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [3]؟

[1] سورة الزمر، الآية 3.
[2] سورة الكهف، الآية 110.
[3] سورة الشعراء، الآية 214.

نسـأل اللـه سـبحانه وتعـالى أن يهـدي المسـلمين بنـور العلم السـليم إلى الصـراط المسـتقيم بمنـه وفضـله أنـه أرحم الراحمين.
وقلوبنا مملوءة بأمل أن ينتبه المسلم الـزكي الـذكي المنصـف لملاحظة الحقـائق، وتنـوير الأمـة على ضـوئها، وإرشـاد العامـة وتأييد الخـواص، فالـدين نصـيحة للـه ولرسـوله ولكتابـه ولأئمـة المسـلمين وعـامتهم [1]، وليس من النصـيحة إثـارة الشـكوك والأوهام وتضليل المسلمين من لدن القرون الأولى إلى يومنـا، فإنه قد مضت قرون والمسلمون والرشد في قـرن كمـا أنـه لا ينبغي ولا يجوز بـل يحـرّم الاقتـداء بالحروريـة المكفـرين فـإن رأينا نحن المسلمين أن لا نكفر أحداً من أهل القبلـة، إلا بحجـة قاطعـة على كفـره، كمـا يجب الاجتنـاب عن الانحـراف، ويجب علينا الاعتدال والوقوف في وسط الطريق بلا إفراط وتفريـط، وإيتاء كل ذي حق حقـه، وهـذا هـو الصـراط المسـتقيم صـراط الـذين أنعم اللـه عليهم من الرسـول وصـحابته وإتباعـه وإتبـاع التابعين صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم وعنـا ببركـاتهم أجمعين.

[1] هـذه إشـارة إلى الحـديث الشـريف «الـدين النصـيحة» وهـو حـديث صحيح أخرجه مسـلم في كتـاب الإيمـان (1/74). والترمـذي في كتـاب البر والصلة. انظر السنن (4/324).

محبة الرسول

ومن محبة الرسول صلى الله عليه وسلم الاقتداء بـه والاقتـداء بـه صـلى اللـه عليـه وسـلم هـو الجهـد في الاتصـاف بعقيدتـه وأعماله وأخلاقـه صـلى اللـه عليـه وسـلم قـال تعـالى ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [1] وقـال تعـالى ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ [2] وقال تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [3] وقال صلى الله عليـه وسـلم ((بعثت لأتمم مكـارم الأخلاق)) [4] فالمؤمن إنما يكون مؤمناً بالمعنى الكامل باقتدائه به في كافـة شـؤونه، سـوى مـا اختص بـه صـلى اللـه عليـه من خصائصـه الشخصية الكريمة. ومن هذا الاقتداء تنشأ محبة الكتاب والسنة بالجهد في تعلمهمـا والعمـل بهمـا، وتعليمهمـا للنـاس، والـدفاع عنهما ويجب إكرام حملتهمـا من القـراء والحفـاظ والمحـدثين، وعلمائهما القـائمين بخـدمتهما من الأئمـة المجتهـدين والعلمـاء العاملين، وكل من له قدم راسخ ثـابت في تأييـدهم لبقـاء هـذا الدين المبين.

ومنع اللعب بالمحرمات والضغط للأصوات عنـد قـراءة القـرآن سـواء من الراديوهـات أو غيرهـا فـإن ذلـك احتقـار للقـرآن وتحقيره تعمداً كفر والعياذ بالله تعالى.

---

[1] سورة آل عمران، الآية 31.

[2] سورة الأحزاب، الآية 21.

[3] سورة القلم، الآية 4.

[4] رواه الإمـام أحمـد والحـاكم والـبيهقي من حـديث أي هريـرة، انظـر تخريج أحاديث الأحياء للحافظ العراقي (3/48).

احترام آله وأزواجه

ومن محبته صلى الله عليه وسلم احترام آله من أزواجه أمهات المؤمنين، وذريته، وخدمتهم المستقيمين على الأدب الرفيع من ذريته صلى الله عليه وسلم. أما أزواجه الطاهرات فلقوله تعالى ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ [1].

فلا شبهة في أن النبي صلى الله عليه وسلم أولى بالمؤمنين من أنفسهم، لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك وهو يدعوهم إلى النجاة، فإذا أمر صلى الله عليه وسلم بشيء ودعت النفس إلى غيره، كان الواجب إتباع أمره صلى الله عليه وسلم، وإذا نهى عن شيء ودعت النفس إلى فعله، كان الواجب الانتهاء عن ذلك والوقوف عند حد النهي، فإنه صلى الله عليه وسلم مبلغ عن الله تعالى وداع إلى الهدى، وخير الكتاب كتاب الله وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم، وما خالف ذلك ونافاه فهو الهوى، ويجب اجتنابه لنيل الأجر عند الله، قال ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [2] وقال صلى الله عليه وسلم ((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)) [3] وهذا هو الإيمان الكامل.

[1] سورة الأحزاب، الآية 6.

[2] سورة النازعات، الآية 40.

[3] رواه البغوي في شرح السنة، والحسن بن سفيان في الأربعين، وابن عساكر في أربعينه، وصححه النووي، وتعقبه الحافظ ابن رجب في الأربعين، ورواه التبريزي في المشكاة (1/59).

ومعنى أنه جعل الله تعالى أزواجه صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين، أنه شرفهن الله تعالى، وأوجب على المؤمنين تعظيمهن، والمبرة لهن، وإجلالهن، ورعاية حقوقهن، والاعتقاد بأنهم متميزات ومختارات من الله سبحانه وتعالى لصحبة خير خلقه ومصطفاه، كما قال ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [1] فلا يساويهن في تلك الدرجة أحد من النساء، قال تعالى ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [2] وأمرهن بكل الأدب مع الله ومع رسوله وخدمة الإسلام والدين وقال لهن: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [3] وأمرهن الله سبحانه بالتزام الخير من كل وجهة وقال ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [4] فقد نصت الآية الشريفة على أن الله تعالى أراد بهن الخير وزوال كل مكروه عنهن، وهذه الألفاظ تعطى أن أهل البيت نساءه وقد روى عن عطاء وعكرمة وابن عباس رضي الله تعالى عنهم أن أهل البيت زوجاته خاصة، ولكن الذي يظهر من أول الآيات إلى آخرها أنها عامة في جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم، وإنما قال ويطهركم لأن رسول الله صلى

[1] سورة النور، الآية 26.
[2] سورة الأحزاب، الآية 32.
[3] سورة الأحزاب، الآية 34.
[4] سورة الأحزاب، الآية 33.

الله عليه وسلم وعلياً وحسناً والحسـين كـان فيهم، وإذا اجتمـع الرجال والنساء غلب الرجال.
وبالجملة أن من اختارهن اللـه سـبحانه وتعـالى لصـحبته ودوام العشرة معه صـلى اللـه عليـه من خيـار المسـلمات المؤمنـات القانتات العابدات، وأن الإيمان بأدبهن وعلـو مقـامهن وعفتهن، واصـطفائهن لصـحبة المصـطفى صـلى اللـه عليـه وسـلم من واجبات المؤمنين والمؤمنات.

ومن محبته صلى الله عليه وسلم محبة آله صلى الله عليه وسلم وتوقيرهم

قد يستعمل الآل ويراد به جميع أمـة الإجابـة [1] ومنهم الصـالح والطالح، وهذا المعنى لا تسانده اللغة ولا العـرف العـام إلا في بعض استعمالات مقرونة بقرائن تـدل على ذلـك المعـنى، وقـد يستعمل ويراد به كل تقي ونقي أي كل صاحب تقـوى من أمـة الإجابة ونظيـف من الكبـائر، وهـذا المعـنى أخص من الأول، ولا تسانده أيضاً اللغة ولا العـرف العـام إلا بقـرائن، وقـد يسـتعمل ويراه به مؤمنـو بـني هاشـم والمطلب ابـني عبـد منـاف، وهـذا المعنى يسانده الحديث الشريف روى البخـاري أنـه صـلى اللـه عليه وسلم قسم سهم ذوي القـربى وهـو خمس الخمس بينهم تاركاً منه غيرهم من بـني عميهم بـني نوفـل وعبـد شـمس مـع سؤالهم له.. وقال صلى الله عليـه وسـلم ((إن هـذه الصـدقات إنما هي أوساخ الناس وأنها لا تحل لمحمد ولآل محمد)) [2] وقد يستعمل بمعنى نسله ورهطه الأقربين. وقد يفسر هـذا المعـنى على وجه يكون أخص من المعنى السابق، ويؤيده مـا رواه زيـد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول

---

[1] أمة الإجابة يعني جميع أولئك الذين استجابوا دعوة الإسلام وآمنوا به، وتقابلها أمة الدعوة: أي أولئك الذين دعوا إلى الإسلام سـواءً اسـتجابوا أم لا.

[2] الحديث أخرجه مسلم عن عبد الله بن حرث بن نوفـل. انظـر شـرح النـووي في هـامش القسـطلاني (5/42). وأخرجـه النسـائي في كتـاب الزكاة سنن النسائي (5/106).

الله صلى الله عليه وسلم ((أنشدكم اللـه أهـل بيـتي)) [1] ثلاث مرات، قلنـا لزيـد من أهـل بيتـه؟ قـال آل علي وآل جعفـر وآل عقيــل وآل العبــاس، ومعلــوم أنهم من أولاد هاشــم بن عبــد المناف، وليس فيهم من آل أخيه المطلب أحد.

وعلى كــل فقــد وردت في الصــحاح أحــاديث شــريفة تــرغب المسلمين في احترام آلـه صـلى اللـه عليـه وسـلم، وكـل ذلـك ينادى على أن المؤمن المخلص لدين الله لاشك أنـه يحب اللـه ورسوله، ويحب من له علاقة بالرسول صلى الله عليـه بصـورة عامة، ويحب علاقتـه من ذوي قرابتـه الأقـربين بصـورة خاصـة، ومن واجب المؤمن رعاية هذه السلسلة الذهبية المباركة الـتي أثمرت ثماراً طيبة في خدمة الكتاب والسنة ونشر الإسـلام بين المسـلمين، ويحـترمهم وينظـر إليهم نظـرة إجلال وتوقـير، مـع العلم أن كل أفراد المسلمين على حد سواء في وجـوب رعايـة أحكام الله وحـدودها، وأن أكـرم العبـاد على اللـه أتقـاهم فهـذا معنى والنظـر إلى آل الرسـول بنظـر الاعتبـار احترامـاً للعلاقـة النبوية معنى آخر.

وكل من قال أو يقول أن آل الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم ليسوا من أولاده صلى الله عليه وسلم، لأنه لم يخلف ولــداً من الذكور، وإنما هم حواشيه أو أولاد بنته الطيبـة فاطمـة الزهـراء رضي الله تعالى عنها، فإنما تكلم بما يتألم به قلب <146>

---

[1] رواه الإمـام أحمـد عن زيـد بن أرقم بلفـظ «أذكـركم اللـه في أهـل بيتي» ثلاثاً. انظر المسند (4/367).
ورواه الترمذي بلفظ «أحبوا أهل بيـتي» رقم 3789 – ـ 3872، طبعـة حمص.

المؤمن الصادق، لأن المقام ليس مقام الإرث والانتســاب على القاعدة المعروفة، بـل المقـام مقـام الارتبـاط التناسـلي بينهم وبينه صلى الله عليه وسلم، ولو من جهة بنته الطاهرة الزهـراء أو الارتباط بآبائه صلى الله عليه وسلم كما تحقق في أولاد عبد المطلب ومن فوقه حسب ما حدده أهل العلم *، وهذه العلاقـة علاقــة لا تــدانيها علاقــة، فعلى المــؤمن الــوفي بحقــوق اللــه ورسوله صلى اللـه عليـه وسـلم والمـؤدي لـواجب الشـكر إزاء نعمة هدايته صلى الله عليه وسلم وإرشاده لأمته، الهداية الــتي كانت وسيلة لخروج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الكفـر إلى الإيمـان، ومن الجهـل إلى العلم، ومن الفـراغ القلـبي إلى التحلي بالفضائل العلمية والعملية، أن ينظـر إلى من لـه علاقـة به صلى الله عليه وسلم بحيث يحس في أحداق نظـره القلـبي بنور متصل بينه وبين رسول الله صلى الله عليـه وسـلم، وهـذا هو أدب المسلمين جيلاً بعد جيل ونسـأل اللـه التوفيـق لادامتـه إلى يوم الدين. <147>

ومن محبته صلى الله عليه وسلم محبة أصحابه ثم التابعين

ومحبتهم: أن يعرف المسلم حقهم، ويقتدي بهم، ويحسن الثناء عليهم، ويترضى عنهم، ويدافع عن منزلتهم وكرامتهم، بالإمساك عما شجر بينهم والإعراض عن أخبار المؤرخين وجهلة الرواة القادحين لهم.

ذلك أن لكل أمة مسلمة ديناً ولهم مبدأ يرجعون إليه في مهماتهم وعقائدهم وأحكامهم، وأن مرجع الأمة المحمدية هو الكتاب والسنة، والسنة منها متواترة ومنها غيرها، ومن بعد المتواتر الأحاديث المشهورة وغيرها من الصحاح والحسان، والمسلم يجب أن يقف موقف الانقياد والاعتبار أمام نصوص الكتاب والسنة المتواترة والأحاديث الصحيحة، وإلا فلا يبقى معنى للانتساب إلى المبدأ وإذا كان هنا مجال كلام في رواية حديث من الأحاديث الشريفة الضعيفة، فلا مجال لأي جدال في مقابل القرآن والسنة المتواترة وما أطبق الأكثرية على صحته أو حسنه، وإذا علمت ذلك فاعلم أنه ورد في النصوص الثناء على الموجودين في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، منها قوله تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [1]، ولاشك أن المخاطب بهذا القول الجليل بالدرجة الأولى أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام ورضى الله عنهم، وهم الحاضرون أمام الرسول المنورون بنور لقائه

---

[1] سورة آل عمران، الآية 110.

المهتدون بهديه، والمقتدون به في أعماله وأحواله وأخلاقه، ومنها قوله تعالى ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[1]، وفي هذه الآية الكريمة حسن الثناء عليهم بجملة صفات ونعوت عظيمة، كصحبتهم ومعيتهم له صلى الله عليه وسلم الظاهرة في الصحبة والمعية المادية والمعنوية، وكشدتهم وقوة قريحتهم وبطولتهم في لقاء الكفار، وكرحمتهم وعطفهم ومواساتهم بعضهم لبعض، المواساة التي بها يمتاز الصادق من غيره، ثم الثناء عليهم بملازمتهم لأفضل الطاعات المعبر عن ذلك بأهم أركانها من الركوع والسجود لذات الباري جل شأنه، ونعتهم بأن عبادتهم لم تكن إلا ابتغاء فضل الله ورضوانه، وتميزهم بأخذهم وسام الشرف في وجوههم من سيماء القدسية المتلألأة عليها من أثر انقيادهم وسجودهم لرب العالمين.

وعقب الله سبحانه وتعالى ذلك بأنهم هو الموصوفون في الكتب السابقة المقدسة النازلة على موسى وعيسى، والمحتوية على تشبيههم بزرع أخرج شطأه وفروعه وقواها واستوى على سوقه بحيث يعجب الزراع، وذلك ليتأيد بهم الدين وأهله ويغضب بهم الكفار، ثم يأتي بأنه تعالى وعد أولئك الأصحاب الموصوفين بالإيمان. والأعمال الصالحة مغفرة جسيمة وأجراً عظيماً.

---

[1] سورة الفتح، الآية 29.

ومنهـــا قولـــه تعـــالى ﴿لَّقَـــدۡ رَضِـــيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَا﴾ [1] الـوارد في أصحاب بيعة الرضوان في الحديبية، وقد حقـق اللـه وعـده بالفتح القريب ففتح عليهم مكة ومـا حولهـا، وبالمغـانم الكثـيرة التي أخـذوها في هـوازن وغيرهـا من المواقـف الشـريفة الـتي تبين بها المفدي بروحه عن الطالب لراحته.

ومنهـــا قولـــه ســـبحانه وتعـــالى ﴿وَٱلسَّـــٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُـــونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِـرِينَ وَٱلۡأَنصَـارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُـوهُم بِإِحۡسَـٰنٖ رَّضِـيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُـواْ عَنۡهُ وَأَعَـدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡـرِي تَحۡتَهَـا ٱلۡأَنۡهَٰـرُ خَٰلِـدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [2] وكل عالم منصــف يعلم من هم السابقون الأولـون من المهـاجرين، ومن هم الأنصـار، ومن هم الـذين اتبعـوهم بإحسـان، كمـا يعلم أن من أخـبر اللـه سـبحانه وتعالى في كتابه الكريم بأنه رضى عنهم وأنهم رضوا عنـه وأنـه أعد لهم جنات رفيعة الدرجات، لاشك في تحقق ما وعد به في حقهم، ومن أصدق من الله قيلاً.

كما أنه أخبر بأنه اشترى من المؤمـنين أنفسـهم وأمـوالهم بـأن لهم الجنة، وأن المعاملة قد جرت وتحققت، والتضحية بالأنفس والأموال وقعت وتبينت، وأن الفوز بالجنة والدرجات الرفيعة قد وقعت في مشاهد بدر الكبرى وفي أحد

---

[1] سورة الفتح، الآية 18-19.

[2] سورة التوبة، الآية 100.

وفي حنين وفي اليمامة وفي غير تلـك الأقطـار من الـديار ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ *، فقد صدق اللــه ووقعت المعاملــة والمبادلــة، المــراد بهمــا وقــوع التضــحية بــالنفس والأموال، وتحققت الدرجات من الله ذي الجلال.

وكل عاقل مثقف منصف مهتم بالكتـاب الكـريم النـازل بلسـان عربي مبين، إذا لاحـظ هـذه الآيـات البينـات، والأدلـة القاطعـة، والحجج الدامغة بذلك الأسلوب الواضح المعلوم، تبين أن أولئك الأصحاب الكرام الذين آمنوا واقتدوا بالرسـول الكـريم واهتـدوا بالكتـاب العظيم وخلقـه الكـريم هم الأمـة المرحومـة الخـيرة المباركـة بالدرجـة الأولى، وهم الـذين رضـى اللـه عنهم، وهم الذين باعوا أنفسهم وآمالهم وأمـوالهم وأحـوالهم بالجنـة، بجنـة الكرامة ولقاء الله تعالى.

ويعلم أن شـهادة اللــه فــوق الشــهادات، وأن سـعادتهم فــوق السعادة، فبأي قيل وقال وبأي رواية من أي طبقـة من الرجـال يعارض قول الله سبحانه المتعال.

وإذا نظرنا إلى سـنة الرسـول الأعظم صـلى اللـه عليـه وسـلم وأحاديثه الشريفة، وجدنا أنه قد بين مدلول الكتاب بتلك السنة، وأظهر مغزى تفسير الآيات الكريمة، لأنه هو الذي خول سـلطة البيان وقال تعالى له ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُـزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [1]، فنطق بأحاديث شريفة في تشريف أصـحابه عمومـاً وخصوصاً، وفي تشريف أمته المرحومة الخالدة

* سورة الواقعة الآية 1-2.

[1] سورة النحل، الآية 44.

المهتدية التي لا تجتمع على ضلالة، ويمدها الله تعالى في رأس كل قرن بمن يجدد لها نور دينها وإشعاعه وتأييده.

فعن عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذي يلونهم)) (قال عمران فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثاً) الحديث [1] وعن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ((خير الناس قرني ثم الذي يلونهم ثم الذي يلونهم ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته)) [2] رواهما الأربعة، وقوله صلى الله عليه وسلم ((ثم يجيء قوم.... الحديث)) معناه يتسابقون للشهادة قبل طلبها ويتسارعون لليمين قبل طلبها، وهذا كناية عن عدم تورعهم.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ((يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقولونو فيكم من صاحب رسول الله فيقولون نعم فيفتح لهم به ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال هل فيكم من صاحب أصحاب رسول الله فيقولون نعم فيفتح لهم به)) [3] رواه الشيخان.

[1] أخرجه البخاري في الرقاق باب ما يحذر من زهرة الدنيا. انظر القسطلاني (9/246-247)، ومسلم في فضائل الأصحاب. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (9/418).

[2] أخرجه البخاري في الرقاق. انظر القسطلاني (9/247)، وانظر التاج (3/27)، مسلم في باب فضل الصحابة، انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (9/419).

[3] أخرجه البخاري في كتاب الجهاد باب من استعان بالضعفاء. القسطلاني (5/92)، وكرره في علامات النبوة، وفضائل الصحابة، ومسلم في فضائل الأصحاب شرح النووي في هامش القسطلاني (9/417).

وقال صلى الله عليه وسلم لعمر ((وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)) [1] رواه الشيخان.
وعن جابر رضي الله تعالى عنه أن عبداً لحاطب جاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو حاطباً فقال: يا رسول الله ليدخلن حاطب النار فقال ((كذبت لا يدخلها فإنه شهد بدراً والحديبية)) [2].
وعن جابر أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ((لا تمس النار مسلماً رآني أو رأى من رآني)) [3] وعن بريدة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ((ما من أحد من أصحابي يموت بأرض إلا بعث قائداً ونوراً لهم يوم القيامة)) رواهما الترمذي [4].
وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ((إن الله لا يجمع أمتي أو قال أمة محمد صلى الله عليه وسلم على ضلالة ويد الله مع الجماعة)) [5].

---

[1] أخرجه البخاري في كتاب المغازي، غزوة فتح. انظر القسطلاني (6/383) ومسلم في الفضائل، انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (9/390).
[2] أخرجه الترمذي في السنن رقم 3956 طبعة القاهرة، والتاج كتاب الفضائل (3/272).
[3] رواه الترمذي في سننه 3957 طبعة القاهرة.
[4] رواه الترمذي في سننه رقم 3949 طبعة القاهرة.
[5] هذا الحديث أخرجه الترمذي بهذا اللفظ وقال هذا حديث غريب من هذا الوجه، انظر طبعة القاهرة، الحديث رقم 2256، والترمذي بشرح ابن العربي (9/11)، لكن الجزء الأول من هذا الحديث وهو «لا يجمع الله أمتي على ضلالة» قال الحافظ العراقي: رواه البيهقي في المدخل من حديث ابن عباس بلفظ «لا تجتمع أمتي على ضلالة»، ولابن ماجة من حديث أنس بلفظ «إن أمتي لا تجتمع على ضلالة» رقم 3950، وروى من حديث أبي ذر، وأبي مالك الأشعري، وابن عمر، وأبي نصرة، وقدامة وفي كلها نظر وحسنه الترمذي، انظر تخريج أحاديث منهاج البيضاوي للحافظ العراقي مخطوط.
وأما جملة «يد الله مع الجماعة» فقد رواه الترمذي عن ابن عباس، وقال: حسن رقم الحديث 2255. ورواه الطبراني في الكبير بلفظ «يد الله على الجماعة» وعلى كل فللحديث طرق.

هذه كلها في المناقب العامة وهناك أحاديث أخرى تثــني عليهم بصـورة عامـة مثـل قولـه صـلى اللـه عليـه وسـلم ((أصـحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم)) [1] وكما روي عن عبـد اللـه بن مُغفل رضي الله عنـه عن النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم قـال ((الله اللـه في أصـحابي لا تتخـذوهم غرضـاً بعـدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضـهم فببغضـي أبغضـهم ومن آذاهم فقـد آذاني ومن آذاني فقــد آذى اللــه ومن آذى اللــه فيوشــك أن يأخذه)) [2].

<154>

[1] قـال الحافـظ العـراقي في تخـريج أحـاديث منهـاج البيضـاوي: رواه الــدارقطني في الفضــائل، وابن عبــد الــبر في العلم من طريقــه من حديث جابر، وقال: هذا الإسناد لا تقوم به حجة، لأن الحارث بن غصــين مجهول، ورواه عبـد بن حميـد في مسـنده، وابن عـدي في الكامـل من رواية حمزة بن حمزة عن نافع عن ابن عمر بلفظ «بأيهم أخذتم» بـدل «بأيهم اقتديتم» وإسناده ضـعيف من أجـل حمـزة، فقـد أتهم بالكـذب، ورواه الـبيهقي في المـدخل من حـديث عمـر، ومن حـديث ابن عبـاس بنحوه من وجه آخر مرسلاً، وقال: متنه مشـهور وأسـانيده ضـعيفة ولم يثبت في إسناد. ورواه البزار من رواية عبد الرحمن بن زيـد العمي عن أبيه عن ابن المسيب عن ابن عمر، وقال: منكر لا يصح، وقال ابن حزم مكذوب موضـوع باطـل، وقـال الـبيهقي: وقـد روى بعض معنـاه. انظـر تخريج أحاديث المنهاج، مخطوط.

[2] رواه الترمذي في سننه رقم 3954 طبعة القاهرة.

بله الأحاديث الواردة في مناقب العشرة المبشرة، وفي مناقب فــرد فــرد من الخلفــاء الراشــدين بخصوصــهم، والســبطين، والعمين، وبعض أفراد آخرين، فأصحاب كهؤلاء يجب أن يكونــوا مطيعين منقادين لأوامر الله ورسوله، ومهتـدين بهـدى الكتـاب، ومتخلقين بأخلاق الرسول العظيم صلى الله عليه وســلم، ومن هدى الكتاب أن يكون لهم مشاورة في الأمـور الهامـة، كنصـب الخليفة، وحرب أهل الـردة، وجمـع القـرآن وغيرهـا، وقـد قـال تعـالى ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ [1] فـإذا شـاوروا وتقـرروا أي الجميـع على شــيء، أو وافــق عليــه الأكثريــة، وعملــوا بــذلك الشيء، فقد أطاعوا الله ورسوله في ذلك الأمـر، ويكـون ذلـك الأمر هو الحقيق بالقبول الواجب إتباعه إلى يوم الدين.

ونتيجـة تلـك المقـدمات أن مـا درج عليـه الخلفـاء الراشـدون وجمهور الصحابة الكرام، هو الدين المـبين الـواجب إتباعـه، فلا مجال للوم أحد عليهم أبداً، ولا محيد إلا الالتزام لما قرروه، بـل ويجب الترضي عنهم فرضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

---

[1] سورة الشورى، الآية 38.

ومن محبته صلى الله عليه وسلم محبة علماء دينه

المداومين على نشره والقائمين بنصره بالمعنى الشامل للقراء والحفاظ والمحدثين والأئمة المجتهدين وباقي العلماء العـاملين رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

سـواء كـان ذلـك العلم من صـميم الـدين كعلم قـراآت القـرآن الكـريم وتجويـدهما، وعلم السـنة النبويـة روايـة ودرايـة، وفقـه الأحكـام، أو ممـا يتوقـف عليـه فهمـه كعلم اللغـة، والنحـو، والصرف، ووضع المفردات والمركبات، والبلاغة، وأصول الدين، وأصول الفقه، أو مما يتوقف عليه وضـوح الحـق في التعـاريف والأدلة كعلم المنطق، وآداب البحث والمناظرة وغيرها مما هـو مدون ومدروس في المدارس الدينية.

ومعنى محبتهم النظر إليهم بالاحترام والإجلال، هو تأييـدهم في حياتهم لإنجاز مهمتهم، والدعاء لهم بعد وفـاتهم، ذلـك لأن تلـك العلوم مما يتوقف عليها فهم الدين الواجب، ومـا يتوقـف عليـه الـواجب واجب، وحسـبك في الموضـوع الآيـات البينـات، والأحاديث الصحاح الواردة في تشريف العلم وأهله، وذلك كلـه معلوم لا حاجة لنا إلى الإطالة به، وإنما المهم هنـا إلفـات نظـر المسلمين إلى الاجتهاد والمجتهدين، وإتباعهم في أحكام الدين.

وإليكم نبـذة في الموضـوع، وهي أمـور: تعريـف الاجتهـاد والمجتهد، وما يتوقف عليه الاجتهاد، ووجوب الاقتـداء بالمجتهـد ممن لم يبلغ درجة الاجتهاد.

فنقول: الاجتهاد لغـة: بـذل الجهـد والسـعي الحـثيث في الأمـر، وعرفــاً: اســتفراغ مــا في الوســع لفهم الأحكــام الشــرعية واستنباطها من الأدلة كالكتاب والسنة والإجماع.
وممــا يجب علمــه أن الاجتهــاد في أحكــام الــدين واجب على الكفاية، إذا كان هناك جمع ممن يتأتى منهم ذلك، وواجب عيني إذا تعين شخص له.
والـدليل عليـه أمـور: الأول: أن الـدين أحكـام كثـيرة لاتحـدٍ ولا تستقصى، فلولا الاجتهاد لتعطلت الأحكام وذلك ممتنع شرعاً.
فإن قـال قائـل: إن الـدين أحكـام محـدودة منصوصـة بالكتـاب والسنة فلا حاجة إلى الاجتهـاد والمجتهـد. قلنـا: أن ملـة خالـدة مؤبـدة، جـاء بهـا خـاتم الأنبيـاء والمرسـلين المبعـوث رحمـة للعالمين لكافة الشـعوب والقبائـل، وأمـة كهـذه الأمـة الخالـدة تتطـــور كســـائر الأمم بحســـب الضـــروريات والحاجيـــات والتحسـينيات، وتصـادف وقـائع ليسـت أحكامهـا منصوصـة في الكتاب، ولا ظـاهرة بسـهولة منـه، ولا من السـنة، ووجـود هـذه الوقـائع، ووجـوب معالجتهـا معلـوم عنـد كـل عاقـل لـه خـبرة بالأمور، فأصبح الاجتهاد لاستنباط الأحكام غير المنصوصة فرض كفاية، إذا كان هناك جماعة يمكنهم القيام بــه، وفــرض عين إذا انحصر العلم في واحد.
الثاني: أن أدلة الأحكام: إمـا من الكتـاب، أو من السـنة النبويـة قولاً أو فعلاً أو تقريراً، والدليل اللفظي إذا كان

قطعي الثبوت كالكتاب والسنة المتـواترة، فيحتـاج إلى تحقيـق أن اللفظ خاص يراد به خـاص، أو علم يـراد بـه عـام، أو خـاص يراد به عام، أو عام يراد به الخـاص، وإلى تحقيـق أنـه كمـا لـه منطوق فهل له مفهـوم أو لا، وهـل يحتج بـذلك المفهـوم أو لا؟ وكل ذلك يحتاج إلى الاجتهاد.

وقد يكون في ألفاظ الكتاب والسنة اشتراك لفظي، وذلـك إمـا في المفرد كالقرء المشترك بين الحيض والطهر، وصيغة الأمـر المشتركة بين الوجوب والندب، والنهي المشـترك بين التحـريم والكراهة، وأما في المركب كالاستثناء الواقع بعد جمل محتمـل لرجوعه إلى جميعها أو إلى بعضها.

وقد يحتمل اللفظ لأن يكون حقيقة أو مجاز، والمجاز لـه أنـواع كثيرة، وقد يكون اللفظ مطلقاً، وقد يكون مقيـداً، كالرقبـة في الكفارة، وقـد يقـع تعـارض بين دليلين في الألفـاظ الـتي يتلقى منها الأحكـام، وفهم الحكم المشـروع القـوي يحتـاج إلى مزيـد علم وبصيرة لا يوجدان إلا في المجتهـد، هـذا كلـه في المتـواتر وأما غيره ففيه ما سبق ومشاكل أخرى من حيث السند وغيره.

وإذا كان الدليل فعل الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد ينازع الخصم بأن ذلك الفعل من خصائصه صلى الله عليـه وسـلم، أو أنه يحتمل الوجوب أو الندب، وقد يعارضه فعل آخـر صـدر منـه صـلى اللـه عليـه وسـلم، أو قيـاس جلي، والخـروج من هـذه المشاكل لا يمكن من غير المجتهد.

وإذا كان الدليل تقريراً من الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك أيضاً يحتمل وجوهاً وملابسات لا يتعين المقصود منها إلا برجال الاجتهاد.

ومن أنصف علم أن كل عربي لا يفهم كل الآيات بكافة محتملاتها ومحتوياتها ولو كان مثقفاً، بل يحتاج إلى درس وعلم ومرونة. فمن هنا تتبين حاجة المسلمين إلى الاجتهاد ورجال الاجتهاد، ولذلك استمر الاجتهاد من الصدر الأول إلى قرون متتالية.

الرابع، ما دل على وجوبه من الكتاب فمنه قوله تعالى ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [1] فإن في الآية الشريفة إسناد العلم بخفايا الأمور ومعالجة المشاكل إلى أهل الاستنباط، وكشف الخفايا والدقائق من أولي الأمر العلماء والقادة من المسلمين.

ويدخل في ذلك الاجتهاد واستنباط الأحكام الشرعية الخفية من طيات الكتاب والسنة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام.

ومنه قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [2] ومعلوم عند أهل العلم أن

[1] سورة النساء، الآية 83.

[2] سورة التوبة، الآية 122.

التفقه مصدر باب التفعل، ويدل على الاعتماد والاكتساب بقـوة وصرف المهمة إلى كشف المهمة، ويشمل ذلك فهم كـل حكم من أحكام اللـه تعـالى مـأخوذ من كتـاب اللـهٍ أو سـنة رسـوله، بطريق الوضوح أو الخفاء، منطوقاً أو مفهومـاً، دلالـة أو إشـارة أو اقتضاء، وفيه الاجتهاد واسـتفراغ الوسـع لفهم الأحكـام وهـو الاجتهـاد، كمـا أن في الآيـة دليلاً على أن التعلم والاجتهـاد من فروض الكفاية، وأنه يجب أن يكون غرض المتعلم الواصـل إلى مقام العلم والإفادة نشر الـدين ونصـره لا الاسـتعلاء على بـني عصره وأمره.

ومنه قوله تعالى ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (1)

وفي الآية دليـل على وجـوب سـؤال النـاس أهـل العلم فيمـا لا يعلمونه، سواء متن النصوص، أو معناها، أو ما استنبط منها لأن المشتقات في الآية مطلقة، وهذه الآية من أوجز الآيات، وفيهـا دليل على أن الله لم يبعث ولم يرسل امـرأة ولا ملكـاً للـدعوة العامـة فـإن صـدرها ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾.. وأن سـؤال أهـل العلم واجب للاسترشـاد، وأن الحكم كلما كان أخفى كان أجـر السـؤال أعظم وأجـر الجـواب أوفى، وأن الاجتهاد هو غاية ما يصل إليه العباد.

ومنه قوله تعالى ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ <160>

---

(1) سورة النحل، الآية 43.

والآية تدل على حرمة مخالفة الإجماع، لأنه سبحانه وتعالى رتب الوعيد الشديد على المشاقة واتباع غير سبيل المؤمنين، وذلك إما لحرمة كل واحد منهما، أو حرمة أحدهما، أو حرمة الجمع بينهما، والثاني باطل إذ يقبح أن يقال من شرب الخمر وأكل الخبز استوجب الحد، وكذا الثالث لأن المشاقة محرمة ضم إليها غيرها أو لم يضم، وإذا كان اتباع غير سبيلهم محرماً كان اتباع سبيلهم واجباً، لأن ترك اتباع سبيلهم ممن عرف سبيلهم اتباع غير سبيلهم، ومعلوم أن سبيل المؤمنين هو الاجتهاد واستنباط الأحكام في ما لم يكن عليه نص من لدن عصر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا، عند من يقول باستمرار الاجتهاد، أو إلى انقطاعه عند من يقول بخلافه. فإن قيل: أن الآية الكريمة لا تدل على حجية الإجماع لأنا لا نسلم أن الجمع المعرف باللام للاستغراق والعموم، لجواز كونه للجنس، ولو سلمنا أنه للعموم، فلا نسلم أن إضافة السبيل إليه للعموم، لجواز كون الإضافة للعهد، بأن يراد منه سبيل معهود وهو الإيمان. قلنا: أن الظاهر المتبادر إلى الأذهان من استعمال الجمع المعرف، ومن إضافة ما أضيف إليه العموم، والتبادر علامة الحقيقة، فيكون خلافه مجازاً محتاجاً إلى القرينة المانعة عنه، والأصل عدمها، على أن حمل الجمع المعرف أو إضافة السبيل إليه على الجنس، يقتضي أن يكون مصير من خالف سبيل أي فرد من المؤمنين إلى جهنم، وذلك باطل قطعاً، فظهر <161>

حملهما على العموم والاستغراق، فيكون المعني، ومن سلك غير السبيل الذي سلكه كافة المؤمنين نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصلِهِ جَهَنَّمَ وذلك واضح لا شبهة فيه.

وخلاصة المعنى، أن سلوك سبيل عموم المؤمنين مرغوب، والانحراف عن سبيلهم كافة متوعد عليه، ومعلوم أنه لم يزل المؤمنون يجتهدون في استنباط الأحكام غير المنصوصة من لدن العصر الأول إلى ما شاء الله.

ولما كان سلوك سبيلهم خيراً، والانحراف عنه شراً، وجب أن يكون المراد بالمؤمنين العلماء لا الجهلاء، والعلماء العدول لا الفساق، والمتكاملين في العلم لا الناقصين، فقرر أهل البصيرة للاجتهاد أن يكون صاحبه: بالغاً عاقلاً، فقيه النفس أي شديد الفهم، حائزاً للدرجة الوسطى لغة وعربية وأصولاً وبلاغة، عالماً بأدلة الأحكام من الكتاب والسنة، خبيراً بمواقع الإجماع، والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، وشروط الخبر المتواتر والآحاد، والحديث الصحيح والحسن والضعيف. ويكفي في زماننا الرجوع إلى أئمة ذلك بملاحظة الكتب المعتمدة. ويعتبر للثقة بأحكامه أن يكون عادلاً غير مبتدع داع إلى فئة معينة، لأن الدعاة متحيزون غالباً فلا يؤمن الدس منهم، وهذا هو المجتهد المطلق. وأما المجتهد المقيد فهو المقلد لإمام من الأئمة قد عرف أصول مذهبه وأحاط بها، فإذا سئل عن حادثة نظر في نصوص أمامه كنظر المجتهد في أصول الشرع، فإن لم يجد لإمامه في المسألة نصاً قاس على أصوله، وخرج عليها، كبعض أصحاب الأئمة

الأربعة، ولا يتعدى نصوص إمامه إلى نصوص غيره.
وهـذا المجتهـد المقيـد قسـمان: مجتهـد مـذهب، وهـو المتبحـر المذكور المتمكن من استنباط الأحكام من الكتاب والسنة لكن يتقيد في استنباطه منهما، بالتزام طريق إمامــه في الاســتدلال ومراعاة قواعده وشروطه، وبهذا يفارق المجتهد المطلق، فإنه لا يتقيد إلا بما رآه هو نفسه. والثاني مجتهد الفتيا (بضـم الفـاء) أو الفتوى (بفتحها) وهو المتبحر في مذهب إمامــه المتمكن من ترجيح قوله له على آخر أطلقهما إمامه، أو المتمكن من ترجيح قول أصحاب ذلك الإمام على قول آخر أطلقوهما. والأول أعلى رتبة من الثاني وهو ظاهر.
وهنــا مســائل: الأولى – اختلــف الأصــوليون في جــواز تجــزؤ الاجتهاد، والصحيح الذي عليه الأكثر جواز تجزؤ الاجتهاد بأنواعـه الثلاثة في فن من الفنون أو في قضية من القضايا، فيبلـغ رتبـة الاجتهاد في الأنكحة دون البيوع وبالعكس، فمن عرف الفرائض لم يضره جهله بعلم النحو مثلا.
وكذا يجوز أن يبلغ رتبـة الاجتهـاد في قضـية دون غيرهـا، ووقـع لابن القاسـم وغـيره في مسـائل معـدودة خـالفوا فيهـا الإمـام مالكاً رحمه الله تعـالى، وقيـل لا يجـوز تجـزؤ الاجتهـاد لارتبـاط العلوم والمسـائل بعضـها ببعض، لاحتمـال أن يكـون في مـا لم يبلغ رتبة الاجتهاد فيه معارض لما بلغهـا فيـه، بخلاف من أحـاط بالكل.

المسألة الثانية – اختلف الأصوليون في جواز اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم في ما لا نص فيه وعـدم جـوازه، وعلى جـوازه اختلف أيضاً هل وقع منه أم لا.
أمـا الجـواز ففيـه مـذاهب: الأول، الجـواز وبـه قـال الجمهـور وصححه ابن الحاجب والسبكي والقـرافي. والثـاني، المنـع وبـه قـال بعض الشـافعية. الثـالث، لـه ذلـك في الآراء والحـروب. والرابع، الوقف.
وأما الوقوع ففيـه مـذاهب: أحـدهما، وهـو مختـار الآمـدي وابن الحاجب وابن السبكي أنه وقع منه الاجتهاد.
المسألة الثالثة – هي أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا اجتهـد فالصـواب أنـه لا يخطئ تنزيهـاً لمنصـب النبـوة عن الخطـأ في الاجتهـاد على مـا هـو الحـق والمختـار ومـذهب المحققين من الأصوليين.
المسألة الرابعة – في جواز الاجتهاد من غيره في عصره صـلى الله عليه وسلم، فذهب الأكثرون إلى جوازه، فمنهم من جـوزه مطلقـاً، ومنهم من جـوزه للغـائب مطلقـاً، ومنهم من جـوزه مطلقـاً إذا لم يوجـد منـه منـع، ومنهم من جـوزه للغـائب إلى مسافة يصعب الرجوع منها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي وقوعه مذاهب: أوله، أنـه واقـع في حضـوره وغيبتـه وهـو الصحيح، والأحاديث الواردة في جوازه ووقوعه كثيرة جداً يفيـد مجموعها التواتر المعنوي المفيد للقطع، فمن الأحاديث الواردة في وقوعه بحضرته صلى الله عليه وسلم

ما رواه البخاري عن أبي قتادة الأنصاري أنه قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عام حنين فلما التقينا كانت للمسلمين جولة فرأيت رجلاً من المشركين قد علا رجلاً من المسلمين، فاستدرت له حتى أتيته من ورائه، فضربته على حبل عاتقه ضربة قطعت الدرع، قال: وأقل عليّ فضمني ضمة وجدت منها ريح الموت فأدركه الموت، فأرسلني فلحقت عمر بن الخطاب فقلت له: ما بال الناس؟ قال: أمر الله عز وجل، ثم إن الناس قد رجعوا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل قتيلاً عليه بينة فله سلبه، قال أبو قتادة: فقمت فقلت من يشهد لي ثم جلست، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك، فقمت فقلت من يشهد لي إلى المرة الثالثة فقال النبي صلى الله عليه وسلم: مالك يا أبا قتادة فأخبرته فقال رجل من القوم صدق يا رسول الله وسلب ذلك القتيل عندي فأرضه مني فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه (لا ها الله ذا لا يعمد إلى أسد من أسود الله يقاتل عن الله وعن رسوله فيعطيك سلبه) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((صدق فأعطه قال أبو قتادة فأعطانيه)) [1] الحديث.. ومعنى تصديقه لأبي بكر تصويبه للحكم الصادر منه بحضرته صلى الله عليه وسلم ومعنى (لا ها الله ذا) الهاء مكان الواو ومعناه لا والله لا يكون ذا وفي رواية لا ها الله إذا لا يعمد.
ومنها ما أخرجه البخاري أيضاً من قوله صلى الله عليه وسلم

[1] أخرجه البخاري في كتاب المغازي وفيه بدل «صدق فأعطه» فقام رسول الله فأداه إلي. انظر القسطلاني (6/406-407).

((لايصلين أحد العصر إلا في بني قريظة)) فصـلى بعضـهم في الطريق حين دخل عليه الوقت وبعضهم في بني قريظة، فنظـر بعضهم إلى أن مراده عليه الصلاة والسلام السـرعة، ولا حاجـة في تـأخير الـوقت، وبعضـهم راعى اللفـظ، ولم يعنـف واحـداً منهم. ومنها ما أخرجه مسلم وأحمد عن أبي هريرة قـال: أتيت النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم فأعطـاني نعليـه وقـال ((اذهب بنعلي هاتين فمن لقيته من وراء الحائط يشهد أن لا إله إلا اللـه مستيقناً بهـا قلبـه فبشـره بالجنـة)) فكـان أول من لقيت عمـر فقال: ما هاتان النعلان يا أبا هريـرة، فقلت: هاتـان نعلا رسـول الله صلى الله عليه وسلم بعثني بهما من لقيته يشهد أن لا إلــه إلا الله مستقيناً بها قلبه بشرته بالجنة، فضـرب بيـده بين ثـديي فخررت لأستي، فقال: ارجع يا أبا هريرة، فـرجعت إلى رسـول الله صلى الله عليه وسلم، فأجهشت بالبكاء، وركبني عمر، وإذا هو على أثـري، فقلت: لقيت عمـر وأخبرتـه بالـذي بعثتـني بـه، فضـرب بين ثـديي ضـربة خـررت لأسـتى، وقـال: ارجـع فقـال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((يا عمـر مـا حملـك على مـا صنعت)) فقال: يا رسول الله أبعثت أبا هريـرة بنعليـك من لقي يشهد أن لا إله إلا اللـه مسـتيقناً بهـا قلبـه بشـره بالجنـة؟ قـال ((نعم)) قال: فلا تفعل فإني أخاف أن يتكل الناس عليها فخلهم يعملون، فقال صلى الله عليه <166>

وسلم ((فخلهم)) فإقراره صلى اللـه عليـه وسـلم لعمـر دليـل على تصويب رأيه واجتهاده، إذ لا يقر على باطل.
ومنها ما أخرجه أبو داود في باب الرجل يتطوع في مكانه الذي صلى فيه المكتوبة عن أبي رمثة قال: صـليت مـع النـبي صـلى الله تعالى عليه وسلم وقد كـان معـه رجـل قـد شـهد التكبـيرة الأولى من الصلاة، فصلى رسول اللـه صـلى اللـه تعـالى عليـه وسلم، فقام الرجل الذي أدرك التكبـيرة الأولى يشـفع، فـذهب عمر إليه: فأخذ بمنكبيه فهزه ثم قال: اجلس فإنه لم يهلك أهل الكتاب إلا أنـه لم يكن بين صـلواتهم فصـل فرفـع رسـول اللـه صلى اللـه عليـه وسـلم بصـره وقـال ((أصـاب اللـه بـك يـا ابن الخطاب)) [1].
ومنها ما رواه البخاري عن عائشة رضي الله تعـالى عنهـا دخـل عليّ قائف والنبي صلى الله عليه وسلم شاهد، وأسامة بن زيـد وأبوه زيد مضطجعان، فقال، أن هذه الأقـدام بعضـها من بعض، فسر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم وأعجبه، فقد سر النــبي صلى الله عليه وسلم حتى برقت أسارير جبهته من صـحة هـذا القياس [2] وموافقته للشرع، وكان زيد أبيض
<167>

---

[1] رواه أبو داود في سننه كتاب الصلاة (1/231).
[2] أخرجه البخاري في كتاب الفرائض. انظر القسطلاني (9/446-447)

وابنه أسامة أسود، فألحق هـذا القـائف الفـرع بنظـيره وأصـله، وألغى وصف السواد والبياض الذي لا تأثير لــه في الحكم، ومن ذلك موافقات عمر رضي الله عنه الكثيرة.

فمنهـا مـا رواه الشـيخان عن أنس وابن عمـر، أن عمـر قـال وافقني ربي في ثلاث: قلت: يا رسول الله لو اتخـذنا من مقـام إبراهيم مصلى فنزلت ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـمَ مُصَلّٗى﴾ [1].

وقلت: يـا رسـول اللـه يـدخل على نسـائك الـبر والفـاجر، فلـو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب.

واجتمع نساء النبي صلى اللـه عليـه وسـلم في الغـيرة، فقلت: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن فنزلت كـذلك [2]، إلى آخر موافقات عمـر الكثـيرة الـتي خصـها بعض العلمـاء بالتأليف وبعضهم أنهاها إلى خمسة عشر.

وأخرج أحمد وأبو حـاتم والترمـذي وصـححه عن أبي هريـرة أن رسول الله صلى الله عليـه وسـلم قـال ((إن اللـه جعـل الحـق على لسان عمر وقلبـه)) [3] وفي روايـة ((إن اللـه جعـل الحـق على قلب عمر ولسان عمر)) فهذا دليل على أنه مجتهد

---

[1] سورة البقرة، الآية 125.

[2] أخرجـه البخـاري في كتـاب الصـلاة بـاب مـا جـاء في القبلـة. انظـر القسطلاني (1/417) وكرره في (7/13-14).

[3] انظر الترمذي رقم 3683 طبعـة حمص وعنـد ابن ماجـة بلفـظ «إن الله وضع الحق على لسان عمر» رقم 108 (1/40). وناظر التـاج في فضائل عمر (3/279).

مصيب في اجتهاده، إذ لا معنى لجعل الحق على لسان عمر وقلبه، إلا بالاجتهاد إذا لا سبيل للوحي، ولم يبق إلا الاجتهاد.

وأخرج الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر)) [1] قال التوربشتي: المحدث في كلامهم هو الرجل الصادق الظن، وهو في الحقيقة من ألقى في روعه شيء من قبل الملأ الأعلى فيكون كالذي حُدث، فدل الحديث على أن عمر له اجتهاد، وإنه مصيب فيه.

ومما وقع فيه اجتهاد الصحابة في زمنه في غيبتهم عنه، وهو حجة لقول القائل بجوازه ووقوعه في غيبته ما روى البخاري بعضه معلقاً، ورواه بتمامه موصولاً أبو داود والحاكم عن عمرو بن العاص قال: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأشفقت أن أغتسل فأهلك، فتيممت ثم صليت بأصحابي الصبح فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال ((يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب)) فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال، وقلت إني سمعت الله تعالى يقول ﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴾ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئاً [2]. وفي رواية لم يعنفه على اجتهاده فكان ذلك تقريراً منه صلى الله عليه وسلم له على اجتهاده.

[1] أخرجه البخاري في الفضائل، انظر القسطلاني (5/15).

[2] أخرجه البخاري في كتاب التيمم. انظر القسطلاني (1/378) ومسند الإمام أحمد (3/481)، وسنن أبي داود في كتاب الطهارة (1/81).

ومن ذلك أيضاً ما رواه الترمذي وأبـو داود وابن ماجـة عن علي بن أبي طالب قال: بعثني رسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم إلى اليمن قاضياً، فقلت: يا رسـول اللـه ترسـلني، وأنـا حـديث السـن، ولا علم لي بالقضـاء. فقـال ((إن اللـه سـيهدي قلبـك ويثبت لسـانك، إذا تقاضـى إليـك رجلان، فلا تقض للأول حـتى تسمع كلام الآخر، فإنه أحرى أن يتبين لك القضـاء)) قـال فمت شككت في قضاء بعد [1]. قال في المرقاة ولا شـك أنـه رضـى الله تعالى عنه حين بعثه قاضياً على اليمن، كان عالماً بالكتـاب والسنة كمعاذ رضي الله عنه، وقوله: وأنا حديث السن، اعتـذار من اسـتعمال الفكـر واجتهـاد الـرأي من قلـة تجاربـه، ولـذلك، أجابـه بقولـه سـيهدي قلبـك، أي يرشـدك إلى طريـق اسـتنباط القياس بالرأي الذي محله قلبك، فينشرح صدرك ويثبت لسانك فلا تقض إلا بالحق.

ومن ذلك ما رواه أحمد بن حنبل في المناقب عن زيد بن أرقم قـال: أتى علي بثلاثـة نفـر وقعـوا على جاريـة في طهـر واحـد، فولـدت ولـداً فـادعوه، فقـال علي لأحـدهم: ((تطيب بـه نفسـاً لهذا)) قال لا. قال أراكم شركاء متشاكسـين، إني مقـرع بينكم فمن أجابته القرعة، أغرمته ثلثي القيمة وألزمتـه الولـد، فـذكرا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ما أجد فيها إلا ما قـال علي.

[1] رواه الترمـذي رقم 1331 طبعـة حمص. ورواه ابن ماجـة في سـننه رقم 2310 (ج2/774). وأبو داود في سننه (2/270).

وفيه في المناقب أيضاً عن جميل بن عبد الله بن يزيد المدني قال ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم قضاء قضي به علي فأعجبه وقال ((الحمد لله الذي جعلن فينا الحكمة أهل البيت)).
وفيه في المناقب أيضاً عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه إلى اليمن فوجد أربعة وقعوا في حفرة حفرت ليصطاد فيها الأسد سقط أولاً رجل، فتعلق بآخر، وتعلق الآخر بآخر حتى تساقط أربعة، فجرحهم الأسد، وماتوا من جراحاته، فتنازع أولياءهم حتى كادوا يقتتلون، فقال علي: أنا أقضي بينكم فإن رضيتم فهو القضاء، وإلا حجزت بعضكم عن بعض، حتى تأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقض بينكم. اجمعوا من القبائل الذين حفروا البئر ربع الدية، وثلثها، ونصفها، ودية كاملة: فللأول ربع الدية لأنه أهلك من فوقه، وللذين يليه ثلثها، لأنه أهلك من فوقه، وللثالث النصف، لأنه أهلك من فوقه، وللرابع الدية كاملة. فأبوا أن يرضوا، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلقوه عند مقام إبراهيم، فقصوا عليه القصة. فقال أنا أقض بينكم واحتبى ببرده فقال رجل من القوم: إن علياً قضى بيننا فلما قصوا عليه القصة أجازه صلى الله عليه وسلم.
ومن ذلك ما رواه أبو داود والترمذي والدارمي عن معاذ بن جبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يبعثه إلى اليمن قال له ((كيف تقضي)) قال أقضي بكتاب الله،

قال ((فإن لم تجد)) قال فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال ((فإن لم تجد في سنة رسول الله ولا في كتاب الله)) قال أجتهد برأيي ولا آلو. فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره وقال ((الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضاه الله)) [1].

وتكلم الجوزقاني في هذا الحديث وقال إنه باطل. رواه جماعة من شعبة وسألت من لقيته، من أهل العلم بالنقل عنه فلم أجد له طريقاً غير هذا. والحرث بن عمرو هذا مجهول، وأصحاب معاذ من أهل حمص لا يعرفون، لأن الحديث رواه شعبة عن أبي عون عن الحرث بن عمرو ابن أخي المغيرة بن شعبة عن أناس من أهل حمص، أصحاب معاذ بن جبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد... الحديث. ومثل هذا الإسناد لا يعتمد عليه في أصل من أصول الشريعة.

وقد تكلم عليه ابن القيم في أعلام الموقعين عن رب العالمين، بما فيه كفاية فقال: هذا الحديث وإن كان عن غير مُسمّين، فهم أصحاب معاذ، فلا يضره ذلك لأنه يدل على شهرة الحديث: وأن الذي حدث به الحرث بن عمرو عن جماعة من أصحاب معاذ لا عن واحد منهم، وهذا أبلغ في الشهرة من أن يكون واحد منهم لو سمي، كيف وشهرة أصحاب معاذ بالعلم والدين والفضل والصدق بالمحل الذي لا يخفى؟ ولا يعرف في أصحابه متهم ولا كذاب ولا مجروح، بل أصحابه من أفاضل المسلمين

[1] رواه الترمذي رقم 1327طبعة حمص، وأبو داود في كتاب القضاء السنن (2/272).

وخيارهم، لا يشـك أحـد من أهـل العلم بالنقـل في ذلـك، كيـف وشعبة حامل لواء هذا الحديث؟ وقد قال بعض أئمة الحديث إذا رأيت شعبة في إسناد حديث فاشدد يدك عليه اهـ.
قال أبو بكر الخطيب: وقد قيـل أن عبـادة بن السـني رواه عن عبـد الـرحمن بن غنم عن معـاذ وهـذا إسـناد متصـل ورجالـه معروفون بالثقة وله شواهد موقوفة عن عمر بن الخطاب وابن مسعود وزيـد بن ثـابت وابن عبـاس وقـد أخرجهـا الـبيهقي في سـننه عقب تخريجـه لهـذا الحـديث تقويـة لـه كـذا في مرقـاة الصعود، على أن أهل العلم قد نقلوه واحتجوا به، فوقفنا بــذلك على صــحته عنــدهم، وفي تــدريب الــراوي للســيوطي يحكم للحديث بالصحة إذا تلقاه الناس بالقبول، وإن لم يكن له إسـناد صـحيح، وقـال أبـو الحسـن الحضـار في تقـريب المـدارك على موطـأ مالـك: قـد يعلم الفقيـه صـحة الحـديث إذا لم يكن في سنده كذاب بموافقة آية من كتاب الله أو بعض أصول الشريعة فيحمله ذلك على قبوله والعمل به.
وقال أبو إسحاق الأسـفراني: تعـرف صـحة الحـديث إذا اشـتهر عند أئمة الحديث من غير نكـير منهم ونحـوه، لابن فـورك، وزاد إلى أن قال وأيضاً حديث معاذ هـذا أخرجـه أبـو داود في سـننه كمـا مـر ولم يتكلم فيـه بضـعف، وقـد قـال أنـه ذكـر في كتابـه (الصـحيح ومـا يشـبهه ويقاربـه) ومـا كـان من حديثـه فيـه وهن شديد يبينه، وإذا لم يبينه فهو صالح للاحتجاج به <173>

وبعضه أصح من بعض، وما سكت أبو داود عليه، فهو حسن عند ابن الصلاح وقال: إن ذلك لا يلزم بل قد يكون صحيحاً عنده هو، وإن لم يبلغ الصحة عند غيره، فالحكم له بالحسن لا بالصحة تحكم آهـ. وله من الشواهد الموصلة له إلى رتبة الصحة شيء لا ينتهي، فمنها ما مر من اجتهادات الصحابة بحضرته صلى الله عليه وسلم وإمضائه لذلك، ومنها غيرها مما سنذكره إن شاء الله تعالى. <174>

وجوه الاجتهاد على من كانت له أهليته

وإذ قد علمت ما تلونا عليك، فاعلم أنه قال القرافي في التنقيح، مذهب مالك وجمهور العلماء رضي الله عنهم وجوب الاجتهاد بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وحكمه الوجوب الكفائي، وقد يتعين، وذلك لقوله تعالى ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [1] أي غاية جهدكم، ومن التقوى العمل على البصيرة فيه ومعرفة دليله، وذلك متعين في من جاد حفظه، وحسن إدراكه، وطابت سجيته وسريرته، ومن لا، فلا. وخلاصته إن من حاز على الشروط السابقة، وجب عليه الاجتهاد وقد أخبر صلى الله عليه وسلم بحصول الأجر للمجتهد أصاب أو أخطأ.

فقد روي الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة عن عبد الله بن عمرو بن العاص وأبي هريرة قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد)) [2]، قال الخطابي: إنما يؤجر المخطئ على اجتهاده

---

[1] سورة التغابن، الآية 16.

[2] أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام. انظر القسطلاني (10/343) ومسلم في كتاب الأقضية عن عمرو بن العاص، شرح النووي في هامش القسطلاني (7/269)، والترمذي السنن رقم 1326 طبعة حمص والنسائي عن أبي هريرة في كتاب آداب القضاء (8/223-224) وابن ماجة في كتاب الأحكام رقم 2314. وأبو داود السنن (2/268).

في طلب الحق، لأن اجتهاده عبـادة ولا يـؤجر على الخطـأ، بـل يوضع عنه الإثم فقـط. وهـذا في من كـان جامعـاً لآلـة الاجتهـاد عارفاً بالأصـول عالمـاً بوجـوه القيـاس. فأمـا من لم يكن محلاً للاجتهاد فهو متكلف، ولا يعذر بالخطأ بل يخاف عليه الوزر.

ويدل عليه ما رواه الأربعة والحاكم عن بريدة قال: قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم ((القضاة ثلاثة واحد في الجنة واثنان في النار، فأما الذي في الجنة فرجـل عـرف الحـق فقضـي بـه ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار ورجـل قضـى للناس على جهل فهو في النار)) [1].

ويـدل على وجـوب الاجتهـاد قولـه تعـالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ﴾ فإن معنى إطاعة الله تعالى العمل بنصوص كتابه، وإطاعة الرسول العمل بنصوص كلامه، وإطاعـة أولي الأمـر إذا كـانوا من الأمـراء للمسـلمين العمـل بـأوامرهم ونواهيهم الصادرة إذا كـانت موافقـة للكتـاب والسـنة وإذا كـان المراد بهم الأئمة والعلماء فالعمل بما وجهوه إلينـا من نصـوص الكتـاب والسـنة، وأحكـامهم الاجتهاديـة. ومعـنى الـرد إلى اللـه وإلى الرسول عند التنازع استعمال الـرأي من أصـحاب العلـوم والإدراكات في قياس محل النزاع على ما علم من <176>

[1] أخرجه أبـو داود في السـنن كتـاب الأقضـية (2/268) والترمـذي في السنن رقم 1322 طبعة حمص.

الدين، والأخذ بالأشباه والنظائر، كما جرت عليه المسلمون من السابق إلى اللاحق، فإن اجتهادات الخلفاء الراشدين وعلماء الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين، قد وفت بأحكام الإسلام للعالمين، فنوروا واستناروا، وأفادوا وأجادوا، وجعلوا المسلمين في أنوار تلمع بين أيديهم وأيمانهم، واطمأنت القلوب واستقرت النفوس الطاهرة المستضيئة بأنوار الإسلام والدين، وذلك مصداق قوله سبحانه وتعالى ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. <177>

وجوب التقليد على من لم تكن له رتبة الاجتهاد

والتقليد وهو الأخذ بقول إمام من أئمة الدين بدون معرفة دليله استقلالاً، وهذا واجب على العامي للعالم بدليل الكتاب والسـنة والإجمـاع من أهـل القـرون الثلاثـة المشـهود لهم من الصـادق المصدوق بالخيريـة، وإجمـاع من بعـدهم إلا مـا شـذ من شـواذ الناس.

فمن الكتـاب قولـه سـبحانه وتعـالى ﴿وَمَـا كَـانَ الْمُؤْمِنُـونَ لِيَنفِـرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَـرَ مِن كُـلِّ فِرْقَـةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَـةٌ لِّيَتَفَقَّهُـواْ فِي الـدِّينِ وَلِيُنـذِرُواْ قَـوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُـوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1]، أمـر اللـه سـبحانه وتعـالى بالتفقـه في الـدين، وهـو العلم الراسـخ المفيـد للمسـلمين في إلقـاء النصـوص وتفسـيرها، وتفهيم المستنبطات وكفايـة المسـلمين بهـا وبإنـذار المتفقهين الناس الذين يرجعون إليهم، أي وتبشـيرهم، ولكن اقتصـر على الإنذار، لأنه على مغبة المعاصي ودفـع المفسـدة أهم من جلب المنفعة، كما ترجى بعد الأمرين من المسـلمين أن يحـذروا من عقابه سبحانه وتعالى وكفى به زاجراً عن المخالفة للمجتهـدين وداعياً لهم إلى إطاعتهم لمن كان لـه معرفـة بأسـلوب الكتـاب المبين.

ومنه قوله سبحانه ﴿أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[2] فإن أولي الأمر هم الأئمة الأعلام، على أكثر أقـوال المفسرين وإطاعتهم وإتباعهم في ما يلقونه إليهم من نصـوص الكلام ومن مستنبطات الأحكام.

---

[1] سورة التوبة، الآية 122.
[2] سورة النساء، الآية 59.

ومنه قوله سبحانه ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [1] فإن الآية بظاهرها يشمل سؤال الجاهل للعالم من متن الذكر إلى معناه ومفهومه ومستنبطاته وكل ما يستفاد منه إلى يوم الدين، لأن الأمر المقيد بالعلة يتكرر بتكررها كما لا يخفي على العاقلين.

ومن السنة السنية كثيرة فمنها قوله صلى الله عليه وسلم ما رواه ابن ماجة وأحمد وأبو داود والترمذي – إلا أن في رواية أحمد وأبي داود (صلى بنا) وليس في ابن ماجة والترمذي لفظ (صلى بنا) – بسند صحيح عن العرباض بن سارية قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فوعظنا موعظة بليغة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقيل: يا رسول الله وعظتنا موعظة مودع، فاعهد إلينا بعهد، فقال: عليكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبداً حبشياً وسترون من بعدي اختلافاً شديداً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة ((([2]. وفي رواية عنه قال وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله إن هذه لموعظة مودّع، فما تعهد إلينا. قال قد تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وعليكم بالطاعة وإن عبداً حبشياً فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قد انقاد)) [3].

[1] سورة النحل، الآية 43.

[2] رواه الترمذي في سننه رقم الحديث 2678 طبعة حمص. وابن ماجة في سننه رقم 42 (ج1/15-16). وأبو داود في سننه (2/506).

[3] أخرجه ابن ماجة في سننه رقم 23 (ج1/16).

والمــراد بالخلفــاء الراشــدين قيــل الأربعــة: أبــو بكــر، وعمــر، وعثمان، وعلي، لقولـه ((الخلافـة بعـدي ثلاثـون سـنة)) [1] وقـد انتهت بخلافة علي كرم الله وجهه والأشـهر السـتة الـتي مكثهـا الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما، لأنهم أفضـل الصـحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

وقيل هم ومن على سـيرتهم من أئمـة الإسـلام المجتهـدين في الأحكام، فإنهم خلفاء الرسول في إحياء الحق، وإرشاد الخلــق، وإعلاء الدين، وكلمة الإسلام.

ووصف الراشدين بالمهديين، لأنه إذا لم يكن مهتدياً في نفســه، لم يصلح أن يكون هادياً لغيره، لأنه يوقع الخلق في الضـلاة من حيث لا يشعر. وذكر سـنتهم في مقابـل سـنته لأنـه علم أنهم لا يخطئون فيما يستخرجون من سنته، أو أن بعضها مـا اشـتهر إلا في زمــانهم. وقــد علمت أن ســنة الخلفــاء الراشــدين، هي المشـاورة في مهمـات الأمـور، والعمـل بمـا انعقـد عليـه أهـل الشورى والاقتداء بنصوص الكتاب والسنة في ما وجدوها منهـا، والاجتهاد واستنباط الأحكام في ما لم يكن

[1] رواه الترمـذي بلفـظ [الخلافـة في أمـتي ثلاثـون سـنة] السـنن رقم 2227 طبعة حمص. ورواه أبو داود بلفظ [خلافـة النبـوة ثلاثـون سـنة] السنن (2/515).

فيه نص. وقد سمعت منا سابقاً مـواد اجتهـاد الخلفـاء وغـيرهم واقتـداء المسـلمين بهم. فالاجتهـاد اجتهـاد من الأئمـة العظـام، والاقتداء تقليد لهم واتباع والتزام وعمل بالأحكام، ومضت على ذلـك قـرون الإسـلام، وعقب الخلفـاء الراشـدين دور التـابعين الأعلام والمجتهـــدين العظـــام الـــذين ملـــؤوا الأقطـــار من مستنطبات الأحكام وتقرير قواعد تكفي لحفظ نظام الإسلام.
والمراد بالمحدثات في الحديث الشريف ما ليس لـه أصـل في الدين. وأما الأمور الموافقة لأصول الدين فغير داخلة فيهـا وإن أحدثت بعـده صـلى اللـه عليـه وسـلم، ويـدل على هـذا إضـافة السنة إلى الخلفاء، ومعلوم أن في سنتهم ما هـو محـدث بعـده صلى الله عليه وسلم كجمع المصحف وغيره وقد سـمى صـلى الله عليه وسلم جميع أمـورهم سـنة، ولـذا قـال النـووي: قولـه صلى الله عليه وسلم في الحديث ((كل بدعـة ضـلالة))[1] عـام مخصوص. قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام في آخـر كتـاب القواعد: البدعة إمـا واجبـة كتعلم النحـو لفهم كلام اللـه تعـالى ورسوله، وكتدوين أصول الفقـه، والكلام في الجـرح والتعـديل، وإما محرمة كمذهب الجبرية، والقدرية، والمرجئة، والمجسمة، ولكن الرد على هؤلاء من البدع الواجبة، لأن حفظ الشريعة من هذه البدع فرض كفاية، وإما مندوبة كأحداث الربط والمدارس، وكل إحسـان لم يعهـد في الصـدر الأول، وكـالتراويح بالجماعـة العامّة.
<181>

---

1) سبق تخريجه.

وإما مكروهة كزخرفة المساجد، وتزويق المصاحف عند الشافعية، وأما عند الحنفية فمباح. وإما مباحة كالتوسع في لذائذ المآكل والمشارب والمساكن وتوسيع الأكمام، وقد اختلف في كراهة بعض ذلك.

قال الشافعي رضي الله عنه ما أحدث مما يخالف الكتاب، والسنة، أو الأثر، أو الإجماع، فهو ضلالة، وما أحدث من الخير مما لا يخالف شيئاً من ذلك فليس بمذموم، وقد قال عمر رضي الله عنه في قيام رمضان (نعمت البدعة).

وأنت قد علمت ما ألقيناه عليك، وأقول: إن الله سبحانه أعلن في آيات كثيرة من كتابه الكريم، أن الخطاب مع أهل العقل، وأن الإرشاد لا ينفع إلا ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [1] وأن العقل يهتدي بنور الآيات والسنة النبوية إلى كل خير يستفاد ويستنبط منهما، ويحذر عن كل شر وضلالة تكون في طرف النقيض والمخالفة والمنافرة مع الإسلام.

وعلى ضوء هذا تعلم أن كل ما يتوقف عليه بقاء كيان الإسلام وإعلاء كلمة الله، فهو من الواجبات، وإن كل ما يخدم ذلك ولم يكن من المهمات فهو من المندوبات، وكل ما يضاد ذلك ويناقض محتواه، فهو من المحرمات، وكل ما لا يناسبه ولم يكن ينافره، فهو من المكروهات، وكل ما بين الأمرين، فهو من المباحات.

---

[1] سورة ق الآية 37.

وإذا شاقك أحد من المسلمين وادعى خلاف ذلك فقل له: إذا يكون تأليف أستاذك وجمعه لفتاواه ونشر رسائله في العالم وبث الأمور التي لم تكن في عهد الرسول بدعة وضلالة، فأولى بك أن تترك أنت أولاً ما تستمر عليه وترجع إليه، وبعد ذلك تهدينا إلى ما تميل إليه.

ونرجو من إخواننا وسادتنا وأبنائنا أن ينصفوا ويعتدلوا ويرجعوا إلى أعمال الصحابة في أسفارهم وفي غياب الرسول، وفي أعمال الخلفاء الراشدين بعده، وفي ما استمر عليه أعلام الأئمة والعلماء، وأن يقتدوا بجمهرتهم، فالإنسان من حقه أن لا يعدو عن حقائق ثابتة لا ينكرها المؤمن العالم المعتدل المنصف:

أولاً: إتباع القرآن الكريم، ثانياً سنة الرسول العظيم، ثالثاً التزام إجماع المسلمين، رابعاً إن لم يجد الإجماع فالاقتداء بالأكثرية الساحقة من المسلمين، فإن الدين واضح مستبين ولا غموض فيه، ويرشدك إلى هذا قوله تعالى ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [1]. وقوله صلى الله عليه وسلم ((لَا تجتمع أمتي على ضلالة)) [2]. نسأل الله سبحانه وتعالى أن يشملنا برحمته، ويفيض علينا من نعمته، وأن يرزقنا الاستقامة على اتباع دينه وشريعته برحمته إنه أرحم الراحمين.

---

[1] سورة آل عمران الآية 103.

[2] سبق تخريجه في ص 155.

محبة أمته

ومن محبته صلى الله عليه وسـلم محبـة أمتـه، والنصـيحة لهم، وإعانتهم، وخدمتهم بقدر المستطاع الأهم فالأهم، لاسـيما تأييـد قادة الأمة وأعيانها المختصين بمزيـد النفـع لحـوزة المسـلمين، ولاسيما الأغيان المختصـين بالفضـائل العلميـة، والأنـوار البهيـة الـتي تبـدو آثارهـا عليهم، من إتبـاع الكتـاب والسـنة السـنية، وفوائدهم للأمة المحمدية، ودعوتهـا إلى تـرك السـيئات، وفعـل الحسنات، ورفع آثار الشـقاق والنفـاق، وتوجيههـا إلى محاسـن الآداب والأخلاق. وقد عرفوا من سالف الزمان (بالأولياء)، وقــد جاهدوا في الله واجتهدوا ونصحوا وأرشدوا، وهم قوم لا يشـقى جليسهم، ويسعد أنيسهم، وتظهر آثار صـحبتهم مـع محبتهم في كــل من جــاورهم، وأخــذ الأدب منهم، بــالتخلي عن الرذائــل والتحلي بالفضــائل، والاســتقامة على الكتــاب وهــدي ســيدي المرســلين صــلى اللــه عليــه وســلم، وأولئــك هم الصــادقون المقصودون في قولـه تعـالى ﴿يَٰٓأَيُّهَـا ٱلَّذِينَ ءَامَنُـواْ ٱتَّقُـواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [1].

فــإن قــال قائــل: لا مزيــة لقــوم من الأمــة ولا اختصــاص، فــالمؤمنون كلهم مؤمنــون والنــاس نــاس فــأين هــذا المقــام والاختصاص؟

[1] سورة التوبة الآية 119.

قلنا: حقاً إن المؤمنين كلهم مؤمنون، ولكنك إن أنصفت علمت أن المؤمنين، وإن كانوا كلهم أصحاب الاعتقاد والعمل الصالح والتقوى ولكنهم مختلفون في درجاته، ولذلك قال سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [1] فإنه لو كان التقوى على درجة واحدة، ما كان يأتي في القرآن الكريم بصيغة التفضيل، وكما أنهم اختلفوا في التقوى، اختلفوا في الأعمال قال تعالى ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ [2] وقال ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ﴾ [3] وقال تعالى ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ [4] إلى آيات أخرى كثيرة.

فإنها تعلن على رؤوس الأشهاد أن بين المؤمنين فروقاً كثيرة في قوة الإيمان واستقامة الأعمال، وحسن الأخلاق والأحوال.

فالأمر الواضح الجلي، هو أن المؤمنين كلهم مؤمنون ومن أفراد أمة الإجابة لسيد المرسلين، ولكن هناك تفاوتاً كثيراً، ولذلك يقول تعالى ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [5]

(1) سورة الحجرات الآية 13.
(2) سورة التوبة الآية 102.
(3) سورة النساء الآية 95.
(4) سورة الحديد الآية 10.
(5) سورة الأحزاب الآية 23.

ويقول ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[1].

ويميز المستقيمين بميزات عالية فيقول ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾[2]، أي أنهم تنزل عليهم ملائكة الرحمة لتطمين قلوبهم بأنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأنهم أولياؤهم وأنصارهم وأحباؤهم، نتيجة استقامة أولئك الناس على الإيمان.

[1] سورة الزمر الآية 33.
[2] سورة فصلت الآية 30.

وقـرر اللـه سـبحانه أن من المؤمـنين أوليـاء للـه، وقـال ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [1] فجعلهم منحصـرين في المتقين وجعـل التقوى ميزة وشعاراً لهم.

وينبغي هنـا أن نعلم مـا هي التقـوى ومـا المـراد بـالمتقين؟

ومعلوم أن التقـوى من الوقايـة: وهـو الحـذر والخشـية وفـرط الصيانة، ويدل على ذلك آيات، قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [2] أي اخشوه، وقال تعالى ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [3] يعني ألا تخشون الله، وكذلك قال سادتنا:

---

[1] سورة الأنفال الآية 34.

[2] سورة النساء الآية 1

[3] سورة الشعراء الآية 106

هود، وصالح، ولوط، وشعيب لقومهم. وجاء في القرآن الكريم قول إبراهيم عليه السلام لقومه ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ [1] يعني اخشوه وكذا قوله تعالى ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [2] وقوله تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [3].

وحقيقة التقوى وإن كانت ما ذكرنا، إلا أنها جاءت في القرآن بمعنى الإيمان كقوله تعالى ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [4] أي التوحيد والإيمان، وقوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [5] أي للإيمان، وجاءت بمعنى الطاعة كقوله تعالى ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [6] أي فأطيعون، وفيها ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [7] أي تطيعون، ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ [8] أي فأطيعون، وجاءت بمعنى ترك المعصية، كقوله تعالى ﴿وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [9] أي فلا تعصوه، وجاءت بمعنى التوبة، كقوله تعالى ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ﴾ [10] أي آمنوا وتابوا، وجاءت بمعنى الإخلاص، كقوله تعالى في سورة

(1) سورة العنكبوت الآية 16.
(2) سورة آل عمران الآية 102.
(3) سورة البقرة الآية 48.
(4) سورة الفتح الآية 26.
(5) سورة الحجرات الآية 3.
(6) سورة النحل الآية 2.
(7) سورة النحل الآية 52.
(8) سورة المؤمنون الآية 52.
(9) سورة البقرة الآية 189.
(10) سورة المائدة الآية 65.

الحج ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [1] أي أن تعظيم شعائرها لله ناتج عن الإخلاص، وكذل قوله تعالى ﴿وَإِيَّيَ فَاتَّقُونِ﴾ [2] أي فأخلصوا لي.
وحاصل الكلام أن صفوة التقوى الحذر والوقاية عما يخالف رضاء رب العالمين، وذلك بالتقوى والحذر عن الكفر حتى يكون المتقي من المؤمنين، والوقاية عن فعل المحرمات وترك الواجبات، ليكون مواطناً عادلاً من المؤمنين، فتليق بأن يدخل في الذين وصفهم الله تعالى بأنهم شهداء على الناس يوم الدين. والوقاية عن الانهماك في حب الدنيا والدنايا، لأن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها، وبذلك نتعلق بذاته وصفاته في حب الله رب العالمين، وبذلك ظهر أن ملاك التقوى ثلاث: تقوى عن الكفر، وتقوى عن المخالفات، وتقوى عن الدنايا والشهوات.
ومن هنا يتبين معنى التقوى ويظهر قول ابن عباس رضي الله عنه: إن المتقين هم الذين يحذرون من الله العقوبة في ترك ما يميل الهوى إليه، ويرجون رحمته بالتصديق بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى قالوا إن إصحاب الصغائر لا يدخلون في المتقين لأنه روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ((لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً عما به البأس)) [3].
<189>

[1] سورة الحج الآية 32.
[2] سورة البقرة الآية 41.
[3] رواه الترمذي في صفة القيامة عن عطية السعدي بروايتين رقم الحديث 2453. ورواه ابن ماجة في الزهد عن عطية أيضاً بلفظ «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين» رقم الحديث 4215.

وإذا علمت انحصـــــار الأوليـــــاء في المتقين، وأن المتقين هم الموصوفون بالأوصاف المذكورة، علمت أن أولياء الله قوم من المؤمنين بالأوصاف المـذكورة، علمت أن أوليـاء اللـه قـوم من المؤمنين قـائمون على قـدم العبوديـة الخالصـة للـه، وأنهم هم الذين قـال سـبحانه وتعـالى في حقهم ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [1].

وهم الذين جعلهم الله تعـالى في كنـف حمايتـه ورعايتـه يحبهم ويحبونه، رضاهم في رضاه، وهواهم تابع لدينـه وهـداه، فيعـادي من عـــاداهم، ويـــوالي من والاهم، وعليـــه مـــا ورد من حـــديث البخاري الصحيح، عن أبي هريرة رضـي اللـه تعـالى عنـه قـال: قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم أن اللـه عـز وجـل قـال ((من عادى لي ولياً فقد آذنته بـالحرب، ومـا تقـرب إليّ عبـدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليـه، ومـا يـزال عبـدي يتقـرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصـره الـذي يبصـر بـه، ويـده الـتي يبطش بهـا، ورجلـه الـتي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، وبئن اسـتعاذني لأعيذنـه، ومـا ترددت عن شيء أنـا فاعلـه، تـرددي عن نفس عبـدي المـؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته)) [2].

وزاد عبد الواحـد بن ميمـون عن عـروة عن عائشـة عنـد أحمـد والبيهقي في الزهد «وفؤاده الذي يعقل به ولسانه الــذي يتكلم به» [3]

---

[1] سورة يونس الآية 62.

[2] أخرجه البخاري في الرقاق باب التواضع. انظر القسطلاني (9/289-290).

[3] هـذه الزيـادة أخرجهـا الطـبراني وأبـو يعلى وأبـو نعيم. انظـر شـرح الإتحاف السنية بالأحاديث القدسية ص 166.

وفي حديث أنس ((ومن أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً))، وهو مجاز وكناية عن نصرة العبد وتأييده وإعانته، حتى كأنه سبحانه ينزل نفسه من عبده منزلة الحواس التي يستعين بها.

وهذا الحديث الشريف القدسي فسره العلماء بأن العبد يتقرب إلى ربه بمزيد النوافل، حيث إنها ما أوجبها الله عليه، ولكنه يريد التقرب منه تعالى بمزيد طاعته، حتى تحصل رابطة لطف وعناية خاصة إلهية بالنسبة إليه، وعند ذلك لا يسمع إلا ذكره، ولا يلتذ إلا بتلاوة كلامه، وقراءة كتابه، ولا يأنس إلا بمناجاته، ولا ينظر إلا في عجائب ملكوته، ولا يمد يده إلا في ما فيه رضاه، ورجله كذلك. ولما حصلت هذه العلاقة باللطف دخل العبد في حظيرة القدس، فصار بحيث كل من مد يد الارتباط إليه أمده الله بإحسانه، وكل من مد يد العداء إليه قطع الله يده.

فانظر أيها المؤمن المثقف المنصف أن الأحكام التكليفية العامة تعم كل مكلف، وبأدائها يكونون ناجين داخلين في جنات النعيم، وأن فوق تلك الدرجة درجات يختصها برحمته من تجرد عن العلاقات المباينة لكمال العبودية، وتزود بعلاقات الإنس بحضرة القدس، فيترقون إلى حظيرة الاختصاص، والله ذو الفضل العظيم، فثبت من هذه الأدلة

الجلية من الكتاب والحديث القدسي أن للمؤمنين درجات، مع تحقق القدر المشترك بينهم.
ولذلك يشهد عليه الصلاة والسلام بخيرية القرون الثلاثة قرن الصحابة فالتابعين فتابع التابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وتنتهي شهادته هنالك، ولكنه يعلن ((أن مثل أمته مثل المطر لا يدري أوله خير أم آخره)) [1]. حتى يعلم أن باب الرحمة مفتوح وكل من أراد الدخول فيه على أساس عمله بما أتى به الرسوم الأكرام فلا مانع من دخوله والله الموفق.
وكشف سر ذلك هو أن الله سبحانه قد أعلن أنه غني عن العالمين، وأنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه، أي ليعرفوه فيعبدوه لتوقف العبادة على المعرفة. ومنذ خلق الإنس والجن ما تركهم مهملين، فجعل من رحمته رسالته وسيلة المعرفة والعبادة والوصول إليه، كما قال ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [2] وقال ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [3] وقال ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولًا﴾ [4]

[1] ذكره النووي في الفتاوى من رواية أبي يعلى وضعفه. وقال الزركشي: هذا عجب فإن الترمذي أخرجه عن قتيبة بن حماد... قال فيه يحيى بن معين: ثقة... وقد روي من حديث أنس. اللآلئ المنتثرة في الأحاديث المشتهرة. مخطوط. وذكره الحافظ الهيثمي وقال: حديث حسن له طرق. مجمع الزوائد (2/197-198).
[2] سورة فاطر الآية 24.
[3] سورة النساء الآية 165.
[4] سورة الإسراء الآية 15.

وقال ﴿ أَرسَلنَا رُسُلَنَا تَترَا﴾ [1] أي متعاقبين واحداًبعد واحد ووتراً بعد وتر، والمقصود التتابع والتعاقب فيهم.

وأما كيفية البعث والإرسال هو أنه اصطفى بفضله ورحمته الواسعة وموهبته المطلقة عباداً ممتازين لحمل رساله ﴿اللَّهُ أَعلَمُ حَيثُ يَجعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [2]، فجعلهم مظاهر للفيوضات الربانية، ومهابط للوحي الإلهي، وموارد للأنوار والبركات، حتى ختمهم بحضرة خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فكانوا حلقة الارتباط بين المعبود والعباد، يستفيدون ويفيدون، يسترشدون ويرشدون، ويستفيضون من أنوار القدس ويفيضون، فكان صدر الرسول مشروحاً بأنوار الله ولسانه وجوارحه وحواسه، بل ذرات وجوده منورة بالمواهب القدسية، وصار ينبوعاً للخيرات اعتقاداً وعملاً وأخلاقاً وأنواراً.

فأفاض على جميع العباد تعاليم الله سبحانه وتعالى بأقواله وأفعاله وتقريره وتنويره، وعم ذلك جميع المكلفين.

وماذا كان موقف المكلفين من ذلك؟ فمنهم من عاند ودخل في الكافرين، ومنهم من أجاب ودخل في المؤمنين،

---

[1] سورة المؤمنون الآية 44.

[2] سورة الأنعام الآية 124.

ومن المجيـبين من خلـط عملاً صـالحاً وآخـر سـيئاً فعسـى أن يشـمله اللـه برحمتـه وعفـوه ومغفرتـه، ومنهم من أطـاع حـق الإطاعـة ومـا قصـر بقـدر مـا لديـه من الاسـتطاعة فـدخل في المؤمــنين الملازمين لــبيوت ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [1].

ومنهم من ربى بنفسه وعلا بها إلى جانب قدسه باستمرار إتباع الرسول الكريم واقتدائه في كل نسيم وجسيم، وكسب محبتــه من حيث إنه المبعوث رحمة للعالمين، فأحبه الرسول وتشربت روحــه وقلبــه وقالبــه من زلال صــفاء صــفاته، وتنــورت ذرات وجوده من جمال سناء سماته، فصـار قبسـاً من نـور الرسـالة، ومستضـيئاً من ضـياء صـدره، ومتفانيـاً في تلبيـة حقيقـة أمـره وكان وجوده مرآة لوجود الرسول وصحبته مرفأ للوصـول، كـل ذلـك من صـحبته صـلى اللـه عليـه وسـلم ومحبتـه، فـوقر في صــدورهم وقــر من الأنــوار واســتقر في قلــوبهم لمعــات من الأسرار، فساقتهم إلى سلوك سبيل مجاهداته صلى اللــه عليــه وسـلم، سـواء من طريـق الرياضـة النفسـية والصـلاة والصـيام والتهجد والقيام، أو من طريـق الجهـاد بـالنفس والنفيس لإعلاء شأن الإسلام، أو من طريق الدعوة إلى حضـرة القـدس بتعليم الدين ونشر

<194>

[1] سورة النور الآية 36.

الأحكام، أو من طريق التفكر الروحي والنظـر في آلائـه تعـالى وكبريائه وفيضه على الأنام بأنواع الإحسـان والإكـرام، فوصـلوا إلى درجة وهبهم الله تعالى به رتبة خلافة سيد الأنام صلى اللـه عليه وسلم، لأنهم صاروا مظـاهر لأوصـاف الرسـول لا بطريـق العلم والارتسام، بل بطريق التحقق والاتصاف، إلا مرتبة النبوة والرسـالة، حيث كانتـا من الموهبـة لا من المكسـبة، مـع أنهم اقتبسوا منها بالخلافة عنه صلى الله عليـه وسـلم وراثـة التبليـغ إلا الأنام وإرشادهم إلى دين الإسلام أيضاً.

ولا يخفى على المسـلمين العـارفين بمنـاقب الصـدر الأول من المهاجرين والأنصـار رضـي اللـه تعـالى عنهم وأحـوال الخلفـاء الراشدين والسابقين من الأنصار والمهاجرين، وينكشف عندهم حـال أبي بكـر رضـي اللـه تعـالى عنـه في الأسـرار بالأذكـار، والتفديــة بالمــال والحــال والنفس في خدمــة دين الرســول المختار، وأنه مختار من سـائر إخوانـه بمـا وقـر في صـدره من المهابة والأنوار.

وحال عمر رضي الله تعـالى عنـه في الجهـر بالأذكـار ومراقبـة الحق في الليل والنهار، وصفاء قلبه وإصابة رأيه وموافقاته مـع وحي الله في عدة مواضع معروفـة عنـد العلمـاء الأبـرار، وأنـه صلى الله عليه وسـلم مـيزه عن غـيره بأنـه من الملهمين، وأن الحق معه، وأن الشيطان يخاف منـه ويسـلك غـير مسـلكه إلى آخر صفاته وخدماته للحق والدين.

وحـال عثمـان في التفديـة بمالـه واشـترائه الجنـة مـرتين، أي استحقاقه للفوز بالجنة جزاء لخدماتـه، وأنـه كـان يسـتحي منـه ملائكة الرحمن.
كما لا يخفي حال عليّ كرم الله وجهه في صفاته وذكائه وعلمه وقضائه، وفي علاقته بربه ورضاه، وملازمة مراقبته ربه وتقواه. والحاصل أنـه كـان لكـل منهم ومن حـاذى حـذوهم دأب خـاص ومنهج مخصـوص في التقـرب إلى اللـه وإتبـاع الكتـاب وسـنة الرسول ودعوة الناس إلى الله.
وعلى المنهج السابق مضى المسلمون قرنـاً فقرنـاً، وكـان في كل قرن بجنب المؤمنين العادلين قوم منهم مخصـوص بـأحوال خاصـة، ومحبـة نفسـية لرجـال المحبـة والولايـة في الصـدر السابق، وخلفوهم في ما اسـتخلفوهم فيـه، فلم يقصـروا بقـدر الإمكان، وخدموا الدين بقدر المستطاع والمناسبة، وكـان لكـل منهم حسـب مشـرب من صـحبه منهج خـاص في تربيـة المسـلمين بالطاعـة والأذكـار، وتنـوير قلـوبهم عن غبـار محبـة الشـهوات والأقـذار، وربطهم بالسـلف الصـالح من حيث التنـور بالأنوار، وذلك المنهج الخاص اشتهر في ما بعـد القـرون الثلاثـة باسم الطريقة فكان يقال: طريقة جنيد بن محمـد في التربيـة، وطريقـة فلان، وطريقـة فلان، إلى آخـره، كمـا يقـال طريقـة البخاري في رواية الأحـاديث الشـريفة وشـرطه من المعاصـرة واللقاء، وطريقة مسلم من المعاصرة وإمكـان اللقـاء وطريقـة فلان من رواية الصحاح فقط.

وكمـا يقـال: طريقـة أبي حنيفـة نعمـان بن ثـابت الكـوفي في استنباط الأحكام، وطريقة مالك في استناده بعمل أهل المدينة في نقل السنة النبويـة، وطريقـة الشـافعي، وطريـق أحمـد بن حنبل.

أو كما يقال: طريقة حفص في قراءة القرآن الكـريم، وطريقـة ورش، وغـيرهم، وهـذه الأسـامي والاصـطلاحات وإن لم تكن مـذكورة مشـهورة في الصـدر الأول، لكنهـا كلهـا من صـميم الإسلام، والخدمة النافعة لدين سيد الأنام عليه الصلاة والسلام.

ومن اعتـبر هـذه الأمـور من البـدع، فـإن أراد البدعـة اللغويـة فكلامـه واضـح، ولكن الكلام ليس في إتبـاع اللغـة ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [1].

وإن أراد معنى أنـه بدعـة وضـلالة في الـدين، فيلزمـه أن جمـع القـرآن، وكتابـة المصـاحف السـتة وإرسـالها إلى الأقطـار الإسلامية، وإعراب القرآن وتنقيطه، وتدوين الأحاديث الشريفة، وفتح المدارس لتعلمها، كل تلك الأمور المهمـة المقـررة لبقـاء الإسـلام من البدعـة والضـلالة، وحاشـا أن ينطـق مسـلم فـاهم مكلف بهذا الكلام.

---

(1) سورة البقرة الآية 31.

كرامات أولياء الله تعالى

وإذا علمت مـا تلونـا عليـك من اختصـاص جمـع من المؤمـنين بمزيد درجـات من اللـه سـبحانه، لإيمـانهم الراسـخ، وأعمـالهم الصالحة، وتقواهم المستمر الذين قال الله سبحانه وتعـالى في حقهم ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [1]، وفسـرت البشـرى بمـا بشـر اللـه بـه المتقين في كتابـه وعلى لسـان نبيـه صـلى اللـه عليـه وسـلم، ومـا يـريهم من الرؤيـا الصالحة، وما يمنح لهم من المكاشفات. وبشرى الملائكـة عنـد النزاع، وغـير ذلـك من المـواهب. فليعلم أنـه اسـتقرت عقيـدة المسلمين على ثبوت الكرامة لهم، والكرامة: أمر خارق للعادة تظهر على أيدي العباد المختصين باتباع الكتاب والسنة النبويـة، إكراماً لهم ورعاية لمقامهم.

والفرق بينها وبين المعجزة من وجوه:

الأول – أن المعجزة تظهر مع دعوة الرسالة مقرونـة بالتحـدي، والكرامـة لا تظهـر إلا على يـد من يتبـع الرسـول ولا تقـترن بالتحدي.

الثاني – أن المعجـزة يجب انفكاكهـا عن المعارضـة، والكرامـة يجوز معارضتها بما يماثلها، أو يكون أعلى منها من جهة خرقهـا للعادة.

[1] سورة يونس الآية 62 – 63 – 64.

الثـالث – أن الرسـل الكـرام مـأمورون بإظهـار المعجـزة، وأصحاب الكرامة لا يؤمرون بإظهارها، بل ويحبون إخفاءهـا، إلا إذا تعلق بها تأييـد شـأن الـدين كتثـبيت حكم شـرعي، أو تبكيت شخص من المخالفين، إلى غير ذلك.

ويـدل على ثبوتهـا أدلـة: من الكتـاب، والسـنة، والمعقـول. أمـا الكتاب فمنه قصة مريم عليها السلام قـال تعـالى ﴿كُلَّمَـا دَخَـلَ عَلَيۡهَـا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَـدَ عِنـدَهَا رِزۡقٗاۖ قَـالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَـكِ هَٰـذَاۖ قَـالَتۡ هُـوَ مِنۡ عِنـدِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَـآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾[1]. وجه الاستدلال أن حصول ذلك الـرزق عنـدها كـان أمـراً خارقـاً للعـادة، وكـل مـا كـان خارقـاً للعـادة ظـاهراً على شخصية كذلك فهو كرامة لها.

فإن قيل: ما الدليل على كون ذلك الـرزق شـيئاً خارقـاً للعـادة.

فالجواب أمور:

الأول – أن حصول ذلك الرزق عندها ذكر في مقـام إعلاء شـأن مريم ورفعة قدرها عند الله، وكل أمـر كـذلك فظهـوره كرامـة لصاحبه.

الثاني – دلالة غلبة الرجاء على سيدنا زكريـا عنـد اللـه، ودعائـه وطلبه من الله أن يرزقه (وهو شـيخ هـرم وأهلـه عجـوز) ولـداً يخلفه، فإنه لـو لم يكن مـا عنـد مـريم دالاً على مزيـد إحسـانه تعالى وإكرامه لها ما كان تتأكد داعية زكريا عليه السلام لدعائه وندائه ربه تعالى ذلك.

[1] سورة آل عمران الآية 37.

الثالث – دلالة تنكر الرزق في الآية على كونه شيئاً بديعاً عجيباً مخالفاً للمعتاد.
الرابع – ما دلت عليه الروايات من أن زكريا كان يجد عندها فاكهة الصيف بالشتاء، وفاكهة الشتاء بالصيف.
فإن قيل: ولم قلت أن كل أمر كذلك يكون كرامة لها، لم لا يجوز أن تكون معجزة لزكريا عليه السلام. فالجواب أنه لو كان معجزة له لكان عالماً به، ولم يسألها عن كيفية حصوله عندها، ولم يستغرب وجودها هنالك، وسياق الآية يدل على أن زكريا لم يكن عالماً به، بل استغرب وتعجب واطمأن قلبه من جوابها، ولذلك دعا هو بطلب ولد من إحسانه تعالى إليه.
فإن قيل: لعله: كان من خدمات بعض المسلمين لها إذ ذاك.
قلنا: قد علمت أن زكريا استغرب حصوله عندها، وتقديم بعض أهل الخير بعض الهدايا ليس بمستغرب.
ومن أدلته على الكرامة واختصاص بعض عباده بها فضلاً ورحمة، بقاء أصحاب الكهف مدة ثلاثمائة سنة وتسع سنين بدون عروض أي نقص وتفتت على أجسادهم الأمر المستحيل عادة، ولم يكن إذ ذاك رسول يتحدى بوضع كذلك، وإنما هو فضل وإحسان إليهم، وإرادة لظهور أمرهم في وقت ما، ليكون عبرة لأولي الأبصار، ودليلاً على قدرته لأهل الاعتبار.

ومن أدلته قضية صاحب سيدنا سليمان عليه السلام ونقل عرش بلقيس مع كبر حجمه، وبعد المسافة بآلاف الكيلو مترات في طرفة العين إلى محضره عليه السلام، وكانت كرامة لذلك الشخص الذي كان عنده علم من الكتاب ومعلوم أنه لم يكن ذلك العلم من العلوم المادية المعروفة بعلم جر الأثقال ونحوه، لأنها لم تصل قبل ذلك الوقت، وفي ذلك الوقت، وبعده إلى يومنا هذا الطور الذي تحصل به أمثال تلك العجيبة، كما أنه لم تكن معجزة صادرة من سيدنا سليمان مباشرة، لأنه لم يكن هنا تحد، ولو كان منه ما كان داع إلى طلب النقل من غيره، وليس في سياق الآية الكريمة دلالة على أنه كان من أعماله، فظهر أنه كان كرامة لصاحبه خصه الله بها إظهاراً لفضله بما آتاه من علم الكتاب، وأثراً من الآثار الروحية الخالدة.

وأما الأخبار فكثيرة: منها ما أخرج في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ((لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى بن مريم عليه السلام، وصبي في زمن جريج الناسك، وصبي آخر)).

أما عيسى فقد عرفتموه، وأما جريج فكان رجلاً عابداً ببني إسرائيل، وكانت له أم فكان يوماً يصلي إذا اشتاقت إليه أمه، فقالت: يا جريج، فقال: يارب الصلاة خير أم رؤيتها، ثم صلى، فدعته ثانياً، فقال: مثل ذلك، حتى قال ثلاث مرات، وكان يصلي ويدعها فاشتد ذلك على أمه، قالت: اللهم لا تمته حتى تريه المومسات. وكانت زانية

هناك فقالت لهم: أنا أفتن جريجاً حتى يزني، فأتته فلم تقدر على شيء، وكان هناك راع يأوي بالليل إلى أصل صومعته، فلما أعياها، راودت الراعي عن نفسها فأتاها، فولدت، ثم قالت: ولدي هذا من جريج، فأتاه بنو إسرائيل، وكسروا صومعته، وشتموه، فصلى ودعا ثم نخس الغلام. قال أبو هريرة: كأني أنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم حين قال بيده: يا غلام من أبوك، فقال: الراعي، فندم القوم على ما كان منهم، واعتذروا إليه، وقالوا: نبني صومعتك من ذهب أو فضة، فأبى عليهم وبناها كما كانت.

وأما الصبي الآخر فإن امرأة كان معها صبي لها ترضعه إذ مر بها شاب جميل ذو شارة حسنة، فقالت: اللهم اجعل ابني مثل هذا، فقال الصبي: اللهم لا تجعلني مثله، ثم مرت امرأة ذكروا أنها سرقت وزنت وعوقبت، فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه، فقال الصبي: اللهم اجعلني مثلها، فقالت له أمه في ذلك، فقال: إن الشاب كان جباراً من الجبابرة فكرهت أن أكون مثله، وأن هذه قيل أنها زنت ولم تزن، وقيل إنها سرقت ولم تسرق، وهي تقول حسبي الله [1].

ومنها خبر الغار: وهو الخبر المشهور في الصحاح فعن الزهري عن سالم عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله

<202>

---

[1] هذا الحديث أخرجه البخاري بطوله في باب خلق آدم وذريته القسطلاني 5/411-412، وأخرجه مسلم في كتاب البر انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (9/441).

عليـه وسـلم:)) انطلـق ثلاثـة رهـط ممن كـان قبلكم فـآواهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صـخرة من الجبـل، وسـدت عليهم باب الغار، فقالوا: واللـه لا ينجيكم من هـذه الصـخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم: كان لي أبـوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبـق قبلهمـا، فنامـا في ظـل شـجرة يومـاً فلم أبـرح عنهمـا وحلبت لهمـا غبوقهمـا فجئتهمـا بـه، فوجـدتهما نـائمين، فكـرهت أن أوقظهمـا، وكـرهت أن أغبـق قبلهما، فقمت والقدح في يدي أنتظر اسـتيقاظهما، حـتى ظهـر الفجـر، فاسـتيقظا فشـربا غبوقهمـا، اللهم إن كنت فعلت هـذا ابتغـاء وجهـك فـافرج عنـا مـا نحن فيـه من هـذه الصـخرة، فانفرجت انفراجاً لا يستطيعون الخروج منه.
ثم قـال الآخـر: كـانت لي ابنـة عم وكـانت أحب النـاس إليّ، فراودتها عن نفسها فامتنعت، حتى ألمت بها سـنة من السـنين فجاءتني وأعطيتها مالاً عظيماً على أن تخلي بيني وبين نفسـها، فلما قدرت عليها قالت: لا يجوز لـك أن تفـك الخـاتم إلا بحقـه، فخرجت من ذلك العمل وتركتها وتركت المـال معهـا، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فـانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.
قال رسول الله صلى الله عليـه وسـلم ((ثم قـال الثـالث اللهم إني استأجرت أجراء فأعطيتهم أجورهم غـير رجـل واحـد تـرك الـذي لـه، وذهب، فثمـرت أجرتـه حـتى كـثرت منـه الأمـوال، فجاءني بعد حين، وقال: يا عبـد اللـه أدّ لي أجـرتي، فقلت لـه: كل ما ترى من أجرتك من الإبل والغنم والرقيق، فقال: يا عبــد الله أستهتزئ بي، فقلت: إني لا أسـتهزئ بـك فأخـذ ذلـك كلـه، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا مـا نحن فيـه، فانفرجت الصخرة عن الغار فخرجوا يمشون)).

وهذا حديث صحيح متفق عليه ([1]).
ومنها ما روى سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ((بينا رجل يسوق بقرة قد حمل عليها فالتفتت إليه البقرة، فقالت: إني لم أخلق لهذا، وإنما خلقت للحرث، فقال الناس: سبحان الله بقرة تتكلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر»)) ([2]).
ومنها ما روي من قوله صلى الله عليه وسلم ((لقد كان فيمن قبلكم ناس محدثون فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر...)) الحديث ([3]). والمحدثون: - بفتح الدال المشددة – هم الملهمون كأنهم حدثوا بشيء فقالوه.

[1] أخرجه البخاري في كتاب الأدب. انظر القسطلاني (9/5)، وفي كتاب بدأ الخلق. القسطلاني 5/427، ومسلم في كتاب العلم. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (10/166).
[2] أخرجه البخاري في كتاب بدأ الخلق انظر القسطلاني (5/431)، وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل باب فضل أبي بكر. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني 9/258.
[3] رواه البخاري في فضاء أصحاب النبي باب مناقب عمر. انظر القسطلاني (6/103).

ومنهت ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النـبي صـلى الله عليـه وسـلم قـال ((بينمـا رجـل يسـمع رعـداً أو صـوتاً في السماء أن اسق حديقة فلان، قـال: فغـدوت إلى تلـك الحديقـة فإذا رجل قائم فيها، فقلت له: ما اسمك قـال فلان بن فلان بن فلان، قلت: فمـا تصـنع بحـديقتك هـذه إذا صـرمتها، قـال: ولم تسأل عن ذلك؟ قلت: لأني سمعت صوتاً في السحاب أن اسق حديقة فلان، قال: أما إذا قلت فإني أجعلها أثلاثاً فاجعل لنفسي وأهلي ثلثاً، واجعل للمسـاكين وابن السـبيل ثلثـاً، وأنفـق عليهـا ثلثاً)) ([1]).

ومنها قوله صلى الله عليه وسـلم ((رب أشـعث لا يؤبـه لـه لـو أقسم على الله لأبره)) ([2]) ولم يفـرق بين شـيء وشـيء فيمـا يقسم به على الله.

ومنها ما رواه البخاري في علامات النبـوة عن أنس رضـي اللـه عنه ((أن رجلين من الأصحاب خرجا من عند النـبي صـلى اللـه عليه وسلم في ليلة مظلمـة ومعهمـا مثـل المصـباحين يضـيئان بين أيديهما فلما افترقا صـار مـع كـل واحـد منهمـا واحـد حـتى وصل أهله)) ([3]). وهذا إنما كان إكرامـاً لهمـا ومعجـزة للرسـول صلى الله عليـه وسـلم، وهـذان الـرجلان همـا أسـيد بن حُضـير وعباد بن بشير رضي الله تعالى عنهما.

([1]) أخرجـه مسـلم في كتـاب الزهـد. انظـر شـرح النـووي في هاشـم القسطلاني 10/442.

([2]) أخرجـه مسـلم في كتـاب الـبر. انظـر شـرح النـووي في هـامش القسطلاني 10/54.

([3]) أخرجه البخاري في المناقب بـاب منقبـة أسـيد بن حضـير وعبـاد بن بشر. انظر القسطلاني (6/159-160).

وأما الدليل المعقول فهو أن العبد ولي الله، والله ولي العبد، وإذا ثبتت الموالاة بين الله وبين العباد، فالمرجو هو أن يفعل الله سبحانه ما فيه إعلاء شأن عبده بالكرامة في الدنيا والاحترام في الآخر.

أما أن العبد ولي الله فلقوله تعالى ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [1]، وأما أن الله ولي العبد فلقوله تعالى ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [2] وقوله ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [3] وقوله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [4] وقوله تعالى تعليماً لعباده ما يدعون به ﴿أَنتَ مَوۡلَىٰنَا﴾ [5].

وأيضاً أن الله تعالى حبيب العبد، والعبد حبيب الرب، والمحب يعمل لحبيبه ما فيه الكرامة والعزة، أما أن الله تعالى حبيب العبد فلقوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾ [6]، وأما أن العبد حبيب الرب فلقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [7] وكذلك يدل على المحبة في الجانبين قوله تعالى ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [8].

---

[1] سورة يونس الآية 62.
[2] سورة البقرة الآية 257.
[3] سورة المائدة الآية 55.
[4] سورة محمد الآية 11.
[5] سورة البقرة الآية 286.
[6] سورة البقرة الآية 165.
[7] سورة البقرة الآية 222.
[8] سورة المائدة الآية 54.

وهنا دليل آخر هو أنه تعالى ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [1] فلا يعجزه شيء وهو على ما يشاء قدير والعباد المخلصون اختصهم الله سبحانه بالتوفيق على الطاعة والاستقامة على أداء واجب العبودية، وهذا التوفيق أصل لظهور كل احترام وكرامة للعباد المطيعين، فمن المناسب لتوفيقهم إعلاء شأنهم بإظهار الكرامة لهم، وتوليهم في كافة شؤونهم كما قال ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [2].

وهنا دليل آخر، وهو ان المتولي للأفعال هو الروح لا البدن، ولاشك أن معرفة الله تكون كالروح للأرواح، أي أنه كلما، ترقت الأرواح في مدارج معرفة الله، ترقت في مدارج الطاعة والإخلاص، وكلما ترقت في ذلك زادت المناسبة والارتباط وتهيأت لفيض أنوار القدس عليها، وإذا صارت الروح مظهراً للفيوضات، فظهور الكرامات والإمداد الغيبية لصاحب هذه الروح يصير نتيجة واقعية، وسنة ثابتة من سنة الله التي خلت في عباده ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًا﴾ [3].

ولاشك أن الروح خالدة، ولا فناء لها بانتقالها إلى عالم البرزخ، ولذلك يرى أهل المعرفة آثار الأرواح الطيبة، ويدرك أهل الصفاء أنوار الأرواح عند الزيارات بحيث يندهش العقل من إدراك تلك الأنوار والفيوضات.

---

[1] سورة الشورى الآية 12.

[2] سورة الأعراف الآية 196.

[3] سورة فاطر الآية 43.

ومن الكرامات التي ظهرت من الصحابة رضي الله تعالى عنهم جملة كثيرة: منها ما صح من حديث عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان نحلها جاد عشرين وسقاً. فلما حضرته الوفاة، قال: والله يا بنية ما بين الناس أحد أحب إليّ غنى بعدي منك، ولا أعز عليّ فقراً بعدي منك، وإني كنت نحلتك جاد عشرين وسقاً، فلو كنت جددته وخزنته كان لك، وإنما هو اليوم مال وارث، وإنما هما أخواك وأختاك فاقتسموه على كتاب الله قالت عائشة: يا أبت والله لو كان كذا وكذا لتركته، إنما هي أسماء فمن الأخرى. فقال أبو بكر: ذو بطن بنت أراها جارية فكان ذلك.

(والجاد) بمعنى المجدود، أي نخل يجد منه ما يبلغ عشرين وسقاً، وفي القصة كرامتان أحداهما إخباره رضي الله تعالى عنه بأنه يموت في ذلك المرض حيث قال وإنما هو اليوم مال وارث، والثانية إخباره بمولود له وهو جارية. والسر في إظهار ذلك استطابة قلب عائشة رضي الله عنها في استرجاع ما وهبه لها ولم تقبضه فأخبرها رضي الله عنه بأنه مال وارث وأن معها أخوين وأختين.

ومنها ما في البخاري (باب السمر مع الضيف والأهل) من كتاب المناقب من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر، وقول النبي صلى الله عليه وسلم في أهل الصفة مرة ((من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس)).

وفيه أن أبا بكر انطلـق بثلاثـة وغـادرهم في بيتـه وتعشـى عنـد النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم، ولبث حـتى صـلى العشـاء مـع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء بعدما مضـى من الليـل ما شاء الله، فقالت له امرأته: ما حبسك عن أضيافك. قـال: أو ما عشيتهم قالت أبوا حتى تجيء، ثم قـال كلـوا: فقـال قـائلهم وايم الله ما كنا نأخذ من لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها حتى شبعوا، وصارت أكثر مما كانت قبل، فنظر أبو بكـر فـإذا شـيء أو أكثر فقال لامرأته يا أخت بني فراس ما هذا، قالت: لا وقـرة عيني لهي الآن أكثر مما كانت قبل بثلاث مرات فأكل منهـا أبـو بكر ([1]).. الحديث،

وهذه كرامـة أظهرهـا اللـه في بيت أبي بكـر، كرامـة لـه، حيث قصد إشباع أضيافه واستطابة قلوبهم حيث غاب عنهم.

ومنها قصة عمـر رضـي اللـه عنـه مـع سـارية بن زنيم الخلجي حيث أمره على جيش من جيـوش المسـلمين، وجهـزه إلى بلاد فـارس، فاشـتد على عسـكره الحـال على بـاب (نهاونـد) وهـو يحاصرها، وكـثرت جمـوع الأعـداء، وكـاد المسـلمون ينهزمـون، وعمــر رضــي اللــه عنــه بالمدينــة، فصــعد المنــبر وخطب، ثم استغاث في أثناء خطبته بأعلى صوته: يا سارية الجبل يا سارية الجبل، فأسمع الله عز وجل سارية وجيوشه أجمعين، وهم على باب نهاوند صوت عمر فلجـأوا إلى الجبـل، وقـالوا: هـذا صـوت أمير المؤمنين فنجوا وانتصروا.

[1] أخرجـه البخـاري في كتـاب مـواقيت الصـلاة. انظـر القسـطلاني (1/518) وكرره في باب علامات النبوة، القسطلاني 6/42.

وروي أن سيدنا علياً كرم اللـه وجهـه كـان حاضـراً، ولمـا سـمع الحاضـرون، قـالوا: مـا هـذا الـذي يقولـه أمـير المؤمـنين وأين سارية منا الآن؟ قال: دعوه فما دخل في أمر إلا وخرج منه، ثم تبين الحال بالآخرة.

ومنها ما ظهر على يد عثمان رضي اللـه عنـه، وذلـك أنـه دخـل إليه رجل كـان قـد لقي أمـرأة في الطريـق فتأملهـا، فقـال لـه عثمان رضي الله عنه: يدخل أحدكم وفي عينيه أثر الزنا، فقـال الرجل: أوحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسـلم؟ قـال: لا، ولكنها فراسة.

وإنما أظهر عثمان هذا تأديباً وزجراً لرجل عن هذه المعصية.

ومنها ما ظهر على يد علي المرتضـي رضـي اللـه تعـالى عنـه، روي أن علياً وولديه الحسن والحسين رضي الله عنهم سـمعوا قائلاً يقول في جوف الليل:

يـا من يجيب دعـاء المضـطر ... يا كاشف الضـر والبلـوى مـع

قـد نـام وفـدك حـول الـبيت ... وعين جودك يا قيـوم لم تنم

هب لي بجـودك فضـل العفـو ... يا من إليـه رجـاء الخلـق في

إن كـان عفـوك لا يرجـوه ذو ... فمن يجـود على العاصـين

<210>

فقال علي رضي الله عنه لولـده: اطلب لي هـذا القائـل، فأتـاه فقال: أجب أمير المؤمنين، فأقبـل يجـر شـقه، حـتى وقـف بين يديه، فقال: قد سـمعت خطابـك فمـا قصـتك، فقـال: إني كنت رجلاً مشغولاً بالطرب والعصيان، وكان والدي يعظني ويقول إن لله سطوات ونقمـات، ومـا هي من الظـالمين ببعيـد، فلمـا ألحَّ في الموعظة ضربته، فحلف ليدعون علي، ويأتي مكة مسـتغيثاً إلى الله، ففعل ودعـا فلم يتم دعـاءه حـتى جـف شـقي الأيمن فندمت على ما كان مني، وداريتـه وأرضـيته، إلى أن ضـمن لي أنه يدعو لي، حيث دعا علي، فقدمت إليه ناقة فأركبته فنفــرت الناقة ورمت به بين صخرتين فمات هناك.
فقال له علي رضي الله عنـه: رضـي اللـه عنـك إن كـان أبـوك رضى عنك، فقال: تعالى رضيت عمن رضـى عنـه أبـوه كـذلك، فقام علي كرم الله وجهه، وصلى ركعات ودعا بدعوات أســرها إلى الله عز وجل، ثم قال يا مبارك قم فقام ومشى، وعـاد إلى الصحة كما كان، ثم قال: لو أنك ما حلفت أن أباك رضـي عنـك ما دعوت لك.
والكلام هنــا في قــول علي كــرم اللــه وجهــه لــذلك الرجــل المشلول (قم يا مبارك) فإنـه يتـبين أنـه ظهـر عليـه كـرم اللـه وجهه بصلاته إشراق قلـبي حصـل لـه بـه اعتقـاد أن اللـه تقبـل دعاءه فأمره بالقيام فقام وقد حقق الله ما اعتقده.
ومنها ما ظهـر على سـيدنا العبـاس رضـي اللـه عنـه عم النـبي صلى الله عليه وسـلم في استسـقائه عـام الرمـادة في زمـان عمر

رضى الله عنه وبرجائه، وكانت السنة سنة جدب والـريح تـذري التراب كالرماد وقد قبل الله تعالى دعاءه واستسقاءه، ولاشـك أن مقارنة الإجابة بالدعاء في السنة التي كاد أن تيأس فيها من المطر كرامة باهرة.

ومنها ما ظهر لسعد بن أبي وقاص رضي اللـه تعـالى عنـه يـوم القادسـية، وذلـك أنـه كـان بـه جـرح لم يسـتطع القيـام معـه والركوب إلى ساحة الحرب، فبلغه من بعض الشعراء كلام تألم قلبه منه، فـدعا عليـه، وقـال اللهم اكفنـا لسـانه ويـده فخـرس لسانه وشلت يده.

وكان سعد مستجاب الـدعاء لأن رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم دعا له بذلك فقـال ((اللهم سـدد سـهمه وأجب دعوتـه)) [1]، فكان لا يدعو بشيء إلا أجـاب اللـه دعوتـه، وكـان الصـحابة يعرفون ذلك منه.

ولما عزله عمـر رضـي اللـه عنـه وولي مكانـه عمـار بن ياسـر رضي الله عنهما بعث مع سعد من يسأله عنه أهل الكوفة، فلم يدع مسـجداً حـتى سـأل عنـه، فيثنـون عليـه خـيراً، حـتى دخـل مسجداً لبني عبس، فقام رجل منهم، يقال له أسـامة بن قتـادة ويكنى أبا سعدة، فقال: أما إذا نشدتنا فإن سـعداً كـان لا يسـير بالسرية، ولا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضية،

[1] أخرجـه البخـاري في كتـاب الأذان. القسـطلاني 2/83-85، وأخـرج مسلم بعض هذا الحديث في كتاب الصلاة. شـرح النـووي في هـامش القسطلاني 3/98-99، والإمام أحمد في المسند (1/175)، والنسائي (1/174)، والطبراني رقم 308.

فقال سعد: أما والله لأدعـون بثلاث: اللهم إن كـان عبـدك هـذا كاذباً قام ريـاءً وسـمعة، فأطـل عمـره، وأطـل فقـره، وعرضـه للفتن. قال عبد الملك بن عمير من رواة الحديث: فأنا رأيته قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، وأنه ليتعـرض للجـواري في الطريق يغمزهن، وكان بعد إذا سـئل يقـول شـيخ كبـير مفتـون أصابتني دعوة سعد. وأراد عمر رضي اللـه عنـه أن يـرد سـعداً بعد ذلك إلى الكوفة فامتنع.

وأقبل سعد يوماً برجل يسب علياً وطلحـة والزبـير رضـي اللـه عنهم، فنهاه، فكأنما زاده إغراء، فقـال لـه: ويلـك مـا تريـد إلى أقوام خـير منـك، لتنتهين أو لأدعـون عليـك، فقـال هـاه فكأنمـا تخوفني يعني نبياً من الأنبيـاء، فـدخل سـعد داراً فتوضـأ ودخـل مسجداً فقال: اللهم إن كان عبدك يسب أقواماً قد سـبقت لهم منك الحسنى حتى أسخطك بسبه إياهم فأرني اليوم آيـة تكـون آية للمؤمـنين فخـرجت بختيـة، من دار قـوم، وأقبلت لا يصـدها شيء حـتى انتهت إليـه، وتفـرق النـاس، فحملتـه بين قوائمهـا، ووطئته حتى طفئ.

ومنها ما ظهر على يـد ابن عمـر رضـي اللـه عنهمـا، حيث قـال للأسد الذي منع الناس الطريق: تنح فبصبص بذنبه. وذهب.

ومنها ما ظهر على أيدي سـلمان وأبي الـدرداء فقـد كـانت بين يدهما قصعة، فسبحت حتى سمعا التسبيح.

ومنهـا مـا ظهـر على عمـران بن حصـين كـان يسـمع تسـبيح الملائكة حتى اكتوى فاحتبس ذلك عنه، ثم أعاده الله عليه.

ومنها ما ظهر لخالد بن الوليد رضي الله عنـه، وهـو أنـه شـرب السم ولم يضره، إلى غير ذلك من الكرامات الـتي ظهـرت من سائر الصحابة، ومن التابعين، وتابعي التابعين رضي الله تعـالى عنهم، ومن غيرهم من خيار المسلمين في القرون التي مضـت عليهم، بحيث وصل القدر المشـترك منهـا مبلـغ التـواتر المفيـد لليقين.

فـإن قيـل: مـا بـال الكرامـة في زمن الصـحابة وإن كـثرت في نفسها قلت بالنسبة إلى ما يروي من الكرامات الكائنـة بعـدهم على يد الأولياء.

فالجواب: ما أجاب به الإمام الجليل أحمد بن حنبل رضـي اللـه عنه حيث سئل عن ذلك فقـال: أولئـك كـان إيمـانهم قويـاً فمـا احتاجوا إلى زيادة يقوى بهـا إيمـانهم، وغـيرهم ضـعيف الإيمـان في عصره، فاحتيج إلى تقويته وإظهار الكرامة.

ومما ينبغي علمـه أنـه كمـا اختصـت المعجـزة بالرسـل الكـرام عليهم الصـلاة والسـلام، اختصـت الكرامـة بـالمؤمنين المتقين المستقيمين على اتباع الرسول صلى الله تعـالى عليـه وسـلم، كالصـحابة الكـرام، وأفـراد التـابعين، وتـابعي التابعيـة، وسـائر المؤمنين الأخيار رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

فلا تصدر الكرامة قطعاً من الفساق الفجار والعصـاة الأشـرار، وما يتوهم من وقوع بعض الأمور غير الاعتيادية <214>

منهم فليست كرامـة، وإنمـا هي نتيجـة علـوم خاصـة اكتسـابية كالسحر والشعوذة وخفة اليد، أو نتيجة تدريبات رياضية علاجيـة كشرب حبوب مسمومة في اليوم مرات، والطفرة إلى الأسفل من أعالي السطوح العاليات، أو نتيجة رياضـات نفسـية بـالجوع والعطش والســـهر كـــإدراك بعض أســـرار خفيـــة من بعض الأشـخاص، على أنهـا ظنـون وأوهـام تتخلـف كثـيراً، كمـا علم بالتجارب القطعية، أو أثر دعاء صالح لبعض الناس لرعايـة مصالح دينية مهمة في بعض الأوقات، فاستمرار أثـر ذلـك فيهم كرامـة لـذلك الـداعي، ولكـل صـالح مطبـق لتلـك المصـالح، واسـتدراج لغيرهمـا من النـاس غـير المـراعين لأحكـام الـدين المبين، وذلك لأن الكرامة فرع معجزة الرسـول، فهي من بـاب الإمـدادات الربانيـة والفيوضـات الرحمانيـة، والأنـوار الروحيـة الناشئة من صميم الإسلام والمتابعة لسـيد المرسـلين صـلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. <215>

وأما صحبه الصالحين المتقين الصادقين

فعليها أدلة قاطعة من الكتاب والسنة. أما الكتاب فكقوله تعالى ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [1]

في هذه الآية الشريفة أمر الله سبحانه وتعالى حبيبه محمداً صلى الله عليه وسلم، بتثبيت نفسه الشريفة الكريمة مع المؤمنين الذين يدعون ربهم في طرفي النهار ابتغاء مرضاه، وينهاه عن إماله عينه إلى من سواهم من الذين يريدون الدنيا وشهواته، ثم ينهاه عن مطاوعة الذين غفلوا عن ذكر الله واتبعوا هواهم وخالف أمرهم وحالهم دين الله سبحانه وتعالى، وذلك لأن في المصابرة والمجالسة معهم تعاوناً في الدين وتنوراً للقلب في مدارج علاه، وأن في المجالسة مع أهل الكفر والفسوق إعراضاً عن عبادة الله وأداء حقوقه، فمجالسة الأولين عبادة وسعادة، ومجالسة الآخرين بعد عن الله وشقاوة، ولا يرضى أحد باستبدال السعادة بالشقاوة، والقرب من الله تعالى بالبعد عنه، وقد ثبت بالأدلة القطعية أن من جالس أهل الخير ينال خيراً، ومن جالس أهل الشر ينال شراً، ولذلك يحث الله تعالى بقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [2]

---

[1] سورة الكهف الآية 28.

[2] سورة التوبة الآية 119.

ويستفاد من هذه الآية الكريمة أن الكينونة مع الصادقين وصحبتهم ومحبتهم، يورث القلب استقامة على الحق وسلامة عن الباطل، وكأنها تكون وسيلة لتركيز التقوى، فكأنه سبحانه وتعالى قال: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وإن لم تعلموا حصول التقوى من أي وجهة، فاعلموا انه بالصحبة مع الصادقين. وأن الإنسان إذا جالس أهل الخير وأهل العلم استفاد منهم الخير والعلم، وذلك مدلول قوله تعالى ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ [1] بل هذه الآية تدل بجلاء على أن اتباع الناس لأهل الصلاح لنيل ما عندهم من العلم، والأحوال، والصفات الحسنة، وتعليم ذلك الصالح صاحبه أحوال أهل الخير، وكيفية استفادتها مطلوب، ومرغوب، حتى للأنبياء والمرسلين.

وأما من السنة فما روى عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً منتنة)) [2] متفق عليه.

---

[1] سورة الكهف الآية66.

[2] أخرجه البخاري في كتاب البيوع. القسطلاني 4/39 وكرره في كتاب الذبائح. القسطلاني 8/292، ومسلم في كتاب البر. شرح النووي في هامش القسطلاني 10/58.

والحاصل أن الصاحب يأخذ من صاحبه بالمصاحبة والمحبـة في مدة يسيرة، ما لا يستفيده بجهده وحده في أزمنة كثيرة، حـتى أن الصـاحب يكتسـب دين صـاحبه وديدنـه، وعليـه مـا روى أبـو هريرة عنه صلى الله عليه وسلم أنـه قـال: ((الرجـل على دين خليله فلينظر أحـدكم من يخالـل)) [1] رواه أبـو داود والترمـذي بسند صحيح، وقال الترمذي حديث حسن ولما اكتسب بصـحبته آدابه وأخلاقه ودينه وديدنه يكـون قرينـاً لـه في الآخـرة، وعليـه قـال صـلى اللـه عليـه وسـلم ((المـرء مـع من أحب)) [2] وفي رواية قال: قيل للنبي صلى الله عليه وسلم الرجل يحب القـوم ولما يلحق بهم قال ((المرء مع من أحب)).

الزيادة

وإذا حصـلت الصـحبة والمحبـة بين شخصـين وتحابـا في اللـه وتصاحبا، فإن كان يعيشان معاً فذلك ظاهر، وإن اقتضى الوضع أن يتفارقا فليزر أحدهما الآخر.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم

[1] رواه الترمذي رقم 2484 طبعة القـاهرة، وقـال حـديث حسـن وأبـو داود في كتـــاب الأدب من ســـننه 2/559، وأورده ابن الجـــوزي في الموضوعات، لكن الزركشي رد عليه بقوله: أخطأ ابن الجـوزي فـذكره في الموضوعات، والقول ما قالـه الترمـذي. انظـر اللالئ المنتـثرة في الأحاديث المشتهرة للزركشي، مخطوط.

[2] أخرجـه البخـاري في كتـاب الأدب عن أبي موسـى. انظـر الصـحيح 8/49.

((أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكاً، فلما أتى عليه قال أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربها؟ قال: لا غير أني أحببته في الله تعالى قال فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه)) [1] رواه مسلم.

ومن هنا ثبت أن زيارة الأحباب الصالحين بعضهم بعضاً مستحبة، سواء كان في قرية واحدة أو في قريتين، وإذا توقف عليها فهم حكم من أحكام الدين ولا يمكن فهمه من غيره، أو دفع رذيلة نفسية من الرذائل المهلكة كالحقد والحسد، وجبت تلك الزيارة، لأن ما يتوقف عليه الواجب واجب قطعاً، فإن تزكية النفس عن الرذائل والأمراض النفسية توجب الفلاح والخلاص، كما قال تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [2] وقد جرب أن مجاورة أولئك الأصفياء دواء لأدواء القلوب.

وسقط قول من منع زيارة الناس للصالحين بحجة «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد... الحديث» [3] لأنه مبني على شد الرحال لأداء الصلاة في المسجد، كما روى ذكر الصلاة في بعض الأحاديث الشريفة، لا لزيارة المسلمين بعض العارفين لأخذ آدابهم والتعلم منهم والانطباع والتخلق بما عندهم من

[1] أخرجه مسلم في كتاب البر عن أبي هريرة. شرح النووي في هامش القسطلاني 9/461.

[2] سورة الشمس الآية 9-10.

[3] سبق تخريجه في ص 94.

الآداب والفضـائل، وإلا لا نسـد بـاب كسـب المعـارف الدينيـة بصنوف الفقه، والعقايـد، والحكمـة، والمربيـة وغيرهـا كمـا هـو معلوم.
وإن ممـا يرشـد المسترشـدين إلى الحـق لـزوم اتبـاع طلاب العلوم النافعة الدافعة لأمراض القلـوب رجـالاً أصـفياء، أتقيـاء، يداوون أسـقام القلـوب بـالأنوار والإرشـاد السـليم إلى طريـق التزكية، لـزوم تـداوي المرضـى بالأسـقام البدنيـة عنـد الأطبـاء الحاذقين، فإنالدين روح الحياة للإنسان وثمرتهـا، وزكـاء النفس وطيبها، وخلوصها من العلل المانعة عن الوصـول إلى اللـه هـو روح الـدين. والإنسـان إذا مـات بـالأمراض البدنيـة لا يفوتـه إلا تمتعـات ماديـة مؤقتـة، وإذا مـات بـالأمراض الروحيـة تفوتـه السعادة الأبدية، وتنوب عنها الشـقاوة السـرمدية والعيـاذ باللـه تعالى. وجوب تـداوي أمـراض النفس واتبـاع الصـالحين ممـا لا يشك فيه عاقل، فإن تزكية النفس واجبة، وكل ما يتوقف عليـه هذا الواجب واجب.
لا يقال: إن اتباع الشرع الشريف كاف عن كل شـيء، لأن فيـه ما يحتاج إليه الإنسان في السـعادة، فلا حاجـة إلى شـيء آخـر، لأنا نقول: نحن لا نخالفـك قطعـاً، ولكنـا نقـول: قـد تـركت أنت اتبــاع الشــرع، لأن الشــرع يــأمر بالعبــادة والإخلاص والعبــادة تستفاد من التعليمات الدينيـة. وأمـا الإخلاص للنيـة الـتي عليهـا المدار، لا يمكن إلا بالتخلق بالأخلاق المحمدية، وهـذه الصـفة لا يمكن عادة وجودها، إلا بمحبة الـدين، وأهـل الـدين، وصـحبتهم، ومحبتهم، والأخذ بآدابهم

الدينية المستفادة من مجاورة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولذلك يقول سبحانه وتعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [1].

ألا ترى قوله سبحانه وتعالى حكاية عن سيدنا موسى عند مكالمته مع العبد الصالح عليهما الصلاة والسلام ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ وجوابه بقوله ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [2] ألم تعلم أن ذلك العبد كان محبوباً لدين الله، وقد علمه من العلوم اللدنية.

وهنا يتبين لك الحق لأنه إن كان العبد الصالح نبياً، فمعناه جواز أن يتعلم الرسول من النبي بعض العلوم المختصة، وإن كان ولياً من أوليائه تعالى فيكون الحق أوضح لأنه إذا قرر اتباع الرسول مع كونه أعظم قدراً عند الله لولي من الأولياء لمعرفة واستفادة بعض الأسرار التي خصه الله بها، فوجود الاستفادة بل وجوبها من اتباع العامة للخواص من العلماء والأولياء يكون أوضح، وهذه القضية وإن كانت في شريعة سابقة على شرعنا، لكنها حكاها الله في مقام التقرير والارتضاء، ووفور قدرته تعالى في اختصاص من شاء بما شاء.

---

[1] سورة التوبة الآية 119.

[2] سورة الكهف الآية 67 – 68.

فالخلاصة في المقام أن الدين الخالص الذي حصره الله تعالى في الاختصاص به وقال ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ [1] لا يمكن إلا باتباع ما جاء به الرسو بأصوله وفروعه، ولا يتحقق ذلك، إلا بارتكاز العقيدة السليمة في القلوب، ومباشرة الأعمال الصالحة، ومجانبة الأعمال السيئة، والإخلاص في ذلك، والاعتقاد يؤخذ من تعليم العقايد، والأعمال تستفاد من تعليم الفقه، وأما الإخلاص فلا سبيل إليه إلا بفضل من الله، وموهبة خالصة، وتوفيق لصحبة الرسول صلى الله عليه وسلم ومحبته، والانطباع بأحواله، وذلك في الصدر الأول، وبصحبة ومحبة أولئك الأصحاب المجاورين المحبين في الطبقة الثانية، وهكذا إلى أن ينتهي الزمان ويحصل الأمان.

(1) سورة الزمر الآية 3.

زيارة الصالحين بعد وفاتهم رحمهم الله تعالى

وأما زيارة الموتى من الصالحين الكرام، فشعبة من زيارة مطلق الأموات، ولها وجوه وأصناف:

فمنها زيارة الميت كائناً من كان، وهذه مأمور بها ومرغوب فيها، لتذكر الآخرة، والتفكر في هازم اللذات، والعبرة بأحوال من ولد ومات، قال صلى الله عليه وسلم ((كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة)). ([1]) رواه مسلم وفي رواية ((فمن أراد أن يزور القبور فليزر فإنها تذكرة بالآخرة)).

صدر النهي عن زيارة القبور في صدر الإسلام، لقرب عهد الناس بالجاهلية، ولما تمهدت القواعد واتضحت الأحكام وعلموا ما ينفع وما يضر، نسخ الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك النهي بالأمر بها. والقاعدة الأصولية المقررة أن الأمر بعد الحظر للإباحة، على أنه اعتضد بتكرر زيارته صلى الله عليه وسلم للأموات، ولذلك اتفق العلماء قبل ظهور البدع والأهواء، على ندب الزيارة للرجال في قبور المسلمين، وأن بلوا لبقاء علاقة الروح بمحل القبر دائماً.

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما كان ليلتها من رسول الله صلى الله

[1] سبق تخريجه في ص 94.

عليه وسلم يخـرج من آخـر الليـل إلى البقيـع فيقـول ((السـلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون غداً مؤجّلون، وأنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيـع الغرقـد)) [1] رواه مسلم.

وعن بريدة رضي الله عنه قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم ((السلام عليكم أهل الـديار من المؤمـنين والمسـلمين، وإنـا إن شـاء اللـه بكم لاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية)) [2]رواه مسلم.

ومنها الزيارة لأداء حق نحو والد وذلك أكد لخـبر أبي نعيم ((من زار قبر والديه أو أحدهما يوم الجمعة كان كحجة)) ولفظ روايـة البيهقي ((غفر له وكتب له برائة)) [3].

وأما لنحو حق صداقة ومعارفة، فذلك أيضاً مندوب لما ثبت أنـه لما مات عثمان بن مظعون ودفن حضر دفنـه صـلى اللـه عليـه وسلم، وأتى بحجر وضـعه موضـع رأسـه، ولمـا سـئل عن ذلـك أجـاب صـلى اللـه عليـه وسـلم بقولـه ((أتعلّم بهـا قـبر أخي عثمان)) [4] ومعلوم أنه أراد أن يظهر القبر له إذا زاره في

[1] أخرجـه مسـلم في كتـاب الجنـائز. انظـر شـرح النـووي في هـامش القسطلاني (4/306).

[2] أخرجه مسلم في كتاب الجنـائز عن سـلمان بن بريـدة. انظـر شـرح النووي في هامش القسطلاني (4/312).

[3] رواه الحافظ الهيثمي بلفظ «من زار قبر أبويـه كـل جمعـة غفـر لـه وكتب براً» رواه الكبراني وفيه عبد الكريم أبو أمية وهو ضـعيف. انظـر مجمع الزوائد (3/59-60).

[4] رواه أبو داود عن المطلب. انظر السنن (2/189-190).

المستقبل، ومن هذا اخذ الناس وضـع حجـرين على قـبر الميت رأسه، وقدمه للمؤنث، وثلاثـة أحجـار للمـذكر: رأسـه، وقدمـه، ووسطه.
ومنها الزيارة للتبرك، فيسن لأهل الخير، لأن لهم في بــرازخهم أنواراً وبركات لا تحصى. أما سيد البشر صلى الله عليـه وسـلم فقد ذكرنا قبل ما لا علاقة به، وكذلك سائر الأنبيـاء والمرسـلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.
وأما زيارة الأولياء والصالحين والعلماء العاملين، وعلى رأسـهم الصـحابة الكـرام، والتـابعون، وتـابعوهم من الأخيـار، والشـهداء لإعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى، فتدخل في الندب المطلق من حيث أن زيـارتهم زيـارة المـوتى من المسـلمين، وفي النـدب المؤكد لما لهم من حقوق التعليم، ونشر الـدين، والتضـحية في سبيل الإسلام والمسلمين. وتـدخل في نطـاق زيـارة تأكـد، لأن أرواحهم كانت ولا تزال منورة بأنوار الله في الدنيا وفي البرزخ ويوم يقوم الأشهاد، والأرواح المنورة لا تنقطع علاقتها بربها أبـد الآبدين. ومـذهب جمهـور المسـلمين أن الأرواح خالـدة مؤبـدة، ومعنى ذلك دوام فيض البركات والأنوار عليهم، فزيارتهم زيـادة في الأجر واستفادة من بركات أرواحهم الطاهرة. وقد روي أنه صلى الله عليه وسلم قال ((آنس ما يكون الميت في قـبره إذا رأى من كـان يحبـه في الـدنيا)) ([1])، وهـذا الحـديث الشـريف يشمل زيارة الأصدقاء
<225>

[1] لم أطلع لهذا الحديث على سند، لكن معنـاه وارد في عـدة أحـاديث مثـل «مـا من رجـل يمـر» الحـديث ص 228. وحـديث «مـا من رجـل يزور» الحديث ص 229 وأحاديث أخرى.

في الدنيا، وزيارة الأخيار الذين كان الزائر يعـرفهم في حيـاتهم بصورة قطعية، وغيرهم ممن لم يكن بينهم تعارف ظاهر، ولكن هناك تعارف روحي بصورة استنباطية، لأن المعارفة الروحيـة لا تتوقف على المعارفة الظاهرة في عـالم الحيـاة الماديـة، وهـو معلوم لأهل العلم واليقين.

بيانات وإيضاحات

هناك أمور ينبغي التعرض لها لزيادة بصيرة المسلمين:

الأول – أنه هـل للأمـوات إدراك واطلاع على الزائـر وشخصـيته وفهم لأحواله؟

الثاني – هـل هنـاك فائـدة تعـود على الميت أولاً؟ وعلى الزائـر ثانياً؟

والثالث – أنه هـل يجـوز للزائـر التوسـل بهم إلى اللـه سـبحانه لحصول خير أو دفع شر؟

فنقـول أمـا الأول – فـإن كـان الميت نبيـاً من الأنبيـاء (عليهم الصـلاة والسـلام) فلهم إدراك، فقـد ثبت أن الأنبيـاء أحيـاء في قبورهم، وأن الأرض لا تأكـل أجسـادهم لمـا روي النسـائي عن أوس بن أوس أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قـال ((إن الله عز وجل قد حرم على الأرض أن تأكد أجسـاد الأنبيـاء)) ([1]) عليهم الصلاة والسلام، وأخرجه ابن ماجه في

[1] انظر النسائي (3/91-92). رواه أحمـد في المسـند (4/8) والحـاكم في المستدرك (1/278) وابن ماجـه عن أبي الـدرداء رقم 1637 وأبـو داود في كتاب الصلاة من سننه (1/351).

سننه أيضاً. وروى البيهقي في كتاب الأنبياء وصححه من حديث أنس رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال ((الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون)) [1]، وكذلك رواه أبو يعلي والبزار وابن عدي وأخرج مسلم في باب فضائل موسى عليه السلام من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ((مررت على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره)) [2].

وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ((حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم فإذا أنا مت كانت وفاتي خيراً لكم تعرض علي أعمالكم فإن رأيت خيراً حمدت الله وإن رأيت شراً استغفرت لكم)) [3]، وذلك العرض كل يوم، وقد عد من خصائصه صلى الله عليه وسلم إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة في هذا الباب مما يدل مجموعها دلالة لا مرية فيها على حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وكذلك الشهداء فقد ثبت أيضاً أنهم أحياء في قبورهم وإن كانت حياتهم دون حياة الأنبياء قال تعالى ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ﴾ [4]

<227>

---

(1) صححه البيهقي في كتاب حياة الأنبياء ص4، وأيد الشوكاني في نيل الأوطار (5/108).

(2) أخرجه مسلم في الفضائل. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (9/231).

(3) رواه الحافظ الهيثمي عن عبد الله بن مسعود، وقال: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح. انظر مجمع الزوائد (9/24).

(4) سورة البقرة الآية 154.

أي لا تحسون ولا تـدركون حـالتهم بالمشـاعر، لأنهـا من أحـوال البرزخ التي لا يطلع عليهـا، ولا طريـق للعلم بهـا إلا بـالوحي أو الإلهام. وما كان هذا شأنه لا يتصرف العقل فيه وهو خـارج عن طوره. وجمهور السلف على أن هذه الحياة حياة حقيقية، وأنهـا للروح والجسد، ولكن الجسد جسـد بـرزخي لا دنيـوي، ونحن لا نـدركها بـالعين المجـردة في هـذه النشـأة، وإنمـا تـدرك بعين البصيرة لمن شـاء اللـه، وممن صـرح بهـذا القـول ابن عبـاس، وقتادة، ومجاهد، والحسن، وعمرو بن عبيد، وواصـل بن عطـاء، والجبائي، والروماني وجماعة من المفسرين.
وأما سائر الموتى فأرواحهم في عالم البرزخ مشـغولة بشـؤون أخرى غـير هـذه الشـؤون، وفي عـالم آخـر مبـاين لهـذا العـالم المحسوس، مع أن لهم إدراكات متناسبة لمدارجهم ومعـارجهم وعلـو طبقـات أرواحهم، ففي كتـاب الـروح لابن القيم تحت عنوان فصل أن الموتى يتساءلون عن الأحياء ويعرفون أقوالهم وأفعالهم، وقد ترجم الحافظ أبـو محمـد عبـد الحـق الأشـبيبلي على هذا فقال (ذكر ما جـاء أن المـوتى يتسـاءلون عن الأحيـاء ويعرفون أقوالهم وأعمالهم قال: ذكر أبو عمر بن عبد الـبر من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ((مـا من رجل يمر بقبر أخيـه المـؤمن كـان يعرفـه فيسـلم عليـه إلا عرفه ورد عليه)) [1] ويروى هذا من

[1] رواه الخطيب في تاريخ بغداد، وابن عساكر في تاريخ دمشق. انظـر الجامع الصغير (2/255).

حديث أبي هريرة مرفوعاً قال ((فإن لم يعرفه وسلم عليه رد عليه السلام)). قال ويروى من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((ما من رجل يزور قبر أخيه فيجلس عنده إلا استأنس به حتى يقوم)) [1].

واحتج الحافظ أبو محمد في هذا الباب بما رواه أبو داود في سننه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام)) [2]. وكان صلى الله عليه وسلم يعلمهم أن يقولوا إذا دخلوا المقابر ((السلام عليكم أهل الديار)) الحديث، وهذا يدل على أن الميت يعرف سلام من يسلم عليه، ودعاء من يدعو له، وصح عن عمرو بن دينار أنه قال ((ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون في أهله بعده وأنهم يغسلونه ويكفنونه وأنه لينظر إليهم)) [3].

وأما استشكال إسماع الموتى وسماعهم بقوله تعالى ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [4] وبقوله تعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [5]

---

[1] ذكره ابن أبي الدنيا في القبور، ورواه ابن أبي عبد البر في التمهيد، وصححه عبد الحق الأشبيلي. انظر ما قاله الحافظ العراقي في الأحياء (4/475).

[2] أخرجه أبو داود في سننه (1/470) وصححه النووي في الأذكار ورياض الصالحين. انظر دليل الفالحين (7/217-218) وأخرجه البيهقي في كتاب حياة الأنبياء ص 13.

[3] ورواه أحمد في مسنده عن أبي سعيد بلفظ «أن الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه في قبره». تخريج أحاديث الأحياء (4/482).

[4] سورة الروم الآية 52.

[5] سورة فاطر الآية 22.

فمدفوع بأمور:

الأول – أن المـراد إسـماع هيكـل الميت بواسـطة آلـة السـمع وذلـك مسـتحيل عـادة، لبطلان إحسـاس الحـواس للميت، فلا يمكن إسماعه إلا بقدرته تعالى.

والثاني – أن المراد تسلية الرسول من جهة أن الإنسـان الـذي أصر في حياتـه على الكفـر لا يتـأثر بالمواعـظ والإرشـادا الـتي تأتيه من الرسول فهو كالميت المتجمد المشـرف على التمـزق والبلى، وليست إفادة الإرشاد بالنسـبة إليـه في وسـعك، وإنمـا هـو في قـدرة خـالق الكائنـات الـذي يقـدر أن يسـمع حـتى الجمادات وينطق الحيوانات التي لا نطق لها. وليس المراد بمـا في الآيتين نفي إدراك أرواح الموتى وسماعهم بالقوة الروحيـة ما يلقى إليهم، لوجود أدلة على إدراك الأرواح للأشياء وسماعها للأصوات سماعاً برزخياً، مثـل مـا يـرى أحـد منامـاً ويسـمع في رؤياه كلام من يخاطبه ويناجيه.

والثالث – أن إرشاد الناس وإفادتهم بالحقيقة، وإسماع المـوتى بعد التحول من قانون الحيـاة الاعتياديـة، بـل كـل كـائن يكـون، وكل حادث يحدث، إنما هـو بخلـق اللـه وقدرتـه، وليس لكم إلا الكسب الاعتيادي، وهو لا يفيد إنتاج المقصود لـولا خلـق القـادر المعبود. فلا ينبغي أن تتـألم بكلامهم وتتـأثر بسـوء أفهـامهم إن أنت إلا رسول وما على الرسول إلا البلاغ <230>

المـــبين، فهي من قبيـــل ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ . وليس المراد بالآيتين وإشباههما نفي الإدراك عن الأرواح، ونفي السـماع الـبرزخي، لأن ذلـك المعنى مخالف لنصوص السنة، يـدل لهـذا مـا في الصـحيح من قوله صلى الله عليه وسـلم لأهـل قليب بـدر ((هـل وجـدتم مـا وعدكم ربكم حقـاً)) فقـال عمـر أتكلم المـوتى يـا رسـول اللـه فقال عليه السلام ((والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع منهم لما أقول غـير أنهم لا يسـتطيعون أن يـردوا عليّ شـيئاً)) أي لأنهم كانوا مشركين لا يمتثلون في الدنيا أوامر الله ورسـوله، فبمـاذا يردون علي الآن؟ ولا ريب أن ذلك إنمـا يكـون بسـماع الأرواح، إذ لو كـان بسـماع الآلات لكـان دون سـماع الأحيـاء، لأن آلاتهم الإحساسية تأثرت وضاعت من حين القتـل، فمـا كـان الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم يقـول ((مـا أنتم بأسـمع منهم)). وأمـا سؤال عمر رضي الله عنـه فمبـني على ظن أن التكلم للهيكـل المخصـوص الفاقـد للحس والحركـة كمـا هـو المعـروف من الموتى، فأرشده الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن الموجه إليهم الخطـاب هم المـوتى باعتبـار أرواحهم المتعلقـة بهم بعـد الموت علاقة خاصة فهي <231>

الـتي تخـاطب وتُسـمع فتَسـمع. ومـا روى مسـلم ((أن الميت ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا)) . وما ثبت من سـؤال الملكين للميت بعـد دفنـه، ومـا ثبت من النعيم وغـيره لهم في عـالم البرزخ.

فظهر مما ذكرنا أن لأرواح الأموات إدراكات واطلاعات بحسب ما لهم من الدرجات، وأن أولياء الله تعالى وهم المتقون الـذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا على الاعتقاد والعمل الصـالح ومنهج الخلق المحمدي، لأرواحهم بركات لأنهم تتـنزل عليهم الملائكـة بالبشرى، وأن من زارهم يستفيد من بركـاتهم وأنـوار أرواحهم، حيث إن مشاهدهم فيها بركات تنبع عن أرواحهم الصـافية. وان من كان في الأماكن المبروكة بالنيـة الطيبـة، يسـتفيد من تلـك البركات، فقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى اللـه عليـه وسلم مر بأرض كـانت بهـا أمـة سـابقة متمـردة، وغضـب اللـه عليهم، فأمر أصـحابه بإسـراع دوابهم واسـتعجال الخـروج منهـا بحجة أنها أرض مغضوبة.

وروى مسلم في صحيحه في باب النهي عن الدخول على أهـل الحجر إلا من يدخل باكياً: روى عن عبد الله بن دينار أنـه سـمع عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله صلى الله عليـه وسـلم لأصحاب الحجر ((لا تـدخلوا على هـؤلاء القـوم المعـذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصـيبكم مثل ما أصابهم)) [1].

<232>

---

[1] الحديث مع الشرح موجود في شـرح النـووي على صـحيح مسـلم (18/110-112).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ((لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم)) [1]. ثم زجر فأسرع حتى خلّفها.

وعن نافع أن عبد الله بن عمر أخبره أن الناس نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر أرض ثمود فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهرقوا ما استقوا ويعلفوا الإبل العجين وأمرهم من البئر التي كانت تردها الناقة.

وقال النووي في شرح مسلم وفي هذا الحديث فوائد منها النهي عن استعمال مياه بئار الحجر إلا بئر الناقة، ومنها لو عجن منه عجيناً لم يأكله بل يعلفه الدواب، ومنها أنه يجوز علف الدابة طعاماً مع منع الآدمي منه أكله، ومنها مجانبة آبار الظالمين والتبرك بآبار الصالحين.

ويستفاد استنباطاً دقيقاً من قوله سبحانه وتعالى ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾ استحباب وابتغاء أن يكون المسلم يسعى لوصوله إلى مجتمع الأبراء ليكون وفاته بمقربة منهم

[1] الحديث مع الشرح موجود في شرح النووي على صحيح مسلم (112-18/110).

وأن يـدفن في مقـابرهم ليجـاورهم في الـبرزخ فـإن الإنسـان يستفيد من بركاتهم وأنوارهم وجاهم بأن يستشفوا له عند اللـه بالعفو والغفران فإن لهم جاهاً ووجهاً عنده تعالى وليس بغريب أن قـال سـبحانه وتعـالى في شـأن موسـى ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيها﴾ [1].

فأخـذ العلمـاء من هـذا بقاعـدة دليـل العكس، أن البقـاء في المحل المبارك يستوجب الرحمة والبركة، وذلك على منوال ما قال صلى الله عليه وسلم ((وفي بضع أحدكم صدقة قـالوا: يـا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته وله فيهـا أجـر؟ قـال)) أرأيتم لـو وضعها في حرام أكان عليه وزر ((فقالوا: نعم. قال:)) فكـذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر (([2] فالمحل المبروك والمحـل المغصوب محلان متنافران، فما ثبت في الأول منـاف لمـا ثبت في الآخر. ويشهد بذلك واقـع حـال المسـلم الـذي زار الأمـاكن المقدسة، والمشاهد المباركة، وإحساسه بالنفحـات والبركـات، وقولـه تعـالى ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُم وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [3]. وأن أوليـاء اللـه تعـالى مشـمولون بعنايـات ورعايـات إلهيـة لهم ولاتبـاعهم في الـدنيا والآخرة. أما في الدنيا فيدل عليـه قولـه تعـالى ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحا﴾ [4]

---

[1] سورة الأحزاب الآية 69.

[2] أخرجه مسلم في كتاب الزكاة. شرح النووي في هامش القسطلاني (4/375-377).

[3] سورة الجاثية الآية 21.

[4] سورة الكهف الآية 82.

في تقرير الأمر بالعبد الصالح لإقامة جدار اليتيمن. وأما في الآخرة، فيدل عليه قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتهُم ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَنٍ أَلحَقنَا بِهِم ذُرِّيَّتَهُم وَمَا أَلَتنَهُم مِّن عَمَلِهِم مِّن شَيء كُلُّ امرِي بِمَا كَسَبَ رَهِين﴾ [1]، ومعنى هذا سراية أنوار الأبرار إلى المؤمنين المحبين من جهة علاقة الحب لله رب العالمين.

ولا يقال: أن كل امرئ بما كسب رهين، فأين هذه الاستفادة. لانا نقول: هذا من باب الفضل، وارتهان كل شخص بما كسبه من باب العدل، وباب الفضل مفتوح على مصراعيه، وإلا لما كان لدعاء الأنبياء لا متهم، ولا لدعاء اللاحقين لمن سبقهم بالإيمان فائدة مع أن نفعه منصوص في القرآن الكريم. حتى إن الله سبحانه وتعالى لم يعذب الكافرين في الدنيا ببركة وجود الرسول وقربه لهم فقال ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم وَأَنتَ فِيهِم﴾ [2].. فكيف بالمؤمنين المحبين.

وأن التوسل بهم بالطريق المشروع جائز كما ذكرنا في أوجه التوسل السابقة، ولا نظر إلى كلام المنكر لذلك المخالف لما درج عليه أكثرية الأمة المرحومة، فإن ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن. لكنه يجب على المؤمن الزائر رعاية أحكام الدين، ويجب على ولاة الأمر منع

[1] سورة الطور الآية 21.
[2] سورة الأنفال الآية 33.

المحرمات، كاختلاط النساء بالرجـال، ووضـع منهج أمين سـليم لتلك الزيارات لاسيما في الحضرات المقدسة، كمشاهد الأنبيـاء والمرسلين، فإن الشريعة حاكمة على الناس أجمعين.

القضاء والقدر

الإيمان بالقضاء والقدر، أي الإيمان والاعتلااف بأن كل ما وجـد، أو هو موجود الآن، أو سيوجد، فهـو بقـدرة اللـه تعـالى، وخلقـه وإيجـاده وإبداعـه من العـدم، حسـب إرادتـه وعلمـه، كالـذرات المعدومـة، والأرواح المكتومـة الـتي أبـدعها من الانتفـاء إلى الوجود، وكالتركيب من الأجزاء الموجودة شيئاً في صورة حادثة لم تكن قبـل. فالممكنـات بأسـرها مسـخرة للأمـر الإبـداعي المرجح للوجـود على العـدم، أو للعـدم على الوجـود. فكمـا أن إيجاد المعدوم فعل فاعل قـادر، كـذلك إعـدام الموجـود. وذلـك لانحصار الموجـود في الـواجب الـذي لا يقبـل العـدم، والممكن الذي يقبل الوجود والعدم والأول فاعل مطلق، والثـاني منفعـل مطلــق، ولا مجــال للممكن أمــام الــواجب من التخلــف عن مقتضى القدرة والإرادة قيد شعرة، ولذلك يقول سبحانه ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (1)، فـإن هـذه الجملة المدهشة كناية عن سرعة نفوذ القدرة في المقــدورات واستحالة تخلفها عنها، مع العلم أنه يجـوز توجيـه الخطـاب في جملة (كن) إلى الأمر الحاضر في علمه تعالى، ويراد به ظهوره وخروجه من عالم العلم

(1) سورة يس الآية 82.

والصورة العلمية الصرفة إلى عالم الأعيان الخارجية التي تكون مبدأ للآثار المقدرة.
فالكائنات بأسرها من المحيط والمحاط، وكل ما دخل في دائرة الوجود والتعين والانضباط أثر قدرة الفاعل المختار)) ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن (([1].
وقد اتفقت الملل المهتدية بالنقل السليم والعقل المستقيم، على أن كل ما سوى الله تعالى بخلقه، ويدخل في ذلك السموات ونجومها، والأرض وتخومها، والأجواء وغيومها، والصغير والكبير والهواء والأثير، بما في الأرض من المعادن، والنبات، والحيوان، والإنسان، ذواتها، واستعداداتها، وأفعالها وصفاتها. من الحياة، والعلم، والإرادة، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام، وسائر ما يدخل في نطاق التصوير، سواء وقع في التعبير أم لم يقع فيه لضيق التقدير.
ولكن في الحركات والسكنات والآثار النظامية التي تدخل في نطاق إرادة الإنسان وطاقته، كلام. والذي جاءت به الشريعة السماوية والعقول المهتدية، هي أيضاً بخلقه وإيجاده تعالى، لكن لها علاقة بالإنسان تعبر عنها بالكسب

[1] أورده الغزالي في الإحياء باب الدعاء عن أبي الدرداء، وقال الحافظ العراقي أخرجه الطبراني وهو ضعيف. انظر الأحياء (1/283-284). وذكره الخيالي في حاشيته على شرح العقائد النسفية للتفتازاني في مبحث الأفعال. انظر شروح العقائد (1/148) مطبعة الكردستان العلمية.

والاكتساب، أو بالفعل، أو بالعمل النظـامي الإرادي. ويـدل على ذلك دليل النقل ودليل العقل. أما دليل النقل فهو كقوله تعـالى ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [1]، وقولـه ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [2]، وقوله ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [3]. الآيات تدل على أنها بخلقه تعالى.

وقوله تعـالى ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [4] وقولـه تعـالى ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾ [5] وقولــه تعــالى ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ * وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [6] وكقوله تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ [7].

وأنـه لـو لم يكن للعبـاد كسـب وعمـل إرادي يـدخل في نطـاق علمه وإرادته وتصرفاته، ما كان يرسل الرسل إليهم، ومـا كـان يشرع الأحكام عليهم.

وأما الدليل العقلي، فهو أن الإنسان يعلم علمـاً قطعيـاً أن هـذا الكون البديع ليس إلا أثر فاعل كامـل مبـدع، وأن وجـود نفسـه وشخصه وصفاته أثر الفاعل، وليس له دخل

---

[1] سورة الزمر الآية 63.
[2] سورة الزمر الآية 62.
[3] سورة الصافات الآية 96.
[4] سورة الأحقاف الآية 14.
[5] سورة البقرة الآية 286.
[6] سورة الزلزلة الآية 7.
[7] سورة البقرة الآية 286.

فيه، وإلا كان يختار لنفسه ما يعجبه ويعجب العالم من الصفات الكمالية والأحوال البهية والمناقب السنية، كما يعلم علماً قطعياً أن تلك الأفعال التي يباشرها لا يعلم تفصيلها وكمية أجزائها وحركات العضلات في تحصيلها، فهذه الملاحظات تدل على أن خالقها هو الله سبحانه. كما أن عنده علماً ضرورياً بأنه ليس منقطع العلاقة عن أعماله وأفعاله، فإنه يفرق بالبديهة بين حركاته ورعشاته إذا جاءه الخوف المفزع أو المرض المزعج، وبين حركاته الاصطناعية في الرياضة والمشي والركض وراء ما يقصده ويرغب فيه، أو عما يخافه ويهرب عنه.

وأنه لو لم يكن للإنسان علاقة واقعية، لما سعى البشر منذ خلق في التطور من حال إلى حال ومن سيء إلى حسن ومن حسن إلى أحسن، ولما أنشئت المدارس للتربية والتعليم. وما كان ينتقل الإنسان في بساط الأرض طالباً حصول علم يهديه إلى السعادة وينجيه من الشقاوة، ولما جاء على أحد لوم وتوبيخ في أي عمل إجرامي، وأي دناءة نفسية وقذراة شخصية، وما ورد عليه مدح وثناء في أي عمل رشيد واختراع وإبداع ومقاومة للمفاسد وهداية للرشاد. وخلاصة كل تلك الأدلة النقلية والعقلية هي أن الكائنات جميعها بخلق الله تعالى، وأن للإنسان علاقة في أفعاله الإيجايية والسلبية، وأن الإنسان مخير وليس مسيراً.

وأما هذه العلاقة التي بها يكون الإنسان مخيراً، فهي أنه لا شك أن الإنسان ليس جامداً كالمعادن فقط، ولا نامياً

كالنباتات فقط، ولا حساساً كالحيوانات العجم فقـط، وإنمـا هـو كائن نام حساس ناطق، أي أنـه عاقـل لـه قـوة إدراك الكليـات العقليـة والجزئيـات الحسـية، وأنـه بعلمـه يمـيز بين المنـافع والضار، وبإرادته يخصص ما يرى فيه المصلحة ويرجحه على ما لا يـرى المصـلحة فيـه وينبعث من علمـه وإراداتـه نشـاط ومـد أعصاب إلى تنجيـز مـا تعلـق بـه العلم والإرادة ويتصـمم عزمـه عليه، فيخلق الله سبحانه وتعالى ما علمه وإرادة وصمم العـزم عليه. وإن شئت فقل أن الكسب هو تصـميمك العـزم وإرادتـك الجزئية المتوجهة نحو المراد التي هي شرط عـادي لخلـق اللـه تعالى له، فالتصميم والإرادة الجزئية منـك والخلـق للـه تعـالى، والـدليل على الأول قولـه تعـالى ﴿لَهَـا مَـا كَسَـبَتْ وَعَلَيْهَـا مَـا اكْتَسَـبَتْ﴾ وعلى الثـاني قولـه تعـالى ﴿ ﴿اللَّهُ خَالِـقُ كُـلِّ شَيْءٍ﴾ وقوله ﴿وَ ﴿اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

فإن قلت: هـذا كلام مفهـوم ولكن هنـاك مـا يعارضـه، حيث دل الدليل على أن كـل عمـل لكـل عامـل سـبق في علمـه تعـالى وتعلقت به إرادته، وعلمه لا يتبدل وإرادتـه لا تتحـول، فقـد روى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه بسند صحيح أنه صلى الله عليـه وسـلم قـال ((السـعيد من سـعد في بطن أمـه والشـقي شقي في بطن أمه))[1].

[1] أخرجه البزار بسند صحيح عن أبي هريرة، كما قاله الحافـظ الهيثمي في مجمع الزوائد (7/197).

وما روى عن ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال ((أن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً، ويؤمر بأربع كلمات ويقال له اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار. وأن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة))[1].

وأن هذ الحديث الشريف حديث عظيم الفوائد، وإنكار عمرو بن عبيد من زهاد القدرية له من ترهاته وخرافاته [2]، وقول الخطيب الحافظ هو والله الذي لا إله إلا هو من كلام ابن

<241>

[1] أخرجه البخاري في باب القدر. انظر القسطلاني (9/343-346). وكرره في كتاب التوحيد باب ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين.

[2] راجع تاريخ بغداد للخطيب (12/166-188) ترى تفصيل ذلك.

مسـعود، تعقبـوه، أي ردوه عليـه بإثبـات إسـناده إلى الرسـول صلى الله عليه وسلم.

قلنا: إن ما قلت أمر صحيح ومسلم ولكنه لا يخالف ولا يعـارض ما قررنا، لأن علمه سبحانه وتعالى شامل أزلاً وأبداً لكـل عمـل ولكل عامل، ولكل تصميم وتوجيه يحصـل منـه، وإرادتـه تعـالى تابعة لعلمة، ولا ينكر أحد ذلك ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [1] وقد صح «أن ما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن» [2]. لكن العلم كشـف أزلاً مـا أنت تعملـه باختيـارك وإرادتـك، وإرادته تعلقت به حسب علمه بذلك، فالعلم ليس مجبراً، وإنمـا هو مظهر، والإرادة منه تعالى تابعة لعلمه الكشاف، وليس أمراً إخبارياً يوجب عليك الأمر بالقهر والاعتساف.

فمثل علمه سبحانه وتعـالى كمثـل مـرآة واسـعة أمـام شـخص ينظر فيها ويرى فيها صورة من يمر في مقابلها، مع أن ذلك

---

[1] سورة الملك الآية 14.

[2] سبق تخريجه في ص 237.

الشـخص لم يـأمر أحـداً بـالمرور، ولم يجـبر أحـداً على العبـور فالعلم ثابت وحاك، والمعلوم محكى، والعلم يظهر أنك ستفعل ذلك بإرادتك وتوجهك.

وهذا أمر جلي واضح، وكل من خرج عنـه وقـع في تنـاقض مـع نفسه وحرج.

فإنه كما سبق علمه بأعمالك وتصرفاتك، سـبق علمـه بمرضـك وتداويك، أو عدم تداويك، فهل تقول: لا فائدة في التداوي، فإنه سبق في العلم ماذا يكون؟ وسبق علمه بمدة حياتـك ومعيشـة نفسك وعائلتك المرفهة أو المضيقة، فهـل تقـول: لا فائـدة في السـعي والجهـد حـول تحصـيل النفقـة، فإنـه مضـى في علمـه حياتي ومعيشتي ومعيشة عائلتي، ولا فائـدة في الـركض حـول ذلك؟ وإذا قتل شخص شخصاً، فقد سبق في علمه ذلـك، فهـل تقول إنه سبق علمه بالجناية ومآلهـا فلا معـنى للقصـاص وأخـذ الدية وغير ذلك؟

نعم كـل ذلـك سـبق في علمـه، وسـبق في علمـه مباشـرتنا لأسباب المرادات على اختلاف أنواعها، أو عـدم مباشـرتنا لهـا. وكسلنا عن أداء الواجب من جانبنا، ولا شبهة أن العلم في كـل ذلك قد كشف ما يكون على حسب اختيارنا وإرادتنا.

وعلى ذلك تمشي قاعدة (أن الصدقة تدفع البلاء وتزيـد العمـر) أي أن الله قرر أن يكون عمر فلان أربعين < 243 >

سنة إذا كان عاق لوالديه وقاطعـاً لأرحـام من ينتمي إليـه، وأن يـنزل عليـه بلايـا إذا بخـل بـأداء واجب وجب عليـه، وأن يكـون عمـره سـبعين سـنة إذا كـان بـاراً بالوالـدين، وواصـلاً لأرحـام الأقــربين، وســخياً في أداء الــواجب وصــرف الخــيرات على الفقراء والمعـوزين، ويعلم أنـك من أي الفـريقين في اختيـارك وتصرفاتك، فإذا قال لك شخص لماذا تتصـدق على المحتـاجين أو لماذا تصـل أرحامـك فإنـك لا تصـل إلى خـير واء ذلـك فلا <244>

تضيع مالك. فجوابه أنه جاهل بسنة الله في الكون فحقــه أن لا يغسل بدنه حتى من الأوساخ، لأنه سبق في علمه كل ما يجري على جسده فيموت في لباد من الأقذار ويقذف في قعر البحار. فنحن نمشــي على نظـام الإرادة والاختيـار، والله هـو الفاعـل العليم القادر المختار، والجهلة يظنون من أن القضاء والقــدر لا يتغير، وأن لا فائدة في حركاتنا وسكناتنا. ولا يعلمون أن الفـرار من الوبـاء قضـاء، وأن الصـيانة بالمعـدات الحربيـة قضـاء، وأن الرعاية في أداء الأمانة قضاء، فواجبنا

أن نمشي على طريقة تنكشف من سـلوكها قضـاء يعـود علينـا بالمنفعة والسعادة في الدارين.
ولم يكن في تأريخ الرسل رسول أفضل من سيد الرسل محمد صلى الله عليه، وأوثق بربه تعالى، وأقوى تـوكلاً عليـه، مـع أنـه يمر الأيام والليالي، وهو مستمر في الجهـاد والكفـاح والإرشـاد والإصلاح، وإعداد العدد والسلاح، بالإضافة إلى ما يقـوم بـه من صـيامه بالنهـار وقيامـه بالليـل، ومن أذكـاره وأوراده وقراءتـه للقرآن
الكريم، واستعاذته بالله من الشيطان الـرجيم، وكـل ذلـك على أي جهـة من الجهـات، كـانت ولن تـزال معلومـة للـه سـبحانه وتعالى. والموفق يدري أنه مكلف ويدري أنه لولا طاقة منه مـا كلفه الله فيعمل ويستمر على أمـر اللـه، حـتى يفـوز بسـعادة الدارين. ﴿ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ [1].

الأجل

ومن نور الإسلام الإيمان بأن الأجل واحد، فإذا مات رضيع يلـدغ عقرب، أو مات شيخ هـرم في فراشـه، فقـد مـات بأجلـه. وإذا قتل رجل في ساحة الحرب، أو برمي ظالم، أو مات شـاب في جو ملائم، فقد مات بأجله.
ذلك لأن الأجل بمعنى آخر زمان الحياة: عبارة عن آن علم الله تعالى انتهاء حياة الشخص فيه، سواء تعلق علمه

[1] سورة الكهف الآية 10.

تعالى بأن ذلك الانتهاء يكون شيئاً اعتيادياً، أو يكون بعارض غـير اعتيادي.
وأما قول الفلاسفة بأن الأجل أجلان: أجل طـبيعي، وهـو عبـارة عن وقــف انطفــاء الحــرارة الغريزيــة للحي، بســبب انتهــاء الطاقات، وقابلية الحيـاة في ذلـك الشـخص، وأجـل انخـرامي، وهـو عبـارة عن انتهـاء حياتـه، بسـبب عـارض. فهـو شـي غـير مقبول، لأنا لا ننكر أن لأجزاء البدن طاقات، ولا تنكر المعارضـة للبلوى والآفات، ولكنا نقول: أن علم الله سبق بانتهائه في ذلك الحين، فلا يبقى للتخيلات والفرضية مجال، فهـو مثـل أن يقـول قائل: لو درس فلان في مدرسة عالية إلى أن يتجاوز المراحــل كلها، لصـار دكتـوراً كبـيراً، ولـو امتنـع عن الدراسـة لكـان أميـاً جاهلاً، ولكن تحقق الأمر الثـاني في الواقـع فواقعـة أنـه أمي لا غير.
ومثل قول الفلاسفة، قـول الكعـبي القائـل: بتعـدد الأجـل على وزان ما ذكرناه عن الفلاسفة. وأما قـول جمهـور المعتزلـة: أن الأجل واحد، ولكن قد يقطـع عنـه الأجـل ولا يمـوت بأجلـه، بـل يقتل قاتل، فلا معنى له قطعاً، لأن الله إذا قرر أن يكـون أجلـه بعد انقضاء مائة سنة، فكيف يمكن لأحد أن يمنع ما قـدره اللـه لحياته؟ وإنما قرر أن ينتهي بقتل القاتل وهذا الرأي أيضاً مأخوذ من نظرية الفلاسفة، وجواز امتداد الحياة لو لم يمنع عنها مانع.
ونحن نقول بهذا الجواز ولكنه لا يفيد، لأنه لمـا علم اللـه تعـالى بطلان حياته في ذلك الوقت بقتل القاتل فلا يبقى معـنى لأجـل آخر، ولقطع ذلك الأجل عليه.

فإن قلت: فـإذا كـان الأجـل هـو الـوقت الـذي علم اللـه بطلان الحياة فيه، ولا يقبل التغير مطلقاً، فما معنى خوفنا من الحرق، والغرق، والحرب، والضرب، وغير ذلك؟ قلنا: وجـه الخـوف هـو أنـا لا نعلم الغيب، ولا نعلم بكيفيـة تعلـق علمـه بحياتنـا، ولعلـه تعلق بانتهاء الحياة بسبب النار، أو بسبب الوقوع في البحــر، أو بسيف محارب، أو بضربة ضارب، وكـل ذلـك مجهـول لنـا، ومن ناحية أخرى جرت السنة الإلهية، بـأن النـار محرقـة، وأن المـاء مغرق، وأن الضرب مؤلم، والسيف معدم، فلنـا مجـال للخـوف منها والابتعاد عنها بقدر الإمكـان حفظـاً للنظـام، مـع أن الأجـل محتوم والقضاء مبرم معلوم.

الله هو الهادي

ومن نور الإسلام الإيمان بأن اللـه سـبحانه وتعـالى هـو الهـادي وهو المضل، أي أنه تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

ونقصـد بالهدايـة والضـلال هنـا الوصـول إلى المطلـوب الخـير، أعني سعادة الدارين وضد ذلـك. وممـا لاشـك فيـه أن الاهتـداء الناتج عن الهداية، والضلال الناتج عن الإضـلال، وصـفان للعبـد، وأن لكل منهما أسباباً كسائر الممكنات المحسوسة والمعقولة.

فمن أســباب الأول ســماع الحــق من المحقين، والوعــظ من الواعظين، والانقياد لإرشاد المرشدين، والتفكر في آثار

قـدرة رب العـالمين، وتـأديب النفس ورياضـتها، وكبح جماحهـا، وردهـا عن غيهـا وشـهواتها. وأهم أسـبابه صـحبة أهـل التقـوى واليقين، ومجالسـة العـارفين، وتوقـيرهم، وطلب الـدعاء منهم والتأدب بآدابهم، ومطالعة كتبهم والسلوك على سبيل سيرتهم. كما أن من أسباب الضلال أضداد ذلك.

ومما لاشك فيه أن الله تعالى خلـق للإنسـان العقـل والحـواس الـتي يطلـع بهـا على الحقـائق والـدقائق، فمن اسـتخدمها في العلم بالأشياء كما هي عليه، والانتفاع بها على الوجه الصـواب، وأصغى لمن ألقى إليه الـدليل الصـحيح، واسـتمع القـول واتبـع أحسنه، فهو الموفق السعيد في الدارين، ومن اسـتخدمها على خلاف ذلك فهو المخذول البعيد فيهما، فالمخذول يجب أن يلوم نفسه، لأنه هو الـذي ضـيع اسـتعداده وحواسـه وعقلـه وإدراكـه حتى خلق الله له الضلال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [1].

والموفق يجب أن يحمد ربه على أن آتاه فرصة استخدامها في الخـيرات، ويقـول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [2].

نعم إن الله سـبحانه وتعـالى قـادر على أن يجعـل النـاس على قلب رجل واحد أي يضل الجميع، أو يهـدي الجميـع ولـو الكفـار والأشرار ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [3] لكنه تعالى

---

[1] سورة يونس الآية 44.

[2] سورة الأعراف الآية 43.

[3] سورة النحل الآية 9.

مختـار في أفعالـه، ولا عتـاب عليـه بعـد مـا أفـاض الاسـتعداد والقابليـة للخـير والشـر في كـل نفس منفوسـة، فـإذا زاد على ذلك بالفضل والكرم، ووفق هذا للتوجـه إلى الخـير فهـو فضـله ورحمته، وإن لم ينظر إلى هـذا ولم يحسـن إليـه فـذلك حكمـه وحكمته وهو في كل فعال محمود.

وممــا يجب الانتبــاه لــه أن اســتحقاق العبــد للجــزاء، وفــوزه بالــدرجات نتيجــة لمصــابرته وجهــده في أداء الواجبـات وكـف النفس عن المحرمات، وإلا فلو منعه اللـه سـبحانه وتعـالى عن الحرام، ولم يجعله في محل يتناول حراماً ما لم يبق لـه مجـال التخلق بالعبودية، لأنه لا يمدح الأعمى بأنه لا ينظر إلى الأجانب، والأصـم بأنـه لا يسـمع اللهويـات، وغنمـا المـدح للبصيرالسـميع الـذي يـؤدي الـواجب مخلصـاً وخالصـاً لوجهـه الكـريم، ويـترك الحــرام خوفــاً من عقابــه العظيم أو إجلالاً لعظمتــه وقــدره الجسيم، وعليه قال تعـالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَـافَ مَقَـامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [1].

نسأله الفوز من رحمته برضاه يوم لقائه أنه أرحم الراحمين.

(1) سورة النازعات الآية 40.

الله مختار

ومن نور الإسلام الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى مختار في كل ما خلقه ويخلقه، وخلقه للأشياء مقرون بالعلم الكامل والإرادة والقدرة والحكمة، فلا يجب عنه ولا يجب عليه شيء، والكائنات تحت ملكه وسيطرته يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، إذا أثاب على الأعمال الصالحة أثاب بفضله، وإذا عاقب عاقب بعدله. يغفر لمن يشاء ما شاء سوى الكفر، فلا يغفره، لأنه أخبر بأنه ﴿ لَا يَغْفِرُ أَن يُشرَكَ بِهِ ﴾[1]. وذلك الغفران ليس مشروطاً بالتوبة، بل له الغفران لذنوب المذنبين ما عدا الكفر، تاب أم لم يتب. وغفرانه للتائب توبة صحيحة لوعده به، لا للزومه عليه. ولا يستحق أحد الجنة ونعيمها الأبدي بعمله فإنه لا يساوي ذلك، وإنما هو فضل وإحسان وكرم ورحمة واسعة.

ومع أن كل شيء بخلقه وإرادته، لكنه لا يرضى لعباده الكفر والفسوق والعصيان، ولا يستحبها، فإن الإرادة غير الرضا والمحبة، ألا ترى أنك تريد إجابة دعوة بعض الداعين إلى بعض الأمور، وتستجيب الدعوة مع أنك كاره له غير راض وغير محب. فقد تريد شيءاً وتحبه كأكل طعام لذيذ نافع، وقد تريد ولا تحب كما في أكل الشيء اللذين الذي أشار الطبيب إلى امتناعك عن أكله، وقد تحب شيئاً ولا تريده كما تحب أن تسافر للحج ولا تريد السفر بالفعل لبعض الموانع.

[1] سورة النساء الآية 48.

رؤية الله يوم القيامة

ومن نور الإسلام الإيمان بأن المؤمنين يرون الله سبحانه وتعالى يوم القيامة بعيون الرأس رؤية واقعية عينية، للدليل عليها من الكتاب والسنة. أما الكتاب فقوله تعالى ﴿وُجُوه يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَة﴾ [1]، وأما السنة فقوله عليه الصلاة والسلام)) إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر ((.[2]

وأما قوله تعالى خطاباً لسيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [3] فهو لنفي وقوع الرؤية في الدنيا، لا لنفي وقوعها في الآخرة، وذلك لأن القوى الدنيوية لا طاقة لها في إزاء تلك الرؤية، وقوله تعالى ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [4] أي لا تدركه في الدنيا، أو لا تدركه إدراكاً وافياً بالمرئي، أو لا تدركه أبصار الكفار، بدليل قوله تعالى ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [5]. وأما الاعتراض بأن الرؤية تحتاج إلى بعض شرائط لا تتحقق في رؤية الله تعالى، فمدفوع بأنه من باب قياس الغائب على الشاهد، وذلك قياس فاسد، فإن الله سبحانه حي، والحياة فينا تحتاج عادة إلى بنية ومزاج، وليست حياته تعالى كذلك، وهو تعالى عليم، والعلم فينا يحتاج إلى القلب والدماغ

[1] سورة القيامة الآية 23.
[2] سبق تخريجه بالتفصيل في ص28.
[3] سورة الأعراف الآية 143.
[4] سورة الأنعام الآية 103.
[5] سورة المطففين الآية 15.

وأشـياء أخـرى، وليس علمـه تعـالى كـذلك، وهـو تعـالى متكلم والكلام فينـا يحتـاج إلى بعض قـوى نفسـانية، وإلى بعض آلات حسية، والله تعالى بريء عن ذلك كله. فالواجب هو الإيمان بما جاء الكتابة والسنة به، وتفويض حقيقته وكيفيته إلى الله العليم الخبير.

البرزخ

ومن نـور الإسـلام الإيمـان بالنعمـة والنقمـة البرزخيـان، أي التصديق بأن للميت من حين موتـه إلى بعثـه للحشـر عـذاباً، أو راحة ونعمة من الله سبحانه وتعالى بالنسبة إليه، فالمكلف بعد الموت سواء كان حريقاً أو غريقاً، أو مقبوراً، فهـو من آن موتـه إلى وقت البعث والقيامـة الموعـودة، إمـا في راحـة ونعمـة، أو في عذاب ونقمة.

والآيات والأحاديث الصـحاح الـدالات على عـذاب القـبر ونعيمـه وسـؤال الملكين لـه أكـثر من أن تحصـى، بحيث يبلـغ القـدر المشترك من الأحاديث حد التواتر، وإن كان كل واحد منهـا من أخبار الآحاد، واتفق عليه السلف الصـالح قبـل ظهـور المخـالف من أهل البدع والأهواء.

ومن أدلة الكتاب على ذلك قوله تعالى في شأن قوم نوح عليه السلام ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ [1] فـإن ظـاهر الفاء في قوله تعالى ﴿فَأُدۡخِلُواْ﴾ للتعقيب بدون مهلة، فيكـون معناه الإدخال في النار البرزخي فوراً بعد الإغراق.

[1] سورة نوح الآية 25.

ومنها قوله تعالى ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ * ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [1].

فإن ظاهر قوله تعالى ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ هو العرض في البرزخ بقرينة قوله تعالى ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ﴾ الآية.

ومنها قوله تعالى في شأن حبيب النجار ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ [2] فإن ظاهر ذلك تبشيره بالجنة والمغفرة بعد وفاته مباشـرة، والتبشير من جملة النعمة البرزخية.

ومنها قوله تعالى ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [3] قال القرطبي [4] في تفسيره: نزلت في عذاب القبر يقال: من ربك فيقول ربي الله وديني دين محمد، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ وقد جاء هكذا موقوفاً في بعض طرق مسلم عن البراء أنه قوله (أي قول البراء) والصحيح فيه الرفع كما في صحيح مسلم وسنن النسائي وأبي داود وابن

[1] سورة غافر الآية 46.
[2] سورة يس الآية 26.
[3] سورة إبراهيم الآية 27.
[4] انظر تفسير القرطبي (9/6363-364).

ماجة [1] وغيرهم عن البراء عن النبي صلى الله عليه وسلم.
وذكر البخاري حدثنا جعفر بن عمر قال حدثنا شعبة عن علقمة بن مرثد عن سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال)) إذا أقعد المؤمن في قبره أتاه آت ثم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذكر قوله ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [2].

وفي تفسير القرطبي قيل إن سبب نزول هذه الآية ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم لما وصف مسئلة منكر ونكير وما يكون من جواب الميت قال عمر يا رسول الله أيكون معي عقلي قال «نعم» قال كفيت إذاً فأنزل الله عز وجل هذه الآية [3].

ومن أدلة السنة ما رواه الشيخان أنه صلى الله عليه وسلم مر بقبرين فقال ((إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير – يعني عند الناس – زاد البخاري في رواية، بل إنه كبير – يعني عند الله – أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من البول)).

---

[1] أخرجه مسلم في كتاب الجنة. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (10/322). ورواه النسائي. انظر السنن كتاب الجنائز. (4/101-102). ورواه ابن ماجة في كتاب الزهد. انظر السنن رقم الحديث 4269. ورواه أبو داود في كتاب السنة. انظر السنن رقم الحديث 4750.

[2] انظر القسطلاني باب ما جاء في عذاب القبر (2/461).

[3] انظر تفسير القرطبي (9/363).

وفي رواية «لا يستبرئ» بدل «لا يستتر» [1] ومعنى الرواية الأولى كشف العورة للناس ومعنى الرواية الثانية عدم اهتمامه بانقطاع قطرات بوله وقيامه من محله وتوسخ بدنه أو ثوبه.
وما روى أنه صلى الله عليه وسلم يقول من جملة أدعيته المأثورة ((اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من عذاب النار وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال)) [2] وجاءت الاستعاذة من عذاب القبر في روايات كثيرة.
ومنها ما روى أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا فزع من دفن ميت وقف عليه وقال ((استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل)) [3].
ومنها ما رواه مسلم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة)) [4].

---

[1] أخرجه البخاري في باب عذاب القبر. انظر القسطلاني (2/467).
[2] أخرجه البخاري في باب عذاب القبر. انظر القسطلاني (2/466) وأبو داود في كتاب الصلاة من سننه (1/353).
[3] أخرجه أبو داود في كتاب الجنائز من سننه رقم الحديث 3221 دار إحياء السنة.
[4] أخرجه مسلم في كتاب الجنة. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (10/318)، وأخرجه البخاري في باب الميت يعرض عليه. انظر القسطلاني (2/467).

ومنها ما رواه مسلم أيضاً عن أبي سعيد الخدري عن زيد بن ثابت قال قال أبو سعيد ولم أشهده من النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن حدثنيه زيد بن ثابت قال بينما النبي صلى الله عليه وسلم في حائط لبني النجار على بلغة له ونحن معه إذ حادت به فكادت تلقيه وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة، فقال صلى الله عليه وسلم ((من يعرف أصحاب هذه الأقبر)) فقال رجل أنا قال ((فمن مات هؤلاء)) قالوا ماتوا في الأشراك فقال ((إن هذه الأمة تبتلى في قبورها فلولا أن لا تداقنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه)) ثم أقبل علينا بوجهه فقال ((تعوذا بالله من عذاب النار)) قالوا: نعوذ بالله من عذاب النار، قال ((تعوذوا بالله من عذاب القبر)) قالوا: نعوذُ بالله من عذاب القبر، قال ((تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، قال)) تعوذوا بالله من فتنة الدجال ((قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال [1].

ومنها ما رواه مسلم أيضاً عن أنس بن مالك قال: قال نبي الله صلى الله عليه وسلم)) إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه أنه ليسمع قرع نعالهم قال يأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل قال: فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله، قال فيقال له: انضر الى مقعدك من النار قد ابدلك الله به مقعدا كم الجنة قال نبي الله صلى الله عليه وسلم: فيراهما جميعا، قال قتادة: وذكر لنا انه تفسح له في قبره سبعون ذراعا ويملا عليه خضرا إلى يوم يبعثون (([2].

[1] أخرجه مسلم في كتاب الجنة باب عرض مقعد الميت. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (10/320).

[2] أخرجه مسلم في باب عرض مقعد الميت. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (10/321)، وأخرج البخاري بعضه في عذاب القبر القسطلاني (2/464).

ومنها ما رواه مسلم أيضاً عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم)) إن الميت إذا وضع في قبره أنه ليسمع خفق نعالهم إذا انصرفوا ((1] وفي مسلم أيضاً عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك قتلى بدر ثلاثاً ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال)) يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا ((فسمع عمر قول النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله كيف يسمعوا وإني يجيبوا وقد جيفوا؟ قال)) والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا ((ثم أمر بهم فسحبوا فألقوا في قليب بدر.[2]

ومنها ما رواه البيهقي وابن أبي الدنيا عن ابن عمر مرفوعاً)) القبر حفرة من حفر جهنم أو روضة من رياض الجنة ((.[3]

ومنها ما رواه ابن عمر عن النبي صلى الله عليه

<258>

[1] أخرجه مسلم في باب عرض مقعد الميت. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (10/322).

[2] سبق تخريجه في ص 231.

[3] وأخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رقم الحديث 2578 طبعة القاهرة، وأخرجه السيوطي في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في شرح العقائد النسفية. مخطوط. وتجده في فيض القدير (5/445).

وسلم)) ما من مسـلم يمـوت يـوم الجمعـة أو ليلـة الجمعـة إلا وقاه الله فتنة القبر ((1)).

والصـحيح الـذي عليـه أكـثر الأئمـة أن الثـواب والعـذاب على مجموع الروح والجسـد، لكن الجسـد الـبرزخي، لا هـذا الجسـد المادي المرئي المشهود، لأنه ربما يحرق الإنسـان فيصـير بدنـه هبـاء منبثـاً، أو يتفتت في القـبر، ومعـنى الجسـد الـبرزخي أنـه يخلق الله تعالى لروح المتنعم أو المعذب جسداً لطيفـاً كسـجد الملائكة التي لا فرق فيه بين المحل الكبير والصغير، ولا يمنعـه مانع، من قبولـه التنعيم والتعـذب، وتصـور ذلـك سـهل لمن لـه إلمام بالوحي والرسالة. ومن تأمل عجـائب الملـك والملكـوت، وغرائب صنعه تعالى، لم يستنكف عن قبول أمثال هذه الأشياء، فـإن للنفس نشـآت، وهي في كـل نشـأة منهـا تشـاهد صـوراً تقتضـيها تلـك النشـأة، فكمـا أنـا نشـاهد في المنـام صـوراً لا نشاهدها في اليقظة، كذلك نشاهد في حال انخلاعنا عن البـدن أموراً لم نكن نشـاهدها في الحيـاة، وإلى ذلـك يشـير قـول من قال: الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا.

فإنـا نصـدق بـأن القـبر يوسـع على الميت من أهـل السـعادة بمقدار ما يعلمه الله تعالى، وأنـه يبقى في النعيم إلى مـا شـاء الله. وكذلك نصدق بأن الحية مثلاً موجودة تلدغ الميت، ولكنا لا نشـاهد ذلـك فـإن هـذه العين لا تصـلح لمشـاهدة تلـك الأمـور الملكوتية، وكل مـا يتعلـق بـالآخرة فهـو من عـالم الملكـوت <259>

---

[1] ذكـره السـيوطي في الجـامع الصـغير وحسـنه. انظـر فيض القـدير للمناوي (5/449).

وليس كلامنا سفسطة وخداعاً عادياً، وإنما هو مبني على العلم والحقيقة الواقعية، ألا ترون أن الصحابة رضي اللـه عنهم كيـف كانوا يؤمنون بنزول جبرائيل على الرسول صلى الله عليـه ومـا كانوا يشاهدونه، ويؤمنون بأنه صلى الله عليـه وسـلم يشـاهده، ويجب أن نؤمن كما آمنوا بـذلك، ويؤمنـون بـنزول الملائكـة في واقعة بدر وحنين، وما كانوا يشاهدونها إلى غير ذلك من الأمـور الغيبيـة البرزخيـة. وكـذا نـؤمن بمـا روينـا من حيـاة الأنبيـاء في قبورهم، وليس ذلك ممـا يـدرك بـالعيون الجسـدية، ومن يـأبى ذلك فهل يأبى نزول الوحي على الأنبياء والمرسلين؟ وهل يأبى نجاة إبراهيم من نـار نمـرود، أو ولادة عيسـى بلا أب، أو تكلمـه في المهد، أو صنعه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيهـا فيكـون طـيراً بـإذن اللـه، أو إبرائـه الأكمـه والأبـرص بإذنـه، أو إحيائـه الموتى؟ ومن يستغرب ذلك فليعلم أنه على نقص من الإدراك، فإن العالم فيه نواميس كونية مادية علمية توصل إليها بـالعلوم المادية، وفيه نـواميس علميـة معنويـة غيبيـة لا يوصـل إليهـا إلا علم من لدن حكيم عليم خبير يختص بـه من يشـاء. هـدانا اللـه وإيـاكم إلى الإيمـان الكامـل بـالغيب، حـتى نـدخل في حظـيرة القدس بتوفيقه إنه هو الموفق وهو المعين. <260>

الإيمان بالآخرة

ومن نور الإسلام الإيمـان بـاليوم الآخـر، أي الإيمـان والتصـديق بفناء هذا العالم المحسوس بسـمائه ونجومهـا، وبـرق الشـمس والقمـر، وبـزوال هـذا الوضـع المشـاهد من الجبـال والأوهـاد وغيرها، وحدوث عالم آخر وبعث الموتى من أماكنهم وسـوقهم إلى صعيد واحد فيسألون ويحاسبون، ويحكم بينهم بالعدل، فإن كـانوا من الكفـار فمصـيرهم إلى النـار خالـدين، وإن كـانوا من المؤمـنين العصـاة، فإمـا يعفى عنهم ويغفـر لهم، وإمـا يكـون مصيرهم إلى النار بقدر ما عليهم من العقاب، ثم يخرجون منها إلى الجنة خالـدين، وإن كـانوا من المؤمـنين الأبريـاء، فـأمرهم بدخول الجنة بكرامة وسلامة وخلود أبد الآبدين.

ويعبر عن فناء هـذا العـالم بالسـاعة، وقبـل البحث عنهـا ينبغي البحث عن علاماتها، فإن وقت حلولها غير محـدود، قـال تعـالى ﴿يَسۡأَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [1]، وقـال ﴿إِنَّ ٱلسَّـاعَةَ ءَاتِيَـةٌ أَكَـادُ أُخۡـفِيهَـا لِتُجۡزَىٰ كُـلُّ نَفۡسِۭ بِمَـا تَسۡعَىٰ﴾ [2] فالسـاعة حـق ووقتهـا غيب، وحلولها أقرب من كل قـريب، قـال تعـالى ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّـاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾ [3].

---

[1] سورة النازعات الآية 42.
[2] سورة طه الآية 15.
[3] سورة النحل الآية 77.

وعلائم الساعة كثيرة مذكورة في كتب مختصة بالموضوع، ونقتصر منها على ما يكتفى به هنا فقد قال صلى الله عليه وسلم)) لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة دعوتهما واحدة، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يقبض العلم وتكثر الزلازل ويتقارب الزمان وتظهر الفتن ويكثر الهرج (وهو القتل)، وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم رب المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه لا أر ب لي به، وحتى يتطاول الناس في البنيان، وحتى يمر الرجل بقبر أخيه فيقول ياليتني مكانه، وحتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً.. ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها (((رواه الأربعة) [1].

وظاهر فقرات علائم هذا الحديث الشريف إلى قوله صلى الله عليه وسلم وحتى تطلع الشمس تنطبق على ما حدث بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى دور تابعي التابعين ولا بأس فإن بعثه صلى الله عليه وسلم من علائم الساعة أيضاً

[1] البخاري كتاب الفتن. انظر القسطلاني (208-140/204) ومسلم في كتاب الفتن مختصراً شرح النووي في هامش القسطلاني (10/339)

فيقول)) بعثت أنا والساعة كهاتين ((1) مشيراً إلى إصبعين من أصابعه الشريفة.
ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم وهو يليط حوضه الخ، أنه يصلح حوضه بالطين ليسقي منه مواشيه فتقوم الساعة قبل سقيهم.
وعن حذيفة الغفاري رضي الله عنه قال اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال ما تذكرون قالوا نذكر الساعة. قال)) إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم ((2) رواه مسلم والترمذي وأبو داود..
وفي هذا الحديث ذكر علائم مهمة تقترب من حلول الساعة كما هو الظاهر من مدلوله..
وعن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال)) لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطوَّل الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً مني أو من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئنت ظلماً وجوراً ((3)

---

(1) أخرجه البخاري في الرقاق، انظر القسطلاني (9/292). ومسلم في كتاب الفتن. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (10/419).
(2) أخرجه مسلم في كتاب الفتن. انظر النووي في هامش القسطلاني (10/353-354). ورواه ابن ماجة في سننه كتاب الفتن رقم (4041) و(4055) وأبو داود. انظر السنن كتاب الملاحم (2/449).
(3) أبو داود. انظر السنن (2/421-422).

رواه أبو داود والترمذي بسند صحيح، قال الحافظ ابن حجر في فتح البـاري تـواترت الأخبـار بـأن المهـدي من هـذه الأمـة، وأن عيسى عليه السلام سينزل ويصلي خلفه، وقـال الحافـظ أيضـاً الصحيح أن عيسى رفع إلى السماء وهو حي، وقـال الشـوكاني في رسالته المسماة بالتوضيح في تواتر مـا جـاء في الأحـاديث في المهدي والدجال والمسيح، وقد ورد في نزول عيسى عليـه السلام تسعة وعشرون حديثاً ثم سردها، وقال بعد ذلك وجميـع ما سقناه بالغ حد التواتر كما لا يخفى على من له فضل اطلاع، يعني أن أفراد الأحاديث وإن لم تكن متواترة فقـد بلـغ المعـنى المشترك حد التواتر، وكفى به شاهداً على المطلوب.

ومن علاماتها ما ذكره صلى الله عليه وسلم في جواب السـائل بقوله الكريم)) أن تلد الأمة ربتها (أي سيدتها) وفي روايـة ربهـا (أي سـيدها) وأن تـرى الحفـاة العـراة العالـة رعـاء الشـاء يتطاولون في البنيان ((1) الحديث.[1]

والعلماء فسروا الفقرتين بالمعنى المشهور، واعتقـد أن معـنى الفقرة الأولى كثرة عقوق البنين والبنـات لأمهـاتهم لقلـة تـأثير التربية وضعف الحياء ووفور الانحراف في البيئة

<264>

[1] الحديث بطوله أخرجه مسلم في كتاب الإيمان (1/36). والنووي في الأربعين، وابن رجب في الأربعين ورواه أحمد في المسند (4/333).

والمجتمع، وتأثر الناس بتقليد الأجانب، فتختلـف أحـوال النسـل مـــع الأصـــل، فيتجـــرد الجيـــل عن الأخلاق الفاضـــلة والنبـــل والشهامة، فلا يراعون حقوق الآباء والأمهات وصلة الأرحام.
ومعنى الفقرة الثانية تطور العالم إلى حيث تأخذ البلاد زخرفها، وتتزين بمـا يعجب النـاظر، فـإذا تزخـزفت وازينت تـرك النـاس البوادي والقرى والأرياف ودخلوا في البلاد، وانخرطوا في سلك المعـتزين بالـدنيا والمغـترين بمتاعهـا، وينخرطـون في أنظمـة أهلهـا في مقابـل مـال وجـاه ينالونهمـا، فيبنـون دوراً راسـخة ويشيدون قصوراً شامخة، ويتنافسون بينهم في الأمـور الحيويـة كما نشاهد في أهل زماننا هذا.
ومن علامـات السـاعة توسـيد الأمـر إلى غـير أهلـه، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنها بينما رسول الله صـلى اللـه عليـه وسلم يحدّث القوم جاء أعـرابي فقـال مـتى السـاعة؟ فمضـى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدّث فقال بعضهم سمع مــا قال فكره ما قال، وقال بعضهم لم يسمع حتى إذا قضى حديثه قال أين السائل عن الساعة؟ فقال هذا يا رسـول اللـه، فقـال: ((إذا ضـيعت الأمانـة فـانتظر السـاعة)) قـال كيـف إضـاعتها؟ قال((إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة))[1].
وفي فيض القـدير، وإنمـا دل على دنـو السـاعة لإفضـائه إلى اختلال الأمـر والنهي، ووهن الـدين، وضـعف الإسـلام، وغلبـة الجهل، ورفع العلم، وعجز أهل الحق عن القيام به ونصرته.

[1] أخرجه البخاري عن أبي هريرة في الرقـاق بـاب رفـع الأمانـة. انظـر القسطلاني (9/284).

والعامل الأُقوى في توسـيد الأمـر من الحكم والقضـاء والإفتـاء والتدريس والإمامة والخطابة ونحوها إلى غـير أهلـه، قلـة العلم من المولين والمتولين، فقد روى عن ابن عمرو بن العـاص أنـه صـلى اللـه عليـه وسـلم قـال ((إن اللـه لا يقبض العلم انتزاعـاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلمـاء حـتى إذا لم يبق عالماً اتخذ النـاس رؤسـاء جهـالاً فسـئلوا فـأفتوا بغـير علم فضلوا وأضلوا))[1]، قال أحمد: قال ذلك في حجـة الـوداع، وفي الباب عن أبي أمامة أيضاً وزاد فقال أعرابي، يا نبي اللـه كيـف يرفـع العلم منـا وبين أظهرنـا المصـاحف وقـد تعلمنـا مـا فيهـا وعلمناهـا نسـاءنا وذرارينـا وخـدمنا فرفـع رأسـه وهـو مغضـب فقـال: ((هـذه اليهـود والنصـاري بين أظهـرهم المصـاحف لم يصبحوا يتعلقوا بحرف مما جاءهم به أنبياؤهم))[2] فأفاد أن بقاء الكتب بعـد رفـع العلم بمـوت العلمـاء لا يعـني من ليس بعـالم شيئاً. قال ابن حجر قـد اشـتهر هـذا الحـديث من روايـة هشـام فوقع لنا من روايته أكثر من سبعين نفساً عنه....
<266>

---

[1] أخرجـه مسـلم في كتـاب العلم، انظـر شـرح النـووي في هـامش القسـطلاني (10/106)، وأخرجــه البخــاري في كتــاب العلم بلفــظ «سمعت رسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم يقـول» الحـديث، انظـر القسطلاني (1/196).

[2] رواه الإمام أحمد في المسـند (5/266). وذكـره ابن حجـر في الفتح باختصار. انظر الفتح (1/140). ورواه ابن ماجه نحوه عن زياد بن لبيــد كتاب الفتن السنن رقم 4048.

الزلزلة (والنفخة الأولى)

وأما قيام الساعة ووقوعها بالفعل، فقد جاءت منصوصة في الكتاب في آيات بينات كثيرة، وهي آتية سريعة الحصول قال تعالى ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾ [1]. وقد روينا حديثاً شريفاً ينص على أن مجيأها مفاجأة عالمية تبغت الناس وهم في معاملاتهم ومكاسبهم الحيوية، فتبغتهم ولا تبقى لهم مفراً وسعة.

ومبدؤ زلزلة الأرض اهتزازاها وخرابها، قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ * يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [2].

وقال سبحانه وتعالى ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا * وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا * وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا * يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا * يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ * فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ * وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [3].

---

[1] سورة النحل الآية 77.

[2] سورة الحج الآية 1-2.

[3] سورة الزلزلة الآية 1-8.

وعند اهتزاز الأرض وزلزالها تتلاشى الجبال، وتستوي الأرض، ولا تبقى عليها الأوهاد والتلول، قال تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [1].

وقال تعالى ﴿رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾ [2] وقال تعالى ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [3]. وأما بقاء هذه الأرض التي نحن عليها بالذات فمن المفسرين من قال: بأنها تبقى وتمتد، وتحصل لها سعة لا يعلمها إلا الله، وذلك لقوله تعالى ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [4]. ومنهم من يقول: بأنها تفنى ويخلق الله بدلها أرضاً أخرى صافية نقية بيضاء لقوله تعالى ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [5]. الآية فإن ظاهرها التبدل ذاتاً وصفة.

وأما السموات والنجوم والشمس والقمر فالآيات الكريمة تنطق بفنائها لقوله تعالى ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [6].

---

(1) سورة طه الآية 105.
(2) سورة الواقعة الآية 5.
(3) سورة القارعة الآية 4، 5
(4) سورة الانشقاق الآية 3.
(5) سورة إبراهيم الآية 48.
(6) سورة الأنبياء الآية 104.

وقال تعالى ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ * وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾ [1] وقال ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ * وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ [2] وقال ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ * وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾ [3] وقال تعالى ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ * وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ * وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ * يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾ [4] وقال تعالى ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [5]

وقالوا في تفسيرها وصارت السماء في حمرة الورد وجريان الدهن، أي تذوب مع الانشقاق. إلى غيرها من الآيات الواضحات التي تدل على فناء السموات بما فيها، وانمحاء: الشمس، والقمر، والنجوم.

<269>

---

[1] سورة التكوير الآية 1، 2.

[2] سورة الانفطار الآية 1.

[3] سورة الانشقاق الآية 1.

[4] سورة القيامة الآية 9.

[5] سورة الرحمن الآية 37.

النفخة الثانية

وهذه الحوادث كلها أثر النفخة الأولى من الملك الموكل بها، وهو إسرافيل عليه السلام، وبها يموت من هو حي في البر والبحر والجو، إلى النفخة الثانية التي تحيا بها كل مكلف قال تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [1] وبين النفختين أربعون سنة أي مدتها. وإحياء الموتى منصوص في القرآن الكريم في عدة آيات بينات، واعتقاده من أهم أركان الإيمان.

وأما أن الحياة تتعلق بأجزاء الميت بعينها، أو بمثلها فلا بأس فيها، فقد جاء في أحاديث أن الميت تحيى على حبة عجب الذنب من أواخر فقرات الظهر، ولا تبلى تلك الحبة أينما كانت ولا تتأثر بأي مؤثر، وجميع ذرات مجموعة جسد الإنسان عند موته باق في العالم سواء كانت تراباً أو ماء أو هواء، وهو على جمعها وإعادة صورتها السابقة إذا شاء قدير.

وقال سبحانه وتعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [2]

[1] سورة الزمر الآية 68.

[2] سورة يس الآية 77: 79.

إلى أن قال ﴿أَوَ لَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[1].

وقال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2]

وقال تعالى:

﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾[3].

وبعد إعادة الحياة إلى المكلفين وخروجهم من أماكنهم يساقون إلى المحشر، قال تعالى ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ * لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾[4] وقد نص القرآن على أن كل أمة تدعى بسيدها ومقتداها، سواء كان قائداً لها إلى الخير والسعادة، أو إلى الشر والشقاوة قال تعالى ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡ﴾[5].

<271>

---

[1] سورة يس الآية 80: 83.

[2] سورة الروم الآية 27

[3] سورة لقمان الآية 28.

[4] سورة ق الآية 19.

[5] سورة الإسراء الآية 71.

فيكون أول من تنشق عنه الأرض سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فتتبعه أمته على اختلاف طبقاتهم بحسب رفعة الدرجات في الدين، ولا شبهة في أنه تتبع كل جماعة إمامها أيضاً في الدين، فإن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم إمام الأئمة وسيد الأنام وعند ذلك أشرقت الأرض بنور مخلوق بأمر الله سبحانه إذ لا شمس هناك ولا قمر قال تعالى ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [1].

<272>

(1) سورة الزمر الآية 68.

الحشر

قال سبحانه وتعالى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾[1].

فالناس يحشرون ويكونون على ما كانوا عليه من الأحوال في الدنيا، عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول ((يبعث كل عبد على ما مات عليه))[2]. الحديث أي فمن مات على خير بعث على حال سارة حسنة، ومن مات على شر بعث بحال شنيعة والعياذ بالله تعالى منها.

والناس في مبدء البعث والحشر تخيم عليهم الهيبة والمخافة والفزع إلا من أمنه الله بلطفه ورحمته، وجعله في ظل كرمه ورأفته، وحشره مع من أحبه من صاحب شريعته أو من كبار أمته، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال ((حشر الناس على ثلاث طرائق راغبين راهبين واثنان على بعير وثلاثة على بعير وأربعة على بعير وعشرة على بعير وتحشر بقيتهم النار تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمسي معهم حيث أمسوا))[3] رواه الشيخان.

<273>

---

[1] سورة يس الآية 51-52.

[2] رواه مسلم في كتاب الجنة. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (10/328).

[3] أخرجه البخاري في الرقاق. انظر القسطلاني (9/303) ومسلم في كتاب الجنة. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (10/312).

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قـال سـمعت رسـول اللـه صلى الله عليه وسـلم يقـول((إنكم محشـورون رجـالاً وركبانـاً وتجرون على وجوهكم))[1] رواه الترمذي.
وهذه الأحوال المذكورة في هذه الروايـات الصـحيحة بعض من أحـوال المبعـوثين المحشـورين، فـالأحوال تختلـف بالحسـن والأحسن والسيء والأسوء، إلى أحوال كثيرة لا يعلمهـا إلا اللـه سبحانه وتعالى.
وأهـل البعث والحشـر بالإجمـال أصـناف ثلاثـة: السـابقون، وأصحاب الميمنـة، وأصـحاب المشـئمة. فالسـابقون السـابقون أولئـك هم المقربـون في جنـات النعيم، وأصـحاب الميمنـة في سدر مخضود وطلع منضود وظـل ممـدود ومـاء مسـكوب، إلى آخر ما ذكر في أوصاف نعيمهم، وأصحاب المشئمة في سـموم وحميم وظل من يحمون، وهذه الأقسام الثلاثة مستوعبة لجميع الأمم من الثقلين من لـدن أول عـالم التكليـف إلى آخـره، وتفصـيل أحـوال أفرادهـا في علم علام الغيـوب. فنسـأل اللـه الـرؤوف الـرحيم أن يحسـن إلينـا بالحشـر في السـابقين المقربين، أو في أصحاب الميمنة المكرمين عنده تعالى.

[1] انظر كتاب الزهد باب الحشر رقم الحديث 2541 سنن الترمذي.

وهذا السوق والحشر يكون على أرض جديدة غير أرضنا كما هو ظاهر قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ ﴾ [1]. وهي بيضاء نقية صافية لم تقع عليها معصية [2]، أو على عين مادة الأرض الموجودة الآن، لكنها تتغير من حال وجود الجبال والأوهاد وإلى حال لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً، فذاتها عين ذات الأرض السابقة، وصفتها غير الصفة الأولى كما ذكره أصحاب التفاسير، والتبيان للقرآن الكريم والأحاديث الشريفة.

<275>

---

[1] سورة إبراهيم الآية 48.

[2] حيث ورد في صحيح البخاري عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء غفراء كقرصة النقي» الحديث. انظر فتح الباري كتاب الرقاق (11/323).

الموقف

ومن نور الإسلام الإيمان بهول وقت الحشر وعمومه للنـاس إلا من خصه الله برحمتـه ونجـاة منـه عن أبي هريـرة رضـي اللـه تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليـه وسـلم قـال((يعـرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم))[1]رواه الشيخان.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال((يوم يقوم النـاس لـرب العـالمين قـال يقـوم أحـدهم في رشــحه (أي عرقــه) إلى أنصــاف أذنيــه))[2] رواه الشــيخان والترمذي، وعن المقداد بن أسود رضي الله عنـه قـال سـمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقـول((تـدنى الشـمس يـوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل فيكـون النـاس على قــدر أعمــالهم في العــرق فمنهم من يكــون إلى كعبيــه، ومنهم من يكون إلى ركبتيـه، ومنهم من يكـون إلى حقويـه (أي منتهى اليته)، ومنهم من يلجمـه العـرق إلجامـاً))أشـار رسـول اللــه صــلى اللــه عليــه وســلم بيــده إلى فيــه. [3] رواه مســلم والترمذي.

وقد ذكر العلماء أخذاً من نصوص الأحـاديث الشـريفة، أن ذلـك العذاب المخيف المختلف إنمـا هـو بالنسـبة إلى الكفـار، وبعض العصاة من المؤمنين، وأما الباقي فيمر عليهم زمان

[1] رواه البخاري في الرقاق. انظر القسطلاني (9/310).

[2] رواه البخاري في الرقاق. انظـر القسـطلاني (9/309). ومسـلم في كتاب الجنة شرح النووي في هامش القسطلاني (10/313)

[3] مسلم كتاب الجنة. شرح النووي في هامش القسـطلاني (10/313-314).

الحشر والموقف كزمان صلاة فريضة صلاها في وقتها نسأل الله تعالى الأمان من عذابه ومن الناجين السبعة [1] الذين يجعلهم الله تحت ظل رحمته. وليعلم المؤمن أنه لا منافاة بين ذلك الحديث الشريف وبين ما نص عليه القرآن الكريم بقوله تعالى ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ [2] أي لفت على تفسير، أو انكسفت على تفسير آخر، أو أدخلت في العرش على تفسير ابن عباس رضي الله عنهما، لأن ذلك التكوير إنما هو عند الزلزلة والنفخة الأولى، ووقت البعث والحشر في ما بعد النفخة الثانية، كما قال تعالى ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَام يَنظُرُونَ﴾ [3] وفي هذا الوقت تعود الشمس كما كانت بأمر الله تعالى وقدرته، فتدنى من رؤوس الخلائق ليتعذب بحرارتها الكفار والعصاة المتجاسرون المتمردون ممن شاء الله تعذيبه بها.

ثم تتحول الشمس إلى ما يختاره ويريده الله من الفناء أو الانكدار، ولا يبقى بعد ذلك مجال للشمس، ولا للقمر، ولا لسائر النجوم، كما قال سبحانه وتعالى ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [4] أي بنور مخلوق بقدرة الباري لتنوير الموقف وإجراء المحاسبة وموازنة الأعمال.

---

[1] إشارة إلى الحديث الشريف «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» الحديث. رواه البخاري في وجوب صلاة الجماعة، وكرره في الزكاة، والرقاق، وكتاب المحاربين، انظر فتح الباري (2/120)، ورواه مسلم في كتاب الزكاة في صحيحه، والترمذي في كتاب الزهد في سننه.

[2] سورة التكوير الآية 1.

[3] سورة الزمر الآية 68.

[4] سورة الزمر الآية 69.

وإنما ذكرت ذلك، لأن حديث إدناء الشمس من رؤوس الخلائق رواه مسلم والترمذي، وتكوير الشمس عند مجيئ الساعة منصوص في القرآن الكريم، والجمع بين القرآن والحديث الصحيح واجب.

السؤال

ومن نور الإسلام الإيمان بسؤال الباري سبحانه وتعالى جميع عباده المكلفين ومحاسبتهم وإيتاء كتب الأعمال قال تعالى ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [1] وعن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم((ما منكم أحد إلا سيكلمه الله ربه يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة)). رواه الشيخان والترمذي[2].

وعن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال((لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيم أفناه وعن عمله فيم فعل وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن جسمه فيم أبلاه))[3].

---

[1] سورة المائدة الآية 109.
[2] أخرجه البخاري في الرقاق. انظر القسطلاني (9/314).
[3] الترمذي رقم الحديث 2532 طبعة القاهرة.

صحف الأعمال

ومن نور الإسلام الإيمان باستلام صحف الأعمال، قال الله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [1].

وقد روى في الصحاح أنه بعدما أفسح الله المجال لعبده في إبداء معاذيره يقول العبد لربه لا أجيز علي إلا شاهداً مني فينطق الله جوارحه.

عن أنس رضي الله قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال((هل تدرون بم أضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرني من الظلم قال: يقول بلى، قال فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني، فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً قال فيختم على فيه فيقال لأركانه انطقي قال فتنطق بأعماله قال ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعداً لكُنّ وسحقاً فعنكن كنت أناضل))[2] رواه مسلم.

---

[1] سورة الحاقة الآية 19-28.

[2] مسلم كتاب الزهد. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (10/433-434).

الميزان

ومن نور الإسلام الإيمان بالميزان قال تعالى ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [1] فالوزن حق، وكيفيته موكولة إلى علم العليم الخبير، والإيمان به واجب، فعندنا في عالم الشهادة موازين للحرارة والبرودة، ولثقل الأشياء وخفتها، ولضغط الدم، وللأنواء الجوية، وكذلك في القيامة ميزان توزن فيه، أما صحائف الأعمال، أو نفسها بعد تجسيمها بأجسام نورانية وأجسام ظلمانية، وظاهر الحديث الشريف أن له كفتين إحداهما للحسنات والأخرى للسيئات، ويجوز أن يبقى على ظاهره، لأنه أمر ممكن أخبر به الصادق، ولا موجب للعدول عنه.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال((إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول الله اتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمتك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يارب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يارب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: أحضر وزنك، فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فقال: إنك لا تظلم قال فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء))رواه الترمذي [2]

---

[1] سورة الأنبياء الآية 47.

[2] سنن الترمذي رقم 2777 طبعة القاهرة، وأخرجه ابن ماجة في كتاب الزهد من سننه رقم الحديث 4300.

القصاص

ومن نور الإسلام الإيمان بالقصاص أي الانتقام من الظالم وأخذ حـق المظلـوم منـه على مـا فصـل في الـدين، عن أبي هريـرة رضي الله تعالى عنـه أن رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم قال((من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها فإنـه ليس ثم دينـار ولا درهم من قبـل أن يؤخـذ لأخيـه من حسـناته، فـإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطـرحت عليـه))[1] رواه الشيخان.

وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليـه وسلم قال((يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطـرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظـالم كـانت بينهم في الـدنيا، حـتى إذا هـذبوا ونقـوا أذن لهم في دخـول الجنـة فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهـدى بمنزلـه في الجنـة منـه بمنزله كان في الدنيا))[2]

[1] أخرجه البخاري في كتاب المظالم. القسطلاني (4/258) وكرره في الرقاق. القسطلاني (9/311).

[2] أخرجه البخاري في الرقاف. انظر القسطلاني (9/311-312).

رواه البخاري في الرقائق.

وهــذا في المكلفين وهم الجن والإنس، وإن كــان عــدل اللــه تعالى سيقوم على كل مخلوق كما قال صلى الله عليه وسلم((لتؤدن الحقوق حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرنــاء))[1] وترشد إلى هذا الاقتصاص قوله تعالى ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ ﴾[2] ولكنه لا دليل على الثواب والعقاب في الجنــة والنــار بالنسبة إلى غير الجن والإنس فيكون المآل المحو والله أعلم.

الصراط

ومن نور الإسلام الإيمان بالصراط، وهو جسر ممــدود على نــار جهنم، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم((ثم يضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أول من يجوز من الرســول بأمتــه ولا يتكلم أحــد يومئــذ إلا الرســل، وكلام الرسل يومئذ اللهم سلم سلم))[3] رواه الشيخان.

وروى مسلم في الإيمان عن أبي هريرة وعن حذيفة رضي الله تعـالى عنهمــا((أنــه ترســل الأمانــة والــرحم فتقومــان جنبــتي الصراط يميناً وشمالاً، فيمر أولكم كالبرق، قال قلت: بأبي أنت وأمي أي شي كمر البرق، قــال ألم تــروا إلى الــبرق كيــف يمــر ويرجع في طرفــة عين؟ ثم كمــر الــريح، ثم كمــر الطــير، وشــد الرجال، تجرى بهم أعمالهم ونــبيكم قــائم على الصــراط يقــول رب سلم سلم حتى تعجز أعمال العبــاد حــتى يجــيئ الرجــل فلا يســتطيع الســير إلا زحفــاً، قــال وفي حــافتي الصــراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمــرت بــه، فمخــدوش نــاج، ومكــدوس في النار والذي نفس أبي هريــرة بيــده أن قعــر جهنم لســبعون خريفاً))[4].

---

[1] أخرجــه مســلم في كتــاب الــبر. انظــر شــرح النــووي في هــامش القسطلاني (10/14).

[2] سورة الأنعام الآية 38.

[3] قطعة من حديث رواه البخاري في الرقاق أوله «يجمــع اللــه النــاس فيقول» الحديث. انظر القسطلاني (9/331-332).

[4] هذا قسم من حديث طويل رواه مسلم في كتاب الإيمان أوله «يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون» الحديث. انظر شــرح النــووي في هــامش القسطلاني (1/171-173).

<282>
وقوله صلى الله عليه وسلم((ترسـل الأمانـة والـرحم))معنـاه تقوم الأمانة والرحم في صورة شخصـين فتقفـان على حـافتي الصراط تشهدان لمن قـام بحقهمـا، وعلى من لم يقم بحقهمـا وذلك لعظم أمرهما.
فالصراط كقنطرة على النار بعد أن ينتهي النـاس من الموقـف يؤمرون بالمرور عليـه، فأهـل النـار يقعـون فيهـا، وأهـل الجنـة يمرون عليها على اختلاف درجات سرعتهم، ولكن ينال بعضـهم منها شدائد نسأل الله السلامة منها، فإنه ثبت أن من المؤمنين من يمر كطرف العين، وكالبرق، وكـالريح، وكـالطير، وكأجاويـد الخيـل والركـاب، فنـاج مسـلم، ومخـدوش، ومكـدوس في نـار جهنم.
<283>

.

وتبين من هذه المباحث أن الجن والإنس يعرضون على الله سبحانه وتعالى يوم القيامة في المحشر جميعاً كما قال تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [1] وللموقف أهوال وأحوال، فالحال الأولى وقف الخلائق، وهم سكوت خائفون راهبون خاشعون، وهذه الحال أشد الأحوال قال تعالى ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [2] قال ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [3].

وبعد وقوفهم في تلك الشدة يشفع الرسول صلى الله عليه وسلم فتتبدل الشدة بأحوال أخرى ويشرع في السؤال والحساب وتنزل الصحف، وتأخذها الناس بأيمانهم وشمائلهم ووراء ظهورهم، فتوزن الأعمال ويحسب المكلفون، ويأخذ العصاة في المناقشة بعد ظهور خفة ميزان خيرهم، فتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يكسبون. وبعد ذلك يضرب الصراط على متن جهنم فيؤمرون بالمرور عليه، وأول من يمر عليه هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأمته، فمن ناج سالم، ومن مخدوش، ومكدوس في نار جهنم، فالكافر يبقى خالداً فيها والممن يبقى مقدار استحقاقه العذاب، ثم يخرج منها، أو يخرج قبل التعذيب بالشفاعة، ومصيره إلى الجنة ورضوان الله رب العالمين، فنسأل الله الرؤوف الرحيم أن يعاملنا بفضله وإحسانه ويحشرنا تحت لواء سيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وعليهم أجمعين.

---

[1] سورة الحاقة الآية 18.

[2] سورة طه الآية 108.

[3] سورة طه الآية 111.

الحوض المورود

وأن لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حوضاً مشهوراً بالحوض المورود يصله الرسول صلى الله عليه وسلم بعد عبوره من الصراط وترد عليه أمته، عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال((إن أمامكم حوضاً كما بين (جرباء) و(اذرح)))[1] رواه الثلاثة.

وعن حارثة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال((الحوض كما بين المدينة وصنعاء))[2]. وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال((إن قدر حوضي كما بين أيلة وصنعاء من اليمن وأن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء))[3] رواهما الشيخان.

وللبخاري. ((حوضي مسيرة شهر ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك وكيزانه كنجوم السماء من شرب منه فلا يظمأ أبداً))[4].

<285>

---

[1] أخرجه البخاري في الرقاق باب الحوض. انظر القسطلاني (9/336)، ومسلم في الفضائل. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (9/152)، وأخرجه أبو داود عن ابن عمر في باب الحوض، انظر السنن ج2 ص538.

جرباء، واذرح، قريتان بالشام بينهما ثلاث مراحل.

[2] انظر البخاري في الرقاق باب الحوض القسطلاني (9/342-343)، ومسلم في الفضائل. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (9/152).

[3] أخرجه البخاري عن أنس بن مالك في الرقاق باب الحوض القسطلاني (9/338-339)، ومسلم في الفضائل. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (9/158).

[4] أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمرو في الرقاق باب الحوض القسطلاني (9/338).

وماء هذا الحوض يمتد من نهـر الكـوثر الجـاري في الجنـة كمـا يؤخـذ من حـديث نهـر الكـوثر في الحـديث الـوارد في شـأنه وسنذكره إن شاء الله تعالى.

الشفاعة

ومن نور الإسلام الإيمان بأن الشفاعة ثابتة للرسل وللأخيار في حق أهل الكبـائر من المؤمـنين، لاسـيما شـفاعة سـيدنا محمـد صلى الله عليه وسـلم، فقـد دل عليهمـا الكتـاب، فمن الكتـاب قولـه تعـالى ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [1] وقولـه تعالى ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [2] فإنـه لـو لم تجـز الشفاعة ما كان يستثنى وقت إذنه تعـالى بهـا، فـإن المجـال لا يتقيـد بـوقت دون وقت، وقولـه تعـالى ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ [3] أي أن الشـافعين لا يشفعون إلا لمن ارتضى الباري سـبحانه وتعـالى أن يشـفع لـه، وقال تعالى على لسان بعض الكفار ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [4] فلـو لم تكن الشـفاعة واقعـة للمـذنبين من المسلمين، لم يبق فرق بينهم وبين الكافرين.

ومن السـنة قولـه صـلى اللـه عليـه وسـلم فيمـا رواه جابر((شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي))[5]، وهذا الحديث رواه

---

[1] سورة محمد الآية 19.

[2] سورة البقرة الآية 255.

[3] سورة الأنبياء الآية 28.

[4] سورة الشعراء الآية 100.

[5] رواه الترمذي رقم الحديث 2552 و2553 طبعة القاهرة وأخرجه أبو داود في باب الشفاعة. انظر السنن (2/537)، وأخرجه ابن ماجة بلفظ «إن شفاعتي يوم القيامة لأهل الكبائر من أمـتي» انظـر السـنن كتـاب الزهد رقم الحديث 4310.

الترمذي وأبو داود، وهو حديث مشهور، بـل الأحـاديث في بـاب الشفاعة متواترة المعنى.
وحكمة الشفاعة تكريم الشافعين، ورفـع شـؤونهم على رؤوس الأشـهاد، وإفاضـة الكـرم الإلهي على المشـفوع لـه، وغفـران الباري سبحانه وتعالى للمذنبين بدون الشفاعة جائز، وأخبر عن وقوعـه البـاري تعـالى بقولـه ﴿يَغفِـرُ لِمَن يَشَـآءُ وَيُعَـذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [1] فمع شفاعة الشافع أولى وأجلى.
واستدلال المخالف بنحو قوله تعـالى ﴿مَـا لِلظَّٰلِمِينَ مِن حَمِيم وَلَا شَـفِيع يُطَـاعُ﴾ [2] سـاقط عن الاعتبـار، لأنـه محمـول على الكفار، وكلامنا في الشفاعة للمسلمين.
عن عوف بن مالك رضي الله تعالى عنه عن النـبي صـلى اللـه عليه وسلم قال((أتاني آت من عند ربي فخيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة، وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة، وهي لمن مات لا يشرك بالله شيئاً))[3].
وما ورد من قوله صلى الله عليه وسلم حين نـزل قولـه تعـالى ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [4] «يـا بـني هاشـم أنقـذوا أنفسـكم من النـار، يـا بـني عبـد المطلب أنقـذوا أنفسـكم من النـار، يـا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها» [5].
<287>

---

[1] سورة البقرة الآية 284.
[2] سورة غافر الآية 18.
[3] أخرجـه الترمـذي في سـننه رقم 2558، وأخرجـه ابن ماجـة، وفيـه «أترونها للمتقين؟ لا، ولكنها للمذنبين الخطائين المتلوثين» انظر سـننه كتاب الزهد رقم 4311.
[4] سورة الشعراء الآية 214.
[5] أخرجـه مسـلم من حـديث أبي هريـرة أولـه «لمـا نـزلت هـذه الآيـة {وأنذر.....} دعا رسول اللـه قريشـاً فـاجتمعوا» كتـاب الإيمـان. انظـر شرح النووي في هامش القسطلاني (2/181-182).

فما كان منه خطاباً للكفار فواضح أن الشفاعة ليست للكافرين وما كان خطاباً للمؤمنين منهم الداخلين في القوم، والباقي كفار، أو خطاباً لفاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها فيحمل على إظهار الخوف من الله تعالى، وأنه ليس يملك شيئاً، وما له صلاحية بدون لطفه تعالى وكرمه، وعلى الترهيب لهم من عقاب الله تعالى، وعلى الترغيب في الزيادة من الطاعات لينالوا الدرجات، وليس معناه نفي الشفاعة جوازاً أو وقوعاً، مع تلك الأحاديث الكثيرة الدالة عليها. وليس في القول بالشفاعة أعداد الناس للجرأة والجسارة على المعاصي كما توهمه بعض، إذ ليس في علم أي شخص أنه يشفع له حتى يكون ذلك جالباً لإقدامه عليها كما هو واضح للمنصفين.
وثبت على ضوء الأحاديث الشريفة أن للرسول صلى الله عليه وسلم شفاعات خمساً:
الأولى – الشفاعة العظمى، المعروفة بالمقام المحمود، وهي إراحة أهل الموقف من أهوال القضاء بينهم والفراغ من حسابهم.
ففي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((مازال الرجل يسأل الناس حتى يـأتي يـوم القيامـة ليس في وجهه مزعة لحم وقال إن الشمس تدنو يوم القيامة حـتى يبلـغ العرق نصف الأذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم، ثم بموسى، ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم، وزاد عبد الله بن صالح حدثني الليث حدثني ابن أبي جعفر، فيشفع ليقض بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً يحمـده أهـل الجمـع كلهم [1]. انتهى نصـاً باختصـار السـند: وفي هـذه الرواية اختصار من أسامي بعض الرسل عليهم السلام.

وفي فتح البـاري شـرح صـحيح البخـاري للمحـدث الشـهير ابن حجر العسقلاني، قوله بحلقة الباب أي باب الجنة، أو هـو مجـاز عن القرب، والمقام المحمود هو الشفاعة العظمى التي اختص بها صلى الله عليه وسلم، وهي إراحة أهل الموقـف من أهـوال القضاء بينهم والفراغ من حسابهم.

وفي فتح الباري في شرح كتاب الرقاق من صحيح البخـاري مـا نصه ووقع في حديث أبي بن كعب عند أبي يعلى مـا نصـه))ثم امتدحه بمدحة يرضى بها عـني ثم يـؤذن لي في الكلام ثم تمـر أمتي على الصراط وهو منصوب بين ظهراني جهنم فيمــرون(([2] انتهى، وفيه أن موقف الرسول صلى الله عليه وسلم حينئــذ عند الصراط.

[1] أخرجه البخاري في كتاب الزكاة. انظر القسـطلاني (3/63) ومسـلم في كتاب الزكاة. انظر شرح النووي في هـامش القسـطلاني (4/438) والنسائي في كتاب الزكاة (5/94).

[2] انظـر فتح البـاري عنـد شـرح حـديث أنس «يجمـع اللـه النـاس يـوم القيامة» الحديث (11/380).

الثانية – الشفاعة لإخراج عصاة المؤمنين من النــار في صــحيح البخاري في آخــر الحــديث الــذي رواه في كتــاب الرقــاق قولــه صلى الله عليه وسلم))فيأتون فأســتأذن على ربي، فــإذا رأيتــه وقعت لــه ســاجداً فيــدعني مــا شــاء اللــه، ثم يقــال لي: ارفــع رأسك، وسل تعطه، قل يســمع، واشــفع تشــفع، فــأرفع رأســي فأحمد ربي بتحميد يعلمني، ثم أشفع فيحد لي حداً، ثم أخرجهم من النار، وأدخلهم الجنة، ثم أعود فأقع ساجداً مثله في الثالثــة أو الرابعــة حــتى مــا يبقى في النــار إلا من حبســه القــرآن(([1] انتهى، وقال قتادة: أي وجب عليه الخلود والعياذ بالله.

الثالثة – الشفاعة في قوم استوجبوا النار بذنوبهم، فلا يدخلونها لشفاعته صلى الله عليه وسلم.

الرابعة – الشــفاعة لإدخــال قــوم الجنــة بغــير حســاب، عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه عن النــبي صــلى اللــه عليــه وســلم قــال))وعــدني ربي أن يــدخل الجنــة من أمــتي ســبعين ألفــاً لا حساب عليهم ولا عــذاب مــع كــل ألــف ســبعون ألفــاً(([2] رواه الترمذي بسند حسن.

الخامســة – الشــفاعة في زيــادة الــدرجات في الجنــات لبعض أهلها، والله هو الجواد الكريم.

[1] أخرجه البخاري في الرقاق. انظر القسطلاني (9/325-326)، وكرره في كتاب التوحيــد بــاب وكــان عرشــه على المــاء. انظــر القســطلاني (10/406-408).

[2] انظر سنن الترمذي رقم 2554 طبعة القاهرة.

وبعد شـفاعة سـيدنا محمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم يفتح بـاب الشفاعة لمن ارتضاه اللـه تعـالى قـال تعـالى ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾ [1].

قـال المفسـرون: أي لمن كـان قولـه واعتقـاده لا إلـه إلا اللـه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن عثمـان عن النـبي صلى الله عليه وسلم قال))يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبيـاء ثم العلماء ثم الشهداء(([2] رواه ابن ماجه بسند صحيح.

وعن أبي سعيد الخدري رضي اللـه عنـه أن رسـول اللـه صـلى الله عليه وسلم قـال))من أمـتي من يشـفع للفئـام ومنهم من يشفع للقبيلة ومنهم من يشفع للعصبة ومنهم من يشفع للرجل حتى يدخلوا الجنة(([3] رواه الترمذي.

وعن أبي الـدرداء رضـي اللـه عنـه عن النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم قال))يشفع الشهيد في سبعين من أهـل بيتـه(([4] رواه أبو داود.

---

[1] سورة طه الآية 109.

[2] أخرجه ابن ماجة في سننه كتاب الزهد رقم 4213 وفي سنده علاق ابن أبي مسلم، قال في حقه الحافظ ابن حجر في التقـريب مجهـول (2/94).

[3] انظر سنن الترمذي رقم الحديث 2557.

[4] انظر سنن أبي داود كتاب الجهاد (2/15).

الجنة والنار

ومن نور الإسلام الإيمان بالجنة والنار وأنهما مخلوقتان في هذا العالم وموجودتان الآن وستكونان الدار الأبدية للمسلمين والكافرين.

وذلك لظاهر الآيات الدالة على ذلك كقوله تعالى في شأن الجنة ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ في آية ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[1]، وقوله تعالى ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ في آية ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾[2].

ولظاهر الأحاديث التي تدل على أن الله سبحانه وتعالى كشف لرسوله صلى الله عليه وسلم الجنة والنار وأهلهما، وهي مروية في الصحاح.

وأما مكانهما فهو وإن لم يرد نص صريح في تعيينه لكن الأكثرين من العلماء على أن الجنة فوق السماوات السبع وتحت العرش تمسكاً بظاهر قوله تعالى ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ * عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾[3] وبقوله صلى الله عليه وسلم))سقف الجنة عرش الرحمن وأن النار تحت الأرضين(([4] أي أنها بقعة مما خلقه الله في هذا

[1] سورة آل عمران الآية 133.
[2] سورة آل عمران الآية 131.
[3] سورة النجم الآية 14.
[4] هذا الحديث بهذا اللفظ لم أطلع له على سند، لكن هناك أحاديث تدل على أن الجنة في السماء منها ما رواه: البخاري «والفردوس أعلاها درجة... ومن فوقها يكون العرش» راجع ص 297.

العالم، وإسنادها إلى مـا تحت الأرض لإفـادة فظاعتهـا والرهبـة منها.

ثم إن ظاهر الدلائل المـذكورة وإن لم يفـد القطـع واليقين في الموضـوع، إلا أن القـدر المشـترك من الأدلـة الدينيـة كتابـاً أو سنة، أفاد أنهما موجودان فعلاً في هذا العالم، وهو عـالم واسـع لا يحيـط بـه عقـل البشـر، وليس بغـريب أن يكـون فيـه هاتـان البقعتان، مـع أن العلمن قـد اكتشـف أن الشـمس تقـارب ربـع مليون مقدار الأرض، وما هي إلا كوكب من كواكب هـذا العـالم الذي لم يكتشف من كواكبه إلا القليل.

وأما صفات أهلهما فمذكورة في القرآن وسـنة الرسـول صـلى الله عليه وسلم بما لا مزيد عليه.

أما النار وأبوابها وأوصافها فقد قال سبحانه وتعالى ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [1] وقـال تعـالى ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِلشَّوَى * تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ [2] والآيـات القرآنيـة في فظاعـة عـذاب النـار وهولهـا وشـدتها على أهلهـا، كثيرة معلومة عند كل قارئ فـاهم، فلا حاجـة إلى البيـان. وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه أنـه قـال وهـو يخطب سـمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقـول))إن أهـون أهـل النـار عذاباً يوم القيامة لرجل توضع في أخمص قدميه جمرتـان يغلي منهما دماغه((رواه الشيخان والترمذي [3].

[1] سورة الحجر الآية 43.

[2] سورة المعارج الآية 17.

[3] انظر إرشاد الساري الرقاق (9/323).

وأمـا أهلهـا فهم الكفـار من الجن والإنس خالـدون فيهـا أبـداً، والعصاة من المؤمنين منهما يعـذبون بالمقـدار المقـدر لهم في علمه سبحانه وتعالى ثم يخرجون منها ويدخلون الجنـة برحمتـه ويبقون أبد الآبدين.

وأما صـفة الجنـة ومـا فيهـا. فقـد قـال تعـالى في بيانهـا وبيـان خـدمها وحورهـا وفرشـها ومأكلهـا ومشـربها ﴿وَيَطُـوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُـؤٗا مَّنثُـورٗا * وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِـيرًا * عَٰلِيَهُمۡ ثِيَـابُ سُـندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا * إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾[1].

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُـونَ * فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِـرِينَ * عَلَىٰ سُـرُرٖ مَّوۡضُـونَةٖ * مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ * يَطُـوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَـأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ * لَّا يُصَـدَّعُونَ عَنۡهَـا وَلَا يُـنزِفُونَ * وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡـتَهُونَ * وَحُـورٌ عِينٞ * كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ * جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ * لَا يَسۡـمَعُونَ فِيهَا لَغۡـوٗا وَلَا تَأۡثِيمًـا * إِلَّا قِيلٗا سَـلَٰمٗا سَـلَٰمٗا * وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَـآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ * فِي سِـدۡرٖ مَّخۡضُـودٖ * وَطَلۡحٖ مَّنضُـودٖ * وَظِـلّٖ مَّمۡدُودٖ * وَمَــآءٖ مَّسۡكُوبٖ * وَفَٰكِهَــةٖ كَثِــيرَةٖ * لَّا مَقۡطُوعَــةٖ وَلَا مَمۡنُوعَـةٖ * وَفُـرُشٖ مَّرۡفُوعَـةٍ * إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَـآءٗ * فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَـارًا * عُرُبًـا أَتۡرَابٗـا * لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ * ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾[2]

---

[1] سورة الإنسان الآية 19-22.

[2] سورة الواقعة الآية 10-41.

وقال تعالى ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال))قال عز وجل أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخراً بله ما اطلعكم الله عليه((ثم قرأ ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [2]. رواه الشيخان والترمذي.

وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال))لقاب قوس أحدكم في الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو تغرب(([3]. رواه الخمسة.

وأما بناؤها فعن أبي هريرة رضي الله عنه قلت: يا رسول الله مممّ خُلق الخلق؟ قال: «من الماء» قلنا: الجنة ما بناؤها؟

---

[1] سورة الزخرف الآية 71.

[2] البخاري كتاب التوحيد. انظر القسطلاني 10/436 ورواه في كتاب بدأ الخلق أيضاً، ومسلم في كتاب الجنة. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (10/282).

[3] رواه البخاري في حديث طويل في الرقاق باب صفة الجنة بلفظ «ولقاب قوس أحدكم أو موضع قدم من الجنة خير من الدنيا وما فيها».

قال «لبنة من فضة ولبنة من ذهب وملاطها (أي مـا يوضـع بين أجزاء البناء كالطين) المسك الأذفر (شديد الرائحة) وحصـباؤها اللؤلـؤ وتربتهـا الزعفـران من دخلهـا ينعم ولا ييـأس ويخلـد ولا يموت لا تبلي ثيابهم ولا يفنى شبابهم» [1].

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم يقول))إن أهل الجنة يأكلون فيهـا ويشـربون ولا يتفلـون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون((قالوا فمـا بـال الطعـام قال))جشاء ورشح كرشح المسـك يلهمـون التسـبيح والتحميـد كما يلهمون النفس(([2].

وأما أبوابها فثمانية عن سهل رضي اللـه عنـه عن النـبي صـلى الله عليه وسلم قال))في الجنة ثمانية أبواب فيها بـاب يسـمى الريّان لا يدخله إلا الصائمون(([3]. رواه الشيخان.

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسـلم قال))باب أمتي الذي يدخلون منه الجنة عرضه مسيرة الراكب الجواد ثلاثاً ثم إنهم ليضغطون عليه حتى تكاد منـاكبهم تـزول(([4]. رواه الترمذي.

---

[1] قطعة من حديث طويل أخرجه الترمذي في صفة الجنـة وقـال: هـذا الحديث ليس إسناده بذلك القوى رقم الحديث 2646 طبعة القاهرة.

[2] أخرجه مسلم في كتاب صفة الجنة. انظر شـرح النـووي في هـامش القسطلاني (10/290).

[3] أخرجه البخاري في كتاب بدأ الخلق. انظر القسطلاني (5/286).

[4] أخرجه الترمذي في سننه رقم 2672.

وأما درجاتها فعن عبادة رضي الله عنه أن رسول اله صلى الله عليه وسلم قال))في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة ومن فوقها يكون العرش، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس(([1] رواه الترمذي والبخاري.

وأما أنهارها فقد قال تعالى ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [2].

وأما ثمار شجراتها وظلالها فقد قال تعالى ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [3].

وأما نصيب أهل الجنة من الجنان فقد قال تعالى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [4]. وأما صفاء القصور، فعن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

---

[1] أخرجه البخاري في كتاب الجهاد. انظر القسطلاني (5/37-38)، والترمذي في صفة الجنة رقم 2651 طبعة القاهرة.

[2] سورة محمد الآية 15.

[3] سورة الرعد الآية 35.

[4] سورة الرحمن الآية 46.

))إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فـوقهم كمـا تـتراءون الكـوكب الـدري الغـابر في الأفـق من المشـرق أو المغـرب لتفاضل مـا بينهم((قـال يـا رسـول اللـه تلـك منـازل الأنبيـاء لا يبلغها غيرهم قال))بلى، والذي نفسي بيـده رجـال آمنـوا باللـه وصدقوا المرسلين(([1]. رواه الشيخان والترمذي.

الكوثر

وأما الكـوثر، فهـو نهـر مختص بسـيدنا محمـد صـلى اللـه عليـه وسلم، فعن أنس رضي الله عنه قـال: سـئل النـبي صـلى اللـه عليه وسلم عن الكوثر فقال صلى الله عليـه وسـلم))ذاك نهـر أعطانيه الله عز وجـل في الجنـة أشـد بياضـاً من اللبن، وأحلى من العسل فيه طيور أعناقها كأعناق الجزر((قال عمر أن هذه لناعمة قال رسول الله))أكلتها أنعم منها(([2]. يعني أنها ناعمة وشهية لذيذة والآكلون لها أحسن منظراً منها.

وعن أنس رضي الله عنـه قـال: أغفى رسـول اللـه صـلى اللـه عليه وسلم إغفـاءة فرفـع رأسـه متبسـماً فأمـا قـال لهم، وأمـا قالوا له يا رسول الله لم ضحكت؟ فقال))إنه أنزلت علي آنفـاً سورة فقراً (بسم اللـه الـرحمن الـرحيم إنـا أعطينـاك الكـوثر) حتى ختمها فلما قرأها قال: هل تدرون ما الكـوثر؟ قـالوا: اللـه ورسوله أعلم. قال((فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجـل في الجنـة وعليه خير كثير عليه حوض ترد عليـه أمـتي يـوم القيامـة آنيتـه عدد الكواكب))[3].

---

[1] رواه البخاري في الرقاق. انظـر القسـطلاني (9/321)، ومسـلم في كتـاب الجنـة. انظـر شـرح النـووي في هـامش القسـطلاني (10/285) والترمذي في صفة الجنة رقم 2581 وبشرح ابن العربي (10/21).

[2] أخرجـه الترمـذي في صـفة الجنـة 2545 طبعـة حمص وبشـرح ابن العربي (10/12).

[3] أخرجه أبو داود في باب الحوض من سننه (2/538).

وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال((بينما أنـا أسـير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قبـاب الـدر المجـوف قلت: مـا هـذا يـا جبريل، قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربـك فـإذا طينـه أوطيبـه مسك أذفر))[1]. رواه البخاري وأبو داود والترمذي.
وعن ابن عمـــر أن رســـول اللـــه صـــلى اللـــه عليـــه وســـلم قال((الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب ومجراه على الـدر واليـاقوت تربتـه أطيب من المسـك ومـاؤه أحلى من العسـل وأبيض من الثلج))[2] رواه الترمذي بسند صحيح. ولا منافـاة بين هذا الحديث وما قبله، فإن الحافة من الذهب لا تمنع قباب الدر فوقها. وقد أنزل الله تعـالى في قـرآن الكـريم ذكـر النفخـتين، وحشر الخلايق، وحسابهم، وسوق الكـافرين إلى النـار، وسـوق المتقين إلى الجنة، واسـتقبال الملائكـة الكـرام لهم، وتسـليمها عليهم، وتبشيرهم بدخول الجنة خالدين، وحمـدهم للـه سـبحانه وتعـالى على هـذه النعمـة الجسـيمة، وتسـبيح الملائكـة حـول العرش العظيم. <299>

[1] رواه البخاري من الرقاق باب الحوض. انظـر القسـطلاني (9/339)، وأبو داود في سننه (2/239).
[2] أخرجه الترمذي في سننه رقم الحديث 3419 طبعة القاهرة.

فقال ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِالنَّبِيِّـۧنَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَٰفِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ * وَقَالُوا۟ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَٰمِلِينَ * وَتَرَى الْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ﴾ (1).

قد تبركت وتشرفت أنامل يدي اليمنى باقتباس هذه الأنوار من نور الإسلام، تنويراً لقلوب الأخوة والأخوات

<300>

(1) سورة الزمر الآية 68-75.

هـذا آخـر مـا يسـر اللـه إملاءه من التعليقـات المتواضـعة على رسـالة فضيلة أستاذي الشيخ عبد الكريم المدرس المسـماة «بنـور الإسـلام» راجياً من الله أن يتقبلها بقبول حسن، كمـا آمـل أن تحظي باستحسـان القراء الكرام.

محمد الملا أحمد الكزاني.

الكـــرام، وتـــذكرة للمتـــذكرين من أولي الأفهـــام، وتبصـــرة للمتبصرين من الشباب المهتدين بهـدي الرسـول القائـد لأمتـه إلى دار السلام، أسأل الله سبحانه وتعـالى أن ينفعـني وإياهمـا بها في الدنيا وفي الآخرة عند لقاء الملك العلام.

وكان ختام التبرك قبيل عصر يوم السبت الرابع من أيام شوال لسنة ألف وثلاثمائة وسلعة وتسعين من هجرة سيد الأنام عليـه الصـلاة والسـلام، المصـادف لليـوم السـابق عشـر من الشـهر التاسع لسنة ألف وتسعمائة وسبعة وسـبعين من ميلاد المسـيح عليه وعلى بقيـة الأنبيـاء الكـرام الصـلاة والسـلام. وأنـا سـاكن بغرفة المدرسـة المتصـلة بالمنـارة الشـمالية في جـامع سـيدنا قطب الأوليـاء حضـرة الشـيخ عبـد القـادر الكيلاني قـدس اللـه تعالى سره، وأفاض علينا نوره وبره، من محلة باب الشـيخ في بلدة بغداد المحروسة المعروفة ببرج الأولياء ودار السلام، وفي الحقيقـــة هي دار الاســـلام، والمحـــدثين، والفقهـــاء، والعلمـــاء الكـرام، أعلى اللـه مقـامهم آمين، وأن الفقـير إلى اللـه عبـد الكـريم محمـد الكـردي الشـهرزوروي من عشـيرة القاضـي القاطنين في مركز ناحية شهرزور التابعة لقضاء حلبجة التابعـة لمحافظـة السـليمانية عصـمها اللـه وسـائر بلاد المسـلمين من الآفات ببركة الرسول صلى الله عليـه وسـلم. وآخـر دعوانـا أن الحمد لله رب العالمين.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد المبعوث رحمة للعالمين.

وبعد فإن كتاب نور الإسلام، يضيئ طريق الحق والصواب، ينير مسالك السعادة في الدنيا والآخرة، ويزيل القشور الفاسدة عن لب حقيقة الإسلام والإيمان، بأسلوب بديع رفيع وسط بين الإطناب الممل والإيجاز المخل سابكاً الأدلة النقلية بالأدلة العقلية سبك الصائغ الماهر الأحجار الكريمة في الذهب. ومن حسن الحظ أن أتاح الله لي الفرصة لأقوم بتخريج آياته وأحاديثه، وأن أعلق عليه بعض التعليقات.

محمد الملا أحمد الكزني

<306>

فهرس الكتاب